رجاء نعمة

مذكّرات امرأة شيعيّة

سيرة روائيّة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

رجاء نعمة

مذكّرات امرأة شيعيّة

سيرة روائية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مذكّرات امرأة شيعيّة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN: 978-9953-88-772-2

تدقيق لغوي: خليل السيقلي

تصميم الغلاف: رينا كلزي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

الغلاف: كولاج، نفّذته الكاتبة باستخدام غلاف سابق للفنّان حلمي التوني.

سيّدتي، أنت إذن...

سُوْرَةُ الْفَاتِحَةِ مَكِّيَّةٌ وَهِيَ سَبْعُ اٰيَاتٍ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ۝١

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ۝٢ الرَّحْمٰنِ
الرَّحِيْمِ ۝٣ مٰلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ ۝٤ اِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ۝٥ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيْمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِيْنَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّيْنَ ۝٧

شيعيّة؟!

تعليق أشبه بسؤال ألقته عليّ الشابّة كاترين. تعرّفت بها في اليمن وكانت تعمل مع إحدى المنظّمات المهتمّة بتعليم الفتيات. طبيعة أنشطتنا وطّدت بيننا الصلة، فأخذنا نتبادل الزيارات والأحاديث بعيداً عن هموم العمل. وبمرور الوقت صارت تسألني عن خصوصيّاتي: أصولي، نشأتي، وديانتي. أخبرتها بأنّي مسلمة من لبنان.

- معقول؟! هتفت!

- وما هو غير المعقول؟

- عفواً، لا أقصد... ولكن...

- لكن ماذا؟

- لأيّ المذاهب الإسلاميّة ترجع أصولك؟

- للمذهب الشيعيّ.

- إذن أنت شيعيّة؟!

مذ ذاك غدوت موضوع فضول كبير لدى كاترين. فضول تترجمه بأسئلة، بعضها صريح والآخر مبطّن، من تلك التي تحمل تصوّرات وأحكاماً مسبقة والتي بدأت، في الآونة الأخيرة، تشهد ازدهاراً كبيراً في العالم.

في معرض فضولها سألتني كاترين عمّا جاء بي إلى اليمن؟

- «لا عجب، قلت، جدّتي الفينيقيّة «أَليسار»، قبل آلاف السنين، سبقتني إلى الساحل الجنوبيّ للبحر المتوسّط، أسّست مدينة «قرطاج» حيث نشرت الأبجديّة».

في ذاكرة الشعوب، قد يدوّن التاريخ ما سبق للأسطورة أن روته. شأن أسطورة «قدموس وأخته أوروبّا»: كان الإله «زوس» قد تنكّر بهيئة ثور ليخطف «أوروبّا» من فينيقيا إلى قارّات بعيدة. صار يترصّد خطاها. في عبورها ساحل مدينتها صور باتّجاه صيدا، قام «الإله» بخطفها. لكنّ أخاها قدموس لم يستسلم. لحق بأخته لإعادتها إلى الأرض التي ينبغي أن تُعاد إليها. على أنّ رحلته أثمرت ما من شأنه تغيير وجه التاريخ: نشر الأبجديّة، أصل الكتابة التجريديّة التي نستخدمها اليوم.

الأسطورة تلك، كانت في صغرنا، من قلائل دروس التاريخ التي

نتشوّق إلى سماعها وتأمّل الصورة المرافقة للنصّ، والتي تمثّل الشابّة على ظهر الثور. المشهد كان يثير في نفوسنا الهلع، كما تثير خيالنا رحلة الصبيّة الجميلة عبر القارّات، وأخوها قدموس يمخر عباب البحار لاحقاً بها.

كان «لأليسار» و«أوروبّا» وقع السحر في نفس كاترين:

- يا إلهي، كلّ يوم نكتشف مشتركاً جديداً بين الشعوب. ونكتشف فضل النساء على الحضارات: أليسار. أوروبّا. أليزابيت الأولى وغيرهنّ كثيرات!

ومازحتها بالقول:

- إذن لا تنسي صلات القربى... أنت من قارّة تحمل اسم جدّتي الفينيقيّة التي ولدت حيث ولدتُ...

- فعلاً...

- «ولعلّه ليس من ضروب المصادفات أن آتي أنا، من مسقط رأسها صور، وأنت من قلب أوروبّا، لنتابع المهمّة التي بدأتها الجدّة العظيمة تلك...»

تقول كاترين، إنّ اهتمامها بثقافات «الجنوب» دفع بها إلى معهد الاستشراق. فكانت دراستها مدخلاً لعملها في اليمن. تعتبر نفسها محظوظة؛ فالحياة هنا مثيرة!

«مثيرة جداً»!

حين حملتها الطائرة إلى صنعاء، ما كان يخطر لها أنّها قد تكتب عن تجربتها «هنا» رواية، هي التي لم يسبق لها أن كتبت سوى الأبحاث والتقارير. على أنّ نمط الحياة «هنا» يحفزها لذلك. وتلمع عيناها وهي تحكي حكايات سمعت بها، تدور في غالبيّتها حول حياة النساء في اليمن. وبين الحكاية والأخرى تكرّر: «تصوّري»!

لم يدهشني أن تنجذب الشابّة الفرنسيّة إلى ما هو مختلف، في زمن ينشغل فيه الإعلام «بغرائب» البلدان «الأخرى»: امرأة سجنتها القبيلة، ضربها أخ أو زوج، فلجأت إلى جمعيّة عطوفة أو سفارة أجنبيّة طلباً للحماية.

- «حدّثيني عن نفسك، تقول كاترين. عن النساء في بلدك. يقال إنّ اللبنانيّين يتميّزون من سائر العرب. هؤلاء حتماً مسيحيّون، تأثّروا بأوروبّا. كيف هي إذن حياة المسلمين؟ والمرأة الشيعيّة كيف تعيش»؟

وتسألني كيف عشت أنا حياتي ووصلت إلى ما وصلت إليه؟!

كان من الصعب الإجابة عن أسئلتها. صحيح أنّ للأديان شأناً كبيراً في تاريخ الناس، لكنّ الصحيح أيضاً أنّ الثقافات لا يمكننا اختزالُها. فكيف لو تعلّق الأمر بمنطقة هي من أكثر مناطق العالم تنوّعاً وتمازجاً؟! منطقة ظهرت فيها الأديان السماويّة الثلاثة، ونشأت فيها أو جاورتها الحضارات المؤسّسة للعالم؟!

أو لو تعلّق الأمر بجيل القرن العشرين؟

أكثر الأجيال تفاعلاً بينها وبين أفكار النهضة؟ نحن هنا نتاج حضارات إسلاميّة مسيحيّة ويهوديّة، شرقيّة غربيّة، مغرقة في القدم، ومشرّعة في آنٍ معاً على آخر تجلّيات الحداثة. شعوب كثيرة وفدت إلى المنطقة أو غزتها وخالطت سكّانها...

وسألت كاترين هل تعتبر نفسها وريثة الكاثوليكيّة أو غيرها ليس إلّا ؟!

فاجأتها المقارنة!

ثمّ أوضحت أنّ الكنيسة التي يذهب إليها أهلها، وهي معهم أحياناً، كاثوليكيّة: «لكن هل بلادكم مثل أوروبّا؟ وهل كاثوليك لبنان مثل مسلميها؟ وهل أنت...».

كدت أجيب بأنّي أرى نفسي إنسانة عاديّة لم تمرّ بالتجارب الخارقة أو المريرة التي تتخيّلها. ولا تجد في حياتها عبرة أو أمثولة. بل تشبه الكثيرات من نساء جيلها في لبنان، مسلمات كنّ، مسيحيّات أو حتّى يهوديّات. في ما عدا ظاهر الفوارق، يبقى الجوهر الثقافيّ نفسه.

ولا أدري لمَ خطر لي يومذاك أن أقول لها ما قلت: لعلّني ذات يوم أكتب مذكراتي، فتعثر هي فيها على الأجوبة الكثيرة التي تشغل بالها! على أنّي لو كتبتها، فهل سأفعل لكوني مسلمة شيعيّة؟

أم لكوني يساريّة من جيل...»

لسماعها كلمة «يساريّة» انفرجت أسارير كاترين:

- «لدينا بعض الأصدقاء اليساريّين، بالأحرى كان ذووهم كذلك. من روّاد «الستينيّات». يا لحظّهم! كان لنمط حياتهم «نكهة». حياتنا نحن، الجيل الذي جاء بعد ذلك، رتيبة، مملّة وتفتقر إلى الإثارة. لكم أنتم محظوظون!

- «نحن بالفعل محظوظون، قلت. حتماً، لا يمكننا الزعم أنّنا «لم نعشها»[١].

عشناها، شأن الأجيال التي تولد وتحيا في زمن مغاير. وأنا أعتبر نفسي ابنة هذا العصر. كان عصراً خارقاً برغم اضطراباته، رائعاً برغم قسوته، بهيجاً برغم مآسيه. عصراً صاخباً ترك أثراً فريداً في التاريخ، تاريخ الأفراد وتاريخ الشعوب، الغربيّة منها والشرقيّة. على أنّه من غير المؤكّد أنّك إن عشتَ في عصر فريد كنتَ بالضرورة من صانعيه.

* * *

منذ طفولتي، كان لديّ شغف بالذكريات، على أنّي ما اهتممت

(١) بالإشارة إلى مذكّرات الشاعر التشيليّ «بابلو نيرودا بعنوان «أعترف بأنّي عشتها»، والنصّ الأصليّ بالإسبانيّة.

مرّة بتدوينها أو اعتماد «اليوميّات» شأن كثيرين من هواة الكتابة. فإيقاع الحياة، وتقلّب الأحداث وتواتر التغيّرات، كان أكثر حيويّة وإثارة من أن يدعنا ننشغل بتسجيلها.

تعارفنا أنا وكاترين جرى منذ سنوات. كلتانا لم يخطر لها ما سيحدث: أن أبدأ أنا بكتابة مذكّراتي، وأن تكفّ هي عن التفكير في روايتها. أن يصبح مدخلها إلى العالم القصصيّ، هو نفسه الذي ستخرج منه إلى صخب المعاش. فالانطباعات التي بدأت تكوّنها عن اليمن، والحكايات التي جذبتها لإجراء مقابلات نساء كثيرات وندرة من الرجال، ستشكّل منعطفاً في حياة هذه الشابّة الآتية من وراء البحار، يحوّلها من مشاهدة لمجتمع «مثير» إلى واحدة منه، تعصف في حياتها دراما تغدو هي بطلتها. بطولة كنت شاهدة على ولادتها قبل أن نتباعد، وعلى بعض فصولها حين نعود ونلتقي. لا أعلم أين انتهى بها المطاف. أَسْتقرّت في اليمن، أم عادت إلى بلادها؟ أينما حطّت بها الرحال، أتمنّى أن تقع على هذه المذكّرات التي كان لها فضل في إشعال أولى شراراتها. أتمنّى أن تقرأها بالفرنسيّة، إذا ما قيّض لهذه المذكّرات أن تُترجم، أو بالعربيّة إذا ما تيسّر لكاترين أن تتابع دراسة اللغة التي بدأتها، في حمّى شغفها الأنتروبولوجيّ «بالشعوب الأخرى».

* * *



في الظلّ أيقونة

في صغري، كان يخيّل إليّ أنّ الناس جميعاً شيعة!

جميعاً، ما عدا قلّة من السكّان تقيم في «حارة المسيحيّين»، في «صور». نساؤهم يعلّقن الأيقونات في رقابهنّ والصلبان في بيوتهنّ.

وهناك قلّة أخرى، لهم لكنة خاصّة في الكلام، يسكنون في حيّ «المصاروة». يقال عنهم «سنّة»، جاؤوا على الأغلب في منتصف القرن التاسع عشر مع حملة إبراهيم باشا المصريّ على بلاد الشام «لإنهاضها» من «كبوة» العهد العثمانيّ.

وكان يخيّل إليّ أنّ الشيعة عِلْيُ القوم. منهم التجّار وملّاك الأرض، وتتميّز شابّاتهم بحسن الملامح، ولا سيّما في مقاييس ذاك الوقت، حيث التقاسيم الأوروبّيّة وصبغتها كانت من العناصر الأساسيّة لذاك الحسن.

وكنت أعرف أن الشيعة مسلمون. كبيرات السنّ من نسائهم محجّبات. الزيّ الأسود يغطّيهنّ من قمّة الرأس حتّى الكاحل. والشابّات منهنّ يضعن غلالة رقيقة على الرأس أو الوجه.

وأعرف أنّ الشيعة يؤدّون الفروض. يصلّون ويصومون، الأتقياء منهم يحرصون على دفع «الزكاة» وأداء فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام. وأعرف أنّهم يقدّسون كتابهم القرآن الكريم، وبعضهم، تأكيداً لحرارة القسم، يقسم باسمه. كانت أمّي في بعض الأصابيح تقرأ بصوتها العذب آيات منه قبل أن ننهض نحن من النوم، وتنصرف هي إلى تدبير أمور العائلة الكبيرة التي كنتُ صغرى بناتها. كان لقراءتها وقع ملتبس على نفسي يُراوح بين طمأنينة عميقة وحزن شفّاف. وهو ما يمكننا وصفه بالشجن.

على أنّي لو سُئلت في صغري ماذا تعني كلمة «شيعة»، لما عرفت الإجابة. تحكي أختي أنّ راهبة حلبيّة الأصل تدرّسهنّ اللغة العربيّة، كانت توصيهنّ دائماً بألّا يدعن «الشيعة» يلعبون بعقولهنّ. فهؤلاء من «الكفرة.»

«جاحدون»، تقول، أي ملحدون!

كانت بالتأكيد تقصد الشيوعيّين الذين برزوا في تلك الفترة في المنطقة، وكان لهم أتباع وأنشطة في مدينة صور. فالمربّية، لغربتها عن الطائفتين معاً، الشيعة والشيوعيّة، وبالنظر إلى الشبه في جذر

الكلمتين، غاب عنها الفارق بين هذه وتلك. فالكلّ في حساب البيدر يختلف عن القمح، قمحها هي.

ما كانت تحكيه شقيقاتي على سبيل الفكاهة، جعلني منذ وقت باكر أتنبّه لأصول الكلام وأدرك، ولو بصورة غامضة، وجهَي الشبه والاختلاف بين المذهب الدينيّ والآخر السياسيّ. أحدس أن لكلا المعتقدين صلة بجوهر لطالما شغل الإنسان: البحث عن العدل.

في مدينتنا، قلّما سأل أحد أحداً عن مذهبه. فالمدينة التي يربو تعدادها الآن على مئتي ألف نسمة، كانت في طفولتنا مكتفية بالخمسةَ عَشَرَ ألفاً من السكّان، يعرف بعضهم الآخر، وإلى أيّ ديانة أو مذهب ينتمي. سكّان، تنبئ تقاسيمهم، على وجه التخمين أو اليقين، بأصول الأسرة أو العائلة التي يتحدّرون منها. لطالما في طفولتي، كان يُلقى عليّ ذاك السؤال الذي يحمل جوابه: «أنت يا زغيرة أكيد من بيت نعمة؟ بنت فلان؟

وغالباً ما تضيف سائلتي: ما شاء الله! بيت فلان بينعرفو عاطول من تبقى هيئتهم»!

كان يسعدني أن يعرفني الناس بلا سابق معرفة، وأستغرب أن يكون اسم عائلتي محفوراً على جبيني. وبمرور الوقت بدأ استغرابي يتضاءل. سأكتشف أنّ أسماء غالبيّة الناس في صور، كانت كأنّها مدوّنة على جباههم. فالشبه المتوارث، على رغم ندرة زواج الأقارب، كان يميّز تقاسيم الناس، مسلمين كانوا أم مسيحيّين.

مضيت في طفولتي على ذلك «الهناء الشيعيّ»، إلى أن جرت الحكاية تلك... ما يضحكني اليوم لم يكن وقعه من ضروب الدعابة آنذاك. إنّي أرى تلك الفتاة الصغيرة تصغي إلى ما تقوله المدرّسة وما سيصيبها بأولى صدمات المعرفة! قالت المدرسة «إنّ المسلمين في العالم أقلّيّة مقابلة بالمسيحيّين».

معقول!؟

المعرفة التي تهزّ خمول العقل، كان من شأنها ذاك اليوم أن تهزّ الشعور بالانسجام الذي تنعم به النفس. للوهلة الأولى خُيّل لي أنّ المعلّمة غلطانة، أو أنّها منحازة. كان سيخيّل لي شيء من هذا... لولا حبّي لهذه الشابّة التي تربطها بشقيقاتي زمالة مدرسة، ولولا تيقّني أنّ سلوكها مترفّع عن الصغائر.

في ذلك الحين، لم تأتِ المدرّسة على ذكر الديانات الأخرى، بل اقتصر شرحها على الديانتين السائدتين في عالمنا. في المساء سألت شقيقتي،التي كانت تهتمّ بتدريسي، عن حقيقة ما قالته صديقتها، فلم يبدُ عليها انفعال خاصّ. بل قالت تعالي نفتح الكتاب: إلى جانب ما أوضحته المدرّسة، يذكر النصّ أنّ أعداد البوذيّين والهندوس في العالم، يفوق مرّات أعداد المسلمين والمسيحيّين مجتمعين!

ومن هم البوذيّون والهندوس؟

لم أكن قد رأيت في حياتي شخصاً من أصل شرقيّ آسيويّ، ولم

تكن السينما قد فتحت أبوابها على الفنّ الآتي من القارّة الهنديّة. لذا، فهمت بصورة غائمة شرح أختي. ثمّ ما لبثت الحكاية بأسرها أن تبخّرت من ذهني. تلاشت في رحاب المدينة المسالمة التي نشأت فيها، والتي كان من شأنها أن تمنحني الثقة خارج ملابسات «الأقلّيّة» و«الأكثريّة». فمن نعم الزمن عليّ أنّي نشأت في مدينة تتمتّع، على رغم التباين والفروق، بانسجام كبير. لا أدري ألِحُسْن حظّي كان هذا أم لعثرته، من ناحية التأهيل الاجتماعيّ؟ أمّا في الطفولة فكان الانسجام، لفتاة فطرت على التآلف، أشبه بريش نعام، جعلها في منأى عن هاجس الفروقات، بل أتاح لها أن تمارس شغفها في جمع ما كان يخيّل لبعض الناس أنّه من النقائض! ففي معرض يقينها أنّ الدنيا مكوّنة، في غالبيّتها على الأقلّ، من مسلمين شيعة، كانت تهوى جمع الأيقونات. كنت أشتريها من دكّان «اسطندي»، الذي صار بمرور الوقت يعرف مجموعتي. حال وصولي يقول: «وصلني جديد». يفردها أمامي على السطح الزجاجيّ لمدخل دكّانه، واحدة واحدة، لأبدأ أنا باستعراضها. أتأمّل السيّدة مريم العذراء حاملة طفلها. أتأمّل تقاسيم وجهها الملائكيّ والهالتين الذهبيتين اللتين تحيطان برأسها ورأس الطفل. أتأمّل ألوان ملابسها ويلفتني كفّاها الملساوان. ثمّ تنتهي برهة التأمّل بأن يقع اختياري على إحدى الصور. غالبيّتها تظهر الأمّ وديعة طاهرة ويسوع هانئاً بين ذراعيها.

ما من مرّة اخترت المسيح مصلوباً.

كنت أضع الأيقونات في علب، أو بين دفّات كتبي.أفتحها بين الحين والآخر. أنتشي بألوانها ووجوه قدّيسيها. أيقونات ملساء المعالم، عميقة الأثر، عمق أخاديد في الروح. أثر يصعب الإمساك به. يجاوز اللون وأقواس الذهب وحجج المعترضين:

«كيف تقتني فتاة مسلمة الأيقونات»؟!

ويُجاوز عقلانيّة الكبار!

ذات مرّة، فاجأني أخي بالقول، إنّ يسوع لم يكن أشقر ولا أزرق العينين. السيّد المسيح من القدس، قلب فلسطين، ومن الطبيعيّ أن يشبه رجالها: أسمر البشرة بنّيّ الشعر، مثل غالبيّة الفلسطينيّين الذين يعيشون بيننا اليوم. وأضاف أنّ أنماط الأيقونات كثيرة، كلّ منها يحاكي ثقافة الشعب الذي يصوّرها. يسوع في شاطئ العاج أسود وفي أوروبّا أشقر. والسيّدة مريم العذراء كذلك. أليست بلاد الحبشة من أولى البلاد التي اعتنقت المسيحيّة؟ قدّيسوها في الصور سمر وشعرهم أجعد. أيقونات بلادنا من ابتكار الأوروبيّين. جعلوها على صورتهم التي يرغبون في أن تغدو صورة المسيح في العالم».

الكلام مقنع، لكن من شأنه أن يسرق البهجة من الروح! لم أكن دخلت بعد سنّ النضج وشغفت بالأيقونات البيزنطيّة. لذا، فالشرح الذي وجد مكاناً في العقل، لم يعثر على مقرّ له في النفس. وفي دربي إلى المدرسة، واظبت على المرور بدكّان «اسطندي» لشراء الجديد. صديقة لي كانت تحبّ الأيقونات. تقدّمت منّي مرّة لأريها

ما اشتريت، فلمعت الأيقونة الذهبيّة التي تتدلّى من عنقها أمام ناظري.

غبطتها عليها!

وفي البيت طلبت إلى أمّي أن «يشتروا» لي أيقونة ذهب مثل التي تضعها «روزيت». مسألة استدعت الأخذ والردّ.

«لم لا، قالت أمّي وهي نفسها تدعى مريم» «فللسيّدة مريم العذراء قدسيّة كبيرة في الإسلام. وقد ذكرت في القرآن الكريم أكثر من عشر مرّات...»[١].

طلبي أيقونة، لاقى على الأرجح، صدى خاصّاً في نفس أمّي يرجع إلى الفترة التي كانت فيها حاملاً بي. في سياق التسلسل والتنوّع، كان يجدر بالجنين الذي هو أنا، أن يكون ذكراً. على أنّ أمّي حدست أنّ في بطنها أنثى! وذلك إثر منام رأت فيه الشمس تتدحرج، تنزل وتجلس على ركبتيها. صديقة كانت مقرّبة منها، فسّرت لها المنام بأنّها ستلد ابنة سيكون لها، إن شاء الله، مستقبل مشرق كالشمس!

(١) سأكتشف أنّ مسلمات غيري كان لديهنّ في الطفولة شغف بالأيقونات.ولا أعرف صبياناً كان لهم الشغف نفسه.
- سألقى زميلة في «تجمّع الباحثات اللبنانيّات» عملت سنوات على أطروحة دكتوراه نشرتها بعنوان «السيّدة مريم في القرآن الكريم» - حسن عبّود، دار الساقي، بيروت، ٢٠١٠.

نعم، وها هي الابنة تطلب أيقونة ذهب! لعلّ هذا من العلامات التي تلازم الشخصيّات الاستثنائيّة! فليشتروا لي أيقونة! لكنّ أختي «الجنرال» عارضت، لا بداعي التعصّب للدين بل حرصا على لياقة المظهر. لطالما، وهي المسؤولة عن «النظام العامّ» وملبس «البنات»، عارضت أن نتزيّن بالحِلِيّ: السلاسل والأساور والخواتم والأقراط المتدليّة وما شابه! كلّ ما كنّا نستحليه... من أكسسوارات، كان في رأيها غير مستحبّ للصغيرات. الحَلْيُ الوحيد الذي كان يُسمح لنا به، حبّة صغيرة من الفيروز أو الياقوت، تسدّ ثقب الأذن الذي يؤهّلنا لأنوثة المستقبل.

أخيراً، بين موافقة أمّي ومعارضة أختي انتصر الحلّ الوسط: سيسمح لي بلبس أيقونة من ذهب لكن تحت «القبّة».

مفهوم؟!

تقول، بلهجتها الآمرة، أختي «الجنرال».

* * *

قبل ولادتي، بدأت أمّي تحضر أبي، نفسيّاً، لاستقبال الأنثى التي ستكسر السياق. الأرجح أنّ والدي في تلك الفترة كان قد أصابه ملل من استقبال المواليد، أذكوراً كانوا أم إناثاً، والمنزل يعجّ بكلا الجنسين! وعمله وأسفاره بين بيروت، فلسطين والشام، تشغله عن مسائل غدت «روتينيّة»! مسألة واحدة تدخّل فيها بعناد: الاسم.

كانت أمّي قد اختارت اسم «رغدة». لكنّ أبي عارضها. صحيح أنّ الاسم مشتقّ من رغد العيش الذي يحمد ربّه عليه، لكنّه مقرون في المدينة بشابّة يشاع أنّها «مختلّة» وتدعى «رغدة».

«رجا» قال أبي. رجاء نعمة، اسم جميل.

ومازحه أحدهم بالسؤال:

- «ألهذا الحدّ رجوت من ربّك أن يرسل لك ابنة سابعة»؟

- «بالتأكيد رجوت» أجاب أبي الذي كان حاضر البديهة. أحمده على نعمته. لو رأيت وجهها الصبوح... لتمنّيت أن يرزقك الله بمثلها. أنت تعرف بناتي... كلّهنّ ذوات وجه يسبّح الخالق» !

* * *

إلى جانب أيقوناتي التي تهنأ في علبها، كان الانسجام الذي عشته في صور يعزّز هنائي. كان لهذا مظاهر جمّة تعزّزه، مثل الحضور الطبيعيّ لكثير من المسيحيّين في الوسط الإسلاميّ. فلا حرج مثلاً في أن يعطي الأستاذ الأرمنيّ «سيّسيان» شقيقتي دروساً خصوصيّة وكانت تتهيّأ للشهادة الرسميّة، وأن يغدو «رفلة» شخصيّة نادرة تمسك المجد من طرفين: مهارة عالية في تفصيل الملابس النسائيّة، خصوصاً «الأطقم» الرسميّة، وأخرى «أسمى» منها: الدعوة للحزب الشيوعيّ بين الشباب المسيحيّ والمسلم على حدّ سواء.

ولا حرج في أن يتولّى المربّي متري وابنه حنّا وغيرهما، تعليم الأبناء والبنات الرياضيّات في كلّيّة إسلاميّة درسنا فيها. يقومون بذلك جنباً إلى جنب مع نشر الفكر الماركسيّ بين الطلبة والأساتذة، جنباً إلى جنب مع عدوّ الشيوعيّة الأستاذ الروسيّ «ألكسي بوغولوفسكي»، الذي كان يدرّس الفيزياء في الكلّيّة نفسها، والذي، خارج الصفّ كان يسهب في الحديث عن ظلم «البلاشفة»، وعن المأساة التي رافقت هربهم.. كيف اضطرّ إلى أن يحمل أمّه المقعدة على ظهره مسافة طويلة، ويسلك دروباً خفيّة كي لا يفتك بهم الشيوعيّون.

وئام في ظلّ «التناقضات»!

في منزلنا لا يتحدّثون عن الفوارق إلّا في ما ندر. وإن فعلوا فلدواعي الإيضاح لا التمييز. كان على أفراد المنزل الكبير أن يتحسّسوا مثل هذه الفوارق من دون التركيز فيها. كانت عائلتي محافظة وعلى جانب عالٍ من الحياء في الحديث كما في السلوك، من ذاك الحياء الذي يتجنّب الإخلال بالكلام والنميمة كما يتجنّب التقليل من شأن الآخرين أو تعظيمهم. لم يكن حياء عائلتي عاديّاً بسيطاً، بل من ذاك الذي عماده كرامة الإنسان واعتبارها أعظم الثروات. كان عليّ أن أنتظر سنوات قبل أن أكتشف أنّ التوازن الذي نشأت عليه ليس هو دائماً السائد، وأنّ توازن بعض الناس ركيزته خلاف هذا: التقليل من شأن الآخرين، تعظيماً لشأنهم الشخصيّ. سأكتشف أنّ سلوك الأفراد لا يعدو كونه صورة لسلوك الطوائف وأخلاقيّات الدول، في معاملة «الكبرى» منها «للصغرى»:

لم يكن منزلنا استثنائيّاً في تجنّبه الحكم على الفوارق. تسامح عفويّ كان يميّز مدينة صور، له على الأرجح صلة بخصوصيّتها التاريخيّة وتكوينها الاجتماعيّ[1]. حين «سأخرج» من المدينة سيتبيّن لي أنّها، ديموغرافيّاً، تخالف «المتعارف عليه» آنذاك في لبنان، حيث الشيعة فيها - وفي عمقها الريفيّ الذي يطلق عليه اسم «جبل عامل» - يشكّلون غالبيّة السكّان، والميسورين وغالبيّة زعمائهم وممثّليهم في البرلمان.

أن تنشأ فتاة في أسرة بريئة من الطائفيّة ومدينة يسودها الانسجام، وتربو على أيدي جيل كانت أولويّته النضال لنهضة الأوطان، يعني أنّ هذه في «الخارج» الذي ستدخل معمعته، مراهقة، ستواجه اختلافاً يغدو منعطفاً في مسيرة وعيها، منعطفاً ستكتشف فيه الوجه الآخر «للدنيا»:

الشيعة، ليسوا هم «الأغلبيّة» حتّى ولو كانوا تعداديّاً هكذا، وكان رئيس البرلمان منهم و...

ولا هم الأكثر أهمّيّة!

والتآلف الذي فطرت عليه منذ صغرها في صور، ليس هو مناخ

(١) بقيت مدينة صور طيلة الحرب الأهليّة، في منأى عن الصراع الطائفيّ، واستمرّت حياة المسيحيّين ومدارسهم ومؤسّساتهم آمنة كما كانت عليه من قبل. يقال إنّ المسيحيّين من أقدم سكّان المدينة الأصليّين.

الوطن. التعصّب والتفرقة والفوارق هي ملامح الوجه الآخر لهذا الوطن!

على صعوباته، سيغدو هذا «الاكتشاف» حافز تحدّ لمن كان يملك «الثقة» ويربو على «الرفض». لذا، حين قالت لها زميلتها «رامونا» إنّها تتجنّب سماع القرآن، لم تفهم هي القصد. ظنّتها تتفادى من الشجن الذي يتوغّل في الروح لسماعه، ولا سيّما إذا ما كان قارئه «عبدالباسط عبد الصمد».

لكن لا!

«رامونا» بلا مواربة أوضحت القصد: «روحها تمقت كلّ ما يتعلّق بالإسلام»!

التصريح الذي كلّف «رامونا» صفعة على خدّها منّي دفعني إلى الإدارة والشكوى لرئيسة الدير. وهذا عاقبته الركوع في زاوية المكتب. ثمّ جاءت بها تعتذر إليّ، في الملعب أمام التلميذات، عن الكلام الشنيع الذي صدر عنها!

سيغدو هذا الاكتشاف وأمثاله من دواعي الحزن. فما قالته «رامونا» عن الإسلام لا يعدو كونه صورة لما تقوله «زينب»، «عائشة» أو «عليّ» عن المسيحيّة. والشابّة التي تأنف من التمييز، وبالنظر لاسمها المموّه لديانتها، ستغدو مسجّلاً يسجّل من الجانبين الأحكام المسبقة والتعليقات السلبيّة وحتّى الشتائم...

نعم، أنت في وطن يضمّ سبع عشرة طائفة، يخيّل للكثير من أبناء كلّ منها أنّها فوق الأخرى؟! يسقطون على تلك «الأخرى» الهواجس والمخاوف أو حتّى الرغبات المستحيلة.

عجباً لهذا الشعب اللبنانيّ!

أناسه، أفراداً، ذوو قلوب طيّبة، معطاؤون، محبّون للآخرين وللحياة. أفراداً، بعيدون عن العنف ميّالون للمصالحة. أمّا جماعةً، فما أسهل أن يتحوّلوا إلى نقيض ما هم عليه... ما إن تلدغهم أفعى الطائفيّة!

* * *

الهجرة الأولى

لتاريخ آل «نعمة»، شأن عائلات كثيرة، صلة بالطائفيّة والهجرات. فهو يرجع في الذاكرة القريبة إلى القرن التاسع عشر. والعائلة التي تنتشر حاليّاً في عدّة بلدات من الجنوب، يرجع أصلها إلى بلدة «حبّوش». كان جدّ العائلة «الشيخ عبدالله نعمة» رجل دين وقوراً يتمتّع بمكانة مميّزة بين الناس، ولا يزال «مزاره» موجوداً حتّى اليوم في بلدة «جباع»، التي جاءها «إماماً»، يقصده بعض المؤمنين التماساً للبركة.

كان إبّان الحرب الأهليّة التي دارت رحاها بين الدروز والمسيحيّين في منتصف القرن المذكور، قد حمى لديه بعض العائلات المارونيّة الهاربة من المذابح. كانت أخبار تلك المذابح في جزّين وحاصبيا ومرجعيون قد بلغت مسامع الناس. ولكنْ، لم يخيّل لهذا الشيخ العاقل أنّه سيكون، عمّا قريب، طرفاً في أحداثها، أو أن يأتيه هاربون منها طلباً للحماية.

في تلك الليلة الظلماء، سمع وقع أقدام رجال، هرجاً ومرجاً، صهيل جياد ودوابّ، وضرباً على الباب وصوتاً يعرفه جيّداً ينادي من الخارج: «يا شيخ عبدالله الغوث. الغوث الغوث يا شيخ عبدالله»! الصوت صوت ابن عمّه، لكنّ الجلبة أكبر بكثير من أن يسبّبها قدوم هذا الرجل الرزين.

هرع الشيخ إلى الباب يلحق به أبناؤه، وبعضهم يحمل السلاح. «لا»، قال والدهم وقد فضّل أن يفتح الباب بنفسه. وما كاد يفعل حتّى رأى ما جعله، على رغم استغرابه، يتكهّن بالسبب الذي من أجله تجمهر هؤلاء الناس أمام داره، وقائدهم يقول: «يا شيخ عبدالله، جئنا إليك طالبين، فلا تردّنا خائبين».

في التقاليد العربيّة، كان من شأن عبارة مثل هذه أن تحرّك أكثر المشاعر تبلّداً! من شأنها أن تستحوذ على الروح، وتتّخذ هذه القرار قبل التفكير: فحماية الخائف والفارّ، منذ الجاهليّة، واجب مقدّس، وطالب الحماية في التقاليد العربيّة، لا يُردّ.

لجأت العائلات المارونيّة إلى منزل الجدّ وتوزّع أفرادها على بيوت الأقارب والبلدة. لكن المتربّصين بالفارّين نجحوا في تقفّي أثرهم. لم تمضِ أيّام حتّى وصلت الأخبار أنّهم يقتربون من مشارف «حبّوش». سيضطرّ المُغاثون والمغيثون إلى التفكير في الحل الملائم لجميع الأطراف. «الكلمة»، بحسب الشهامة العربيّة، كانت هي الفصل في أخلاقيّات العلاقات. كان من العار على المغيث أن

ينجو بجلده ويترك المغاث يتدبّر أمره، حتّى إن أصرّ هذا الأخير على مغادرة حاميه. مغادرة مثل هذه كانت تلحق الإهانة بالمضيف، فكيف لو كان اللاجئون إليه يحملون أموالاً وصكوك ملكيّات هي حيلة عدد كبير من عوائلهم وعوائل منطقتهم؟ وكيف يرضى الشيخ على نفسه أن يغادروا، وذعرهم من قطّاع الطرق لا يقلّ عن ذعرهم من طالبي الثأر؟!

ارتأى الجدّ أن يرسل الفارّين إلى صور. مدينة ساحليّة تحكمها السيطرة العثمانيّة، بعيداً عن متناول المهاجمين، ووحدها بين سائر المدن يطغى عليها الحضور الشيعيّ. سيكون لكلمته على الأرجح صدى مسموعٌ لدى وجهائها. وهي في آن معاً عريقة لجهة مسيحيّتها. عراقة خلّدتها الأناجيل بالقول إنّ السيّد المسيح قد باركها، كما بارك «قانا» إحدى بلداتها المجاورة. كان في مروره بها دخل على منزل يحتفل بعرس فشاركهم في الاحتفال ووزّع الشراب والنبيذ على المحتفلين[1].

أخيراً، بعد التشاور، اتّخذ الشيخ عبدالله مع الفارّين القرار. ولكنّ خوفه من أن يتعرّض لهؤلاء قطّاع الطرق، جعله يرسل معهم اثنين من أبنائه وبعض شبّان العائلة، ليأمنوا وصولهم سالمين بأموالهم وصكوك ملكيّاتهم وأرواحهم إلى مطرانيّة صور. كان من

(١) «عرس قانا» خُلّد في عدد من اللوحات لفنّانين أوروبيّين من عصر النهضة وما قبل ذلك.

شأن هذه الرحلة، كغيرها من رحلات كثيرة، أن تحقّق هدفاً آخر لم يكن في الحسبان. فقد استحلى بعض شبّان العائلة المكوث في صور، واجدين فيها نمط حياة أكثر رفاهاً ومدنيّة، وفرص عمل أوسع من تلك المتوافرة في حبّوش. يقال إنّه منذ ذلك الوقت صار للعائلة فرعان: أحدهما في صور امتهن التجارة، وآخر في حبّوش ومحيطها، إضافة إلى عملهم في الزراعة، خرج منه رجال دين وقضاء.

عبر سنين طويلة دأب فرعا العائلة على تبادل الزيارات. ودأب فرع الداخل على الحضور لفترة شتائيّة إلى منزلنا ومنزل عمّي في صور، والإقامة بيننا أيّاماً تطول أو تقصر تبعاً للظروف، ظروف العمّ الشيخ محمّد عليّ. كانت تلفتني عمامته الكبيرة البيضاء ولحيته التي تفوقها بياضاً. خلال زيارة الأعمام، كانوا في منزلنا يغيّرون نظام «الصالون» ليلائم راحة الشيخ الذي اعتاد ديوانه الشرقيّ. كانوا ينقلون بعض المقاعد إلى الدار، ويطرحون فرشاً على الأرض، يغطّونها بأغطية أو بسط شرقيّة، ويجعلون ظهرها من المساند. هكذا يغدو صالون بيتنا، نصفه غربيّ والنصف الآخر شرقيّ. كنت أستحلي تلك الفترة التي ينشغل فيها كبار العائلة عنّا، وأراها استثنائيّة مثل أيّام العيد. كان والدي يأنس لهذه الزيارات، ويكرم أبناء عمومه المشايخ. يمضي وإيّاهم وقتاً في تبادل الأحاديث والجدل حول الإسلام والتشيّع والاجتهاد. وأراه على غير عادته منفعلاً، يغادر الصالون إلى الدار ليحضر كتاباً أو مرجعاً، ويتبادل هو وأبناء عمّه

القصائد، من الشعر العربيّ القديم أو الجديد: المتنبّي وابن الروميّ، أحمد شوقي والجواهريّ، الأخطل الصغير وبيرم التونسيّ. كان يلفتني دأب أمّي على حضور هذه الجلسات، ولا سيّما بعد الظهر أو في السهرة. كنت أندسّ بجانبها وأجلس أصغي لما يقولون. حين يأتون على ذكر سيّدتنا مريم العذراء يغمرني هناء كالسحر. وقد بلغ السحر أوجه حين ذكر الشيخ المعمّم مرّة، أنّ المسيح لم يصلب، كما يخيّل لبعض الناس «وإنّما شبّه لهم»!

آنذاك، لم أكن أدرك مغزى الصلب على أنّه جوهر الخلاص، الركن الأساسيّ للمسيحيّة. لذا ففكرة أنّ المسيح قد «نجا» وصعد إلى السماء راقت لي. كنت أشفق عليه من عذاب الصلب، وعلى أمّه مريم من معايشتها العذاب نفسه. لا. لم يصلب، بل ارتقى. رفعه الربّ إلى سمواته... وأتخيّله صاعداً بشعره الأشقر الطويل وعينيه الزرقاوين وجسده النحيل، ويخامرني شعور بأنّ رحلة كهذه هي أعذب ما يمكن لنبيّ بلوغه!

* * *



في البدء كانت الأسفار

إذا ما سئلت، الأمور العفويّة هي أوّل ما يخطر لك. حين طلبت إليّ كاترين أن أحدّثها عن نفسي، لم تخطر لي مسألة الطوائف، بل السفر. فأنا من بلدة تاريخها الاغتراب، ومن أسرة بدأت هجرتها إلى ما وراء «الأطلسيّ» و«الهادي» فجر القرن العشرين.

ثمّ... وإنّي - في المتخيّل بالطبع - من الشاطئ الذي انطلقت منه وعادت إليه سفينة نوح! من قبالة بيتنا بالذات، ومحمّلة بمختلف المخلوقات، بدأت رحلتها بقيادة «النبيّ» الذي كانت جدّتي تلهج برحلته، وأراه أنا ذا جبروت غير رحيم. على أنّ عودته إلى المكان عينه كانت تخفّف شيئاً من عنف حكايته. كنت أفضّل على تلك رحلات «أوروبّا» و«قدموس» و«إليسار»...

الأسفار أقدار القدماء والمحدثين، مثل أسفار أسمع عنها وأخرى

عشت وداع أصحابها، كما في سفر أختي الكبرى، وكان لي من العمر أربع سنوات، وكنت أنا مدلّلتها؛ وسفرها ثانية، ولولديها أقلّ من ذلك. مثل سفر والدي إلى أميركا، ومن قبله سفر عمّي الذي لم يرجع. وسفر والدي بعد ذلك إلى شاطئ العاج، ومن ثَمّ سفر العدد الأكبر من أخوتي إلى مختلف القارّات.

وسفر مباغت لم أعش وداعه: في السابعة من عمري مررت بزميلتي التي أمرّ بها يوميّاً في دربي إلى المدرسة. لكنّ جدّتها، بدل أن تناديها لتأتي قالت:

- «يا حبيبتي رفيقتك سافرت! راحت لعند أهلها في السنغال».

- «ومتى سترجع؟!»

- «يا حبيبتي مش قبل سنتين...تلات سنين...».

بعد مرور عشرين عاماً على تلك الحادثة، قابلت الجدّة. كانت قد هرمت، على أنّ ذاكرتها ظلّت أمينة على حكاية السفر، فحكت لي ما أغفلته ذاكرتي: ذلك النهار، حين أُجبت بأنّ صديقتي سافرت... ركضت إلى الغرفة التي كنّا نلعب فيها، وجلست في الزاوية أبكي. تقول الجدّة، المشهد أبكاها كثيراً ذلك النهار. وكانت كلّما تذكّرته بكت.

الأسفار!

ما من شأنه أن يقطع ليصل، والجرح تحمله بين ضلوعك ويتكفّل الزمن بتسوية الأمور على حساب أصحابها.

وللأسفار طقوس: قبلات، دموع، آيات وقراءات تحرس المسافرين. ولها رسائل وعبارات! كانت تلك في بيتنا مركزيّة، وعبارة «إن شاءالله بجمع الشمل»، التي قد تبدو غير مفهومة للغرباء، كانت الأكثر تداولاً على ألسنة الضيوف، بعد تناولهم القهوة، وأقصى مشتهى لأصحاب الدار.

وللرسائل طقوس!

يتحلّقون حول قارئتها، أمّي أو أختي. تقرأانها مرّات لأنفسهما. وتعيدان قراءتها لمن فاته الاستماع. يمسحون دموع الفرح أو التأثّر، ثمّ يطوونها بعناية، ويخبّئونها في إحدى العلب. العلب طبقات. بمرور الوقت، ستصعد القديمة منها إلى الغرفة العليا، غرفة المؤونة، حيث سيتسنّى للقارئة الصغيرة الاطّلاع عليها وفكّ ألغازها. لم يكن يخيّل لأحد أنّ القارئة تلك ستقع ذات يوم على «ثروة» من الرسائل من بينها أوراق تخصّ الغائب عمّها «وهبي».

في صغري، كان يخيّل لي أنّ الناس في بيوتهم ينشغلون على الدوام بتوضيب الحقائب استعداداً للرحيل. فلا هاجس للمقيمين مثل فراق المهاجرين، ولا فرحة أعظم من عودة غائب، ولا لغز أشدّ من سفر لم تتّضح معالمه بعد:

شابّات ينتظرن عريساً من وراء البحار.

شبّان يحلمون بمستقبل مغاير.

فقراء يبحثون عن الكفاف.

متوسّطو حال يحلمون بالثروات.

شبّان يشكون جور الأنظمة والآباء.

أو قصّة حبّ لم يؤذن لها بالنجاح، مثل حكاية عمّي «وهبي» التي جعلته يركب رأسه ويبحر من مرفأ صور إلى ميناء حيفا، ومنه إلى مرسيليا ثمّ نيويورك.

لو لم يكن سفره قدره، لفعل ما كان سيفعله آخرون: لتراجع عن عناده، وقبّل يد أبيه، طالباً إليه الصفح والرضى، واعداً إيّاه بألّا يخالف له رأياً بعد ذلك، بألّا يقع في غرام بهيّة بنت سمعان القبطيّ أو يلعب بعقلها ويرمي الهلع في قلوب طائفة بأسرها، كما قال المطران لجدّي. كان أبوه سيقبّل جبينه ويقول له: «الله يرضى عليك يا ابني». ويزوّجه ابنة عمّ أو خال أو بنت الجيران. يعيشان بالرضى بما قسم الله. وبالنسق المتعارف عليه، يجتهد ويعمّر «غرفتين ومطبخاً» فوق بيت ذويه يماؤها بالأطفال، ومن ثمّ... وبعد سنين يموت أبواه على ساعده.

كان سيحدث هذا ل«وهبي»، لولا أنّ سفينته كانت تنتظر. وقد اشترى الحقيبة، الحقيبة التي حين رأتها أمّه زهيّة، أمسك الخوف بروحها وهتفت:

- «ما هذه الحقيبة يا بنيّ؟»

- أتركيه، قال أبوه، هازّاً رأسه باستخفاف. إبنك هذا عقلو غير شكل. خالف تُعرف. كلّ افرنجي عندو برنجي».

- «إيّاك أن تدعه يسافر...»

قالت زهيّة تستعطف زوجها حسين. وتستعطف ابنها:

- «يا عيني، يا روحي، قلب الأمّ غير قلب الأب. أمّك زهيّة لا تحتمل حسرة الفراق. إن فارقتُك فارقتني الروح».

«وهبي» يطمئنها، وفي سرّه يتمتم خطابات لأبيه:

«برنجي! سيرى هذا المتجبّر ما أنا جدير به!»

وأمّه تستحلفه وتحاول انتزاع الحقيبة من يده. سيمتثل هو لرجائها، موقّتاً بطبيعة الحال. ويترك لها الحقيبة. يؤكّد لها أنّ سفره ليس هجرة بلا رجعة. «ما هي إلّا لسنتين أو ثلاث، ويعود مرفوع الرأس. أقصاها أربع سنوات وسترين وتسمعين.... سيقال «وهبي» نعمة...».

- يا ربّ العالمين.أربع سنوات؟!

حميد لا يذكر شيئاً من هذا!

وزهيّة، عندما تأكّد لها إصرار «وهبي» على السفر، صارت تهيّئ له أشياء سرّاً، في غياب أبيه وبعد أن «ينام الأولاد». وكثر رواحها ومجيئها بين الخزانة والغرفة. تفتح الدرفة، تأخذ منها شيئاً

أو تضع أشياء. وابنتها ليلى تراقب محتويات الخزانة وما يزيد عليها وينقص وتكتم السرّ. منذ طفولتها وليلى تميّز ما يجب إفشاؤه لأبيها أو كتمانه.

* * *

لخزانة الموبيليا هذه مكانة في نفوس سكّان البيت. لا بدّ أنّ «وهبي» في بلاد الاغتراب سيذكرها أكثر من أيّ متاع آخر من أمتعة المنزل. كانت أوّل قطعة أثاث تدخل البيت قبل دخولها، هي زهيّة، عروساً إليه. وحقيبة «وهبي» كانت أيضاً الأولى التي عرفتها العائلة. فأمّه عندما تزوّجت أحضرت ملابسها في بقج، ورصّتها في الخزانة التي، في ضروب المبالغات، تزعم أنّها كلّفت نصف مهرها، لتحقّق الحلم الذي يراود كلّ عروس: أن يكون لها خزانتها هي، مستودع أسرارها الذي لا يدخله أحد.

سيمضي نجّار المدينة شهوراً في صنعها وتلميع سطوحها. كانت من خشب الزان البنّيّ اللون، وكان لها مفاتيح تضع فيها ملابسها وأشياء أخرى، وتتحدّث عنها كخاصّتها، بأل التعريف.

كان جدّي قد خيّرها بين أن تشتري خزانة وأن تنجّد مقعداً شرقيّاً مثل الذي رآه لدى عائلة أبو شرف. فضّلت جدّتي الخزانة على أيّ شيء آخر. خزانة بمفاتيح، عماد الجهاز. لا شيء يضاهيها أهمّيّة إلّا

سرير النحاس العالي المشغول الذي اشتراه «حموها» للعروسين من تاجر يتردّد على الشام. بالنسبة إلى الصالون اكتفت بفرش تطرحها على الأرض تغطّيها بقماش شرقيّ اشترته من بائعة جوّالة.

كانت زهيّة تحبّ أمتعة بيتها، وإن كانت تستصعب الصعود إلى السرير لارتفاعه! لا تكشف أمر خشيتها لمخلوق ولا حتّى لأمّها! على ذلك كانت تفضّل أن تتفرّج بالنظر إلى السرير. تتأمّل منمنماته.

يا سبحان الله، كائنات تحكي! تحبّ أمتعة بيتها، خزانة المطبخ «النمليّة» التي جعلها جدّي واسعة تحسّباً لما سيرزقه الله من ذرّيّة. وهي أيضاً تحبّ «الكَمكة» المعلّقة في السقف لتهوية الطعام ورفعه عن متناول الزواحف.

هذه أيضاً تقف وراءها حكاية: حين سُئلت زهيّة عن «كمكة» المستقبل أجابت: أريدها مسدّسة.

مسدّسة؟ سأل النجّار مستغرباً؟

« أيوه... بستّ جوانب».

عجباً!

كلّ ما صنع من «كمك» في حياته كان لغاية هذا التاريخ مربّعاً، ترفعه عند الزوايا أربعة حبال أو أربع سلاسل من معدن، تجتمع في نقطة مركزيّة عند السقف!

«لكنّ ابنتي تريدها مسدّسة»، قال والد العروس. مثل «الإسكملة» المطعّمة التي نضعها في غرفة الجلوس، وعليها صينيّة النحاس.

وتساءل النجّار: ترى كيف خطرت لهذه العروس الفكرة؟!

هو السؤال نفسه الذي ألقاه العريس الشابّ على نفسه حين علم بالأمر، والذي جعله يضع علامة استفهام حول شخصيّة الفتاة التي «تتطلّب» أشياء لا تخطر في بال، والتي خطبوها له مؤكّدين أنّها جميلة وعاقلة.

- جميلة؟

- رائعة الجمال!

«يقال قلّما اجتمع جمال رفيع ورجاحة عقل». ترى، أأخاها تشبه أم أباها؟

«تشبه أباها، كما قيل له. بل هي أحلى منه»!

أمّا عن أصولها، فما من داعٍ للاستفسار، ومتجر أبيها ملاصق لمتجر أبيه، وتربطهما صداقة. وأخوها، كان زميلاً له في «الكتّاب» عند «الشيخ» عبّاس منصور.

زهيّة، كانت تفتخر «بالكمكة»، لا لقيمتها المادّيّة، فما هي في نهاية الأمر سوى لوحات خشبيّة بسيطة تُعلّق بالسقف لرفع الطعام وتهويته بعيداً عن حرّ الأرض ومخالب القطط. ولكنّها تفتخر بها

لقيمتها الرمزيّة: شكلها المبتكر. وهي تعترف بأنّ ابتكاراً مثل هذا ما كان ليخطر لها لولا زيارتها مع أمّها إلى دار «ظافر عمران»، موظّف «الطابو«. جاء هذا وعائلته من طرابلس، ونشأت بين زوجته ونساء البلدة معرفة وزيارات. كان له ابنة من عمر زهيّة. هكذا، في تبادل الزيارات، تسنّى للمقبلة على الزواج اكتشاف «الكمكة» المسدّسة. وفكّرت في أن يكون لها مثيلتها.

لكن مهما يكن... لا مكانة لشيء عندها كما للخزانة، ولا أحد ينافس تلك سوى زوجها حسين.

كان جدّي يشعر بعداء نحو قطعة الأثاث المفضّلة لدى زوجته زهيّة، ويتأفّف من خشخشة مفاتيحها. ما كان يبعث في قلبه البهجة، عريساً، بات يسبّب له الضيق. وصار يتحسّر على أيّام «اليوك». لهذا أيضاً مخابئ تضاهي المفاتيح! يلزمه «جِدعانٌ» لرفع الرخامة التي تزن الأرطال! يلزمه منجّم مغربيّ ليفكّ اللغز ويعثر على «المخبأ»! ويكاد يندم على أنّه استجاب لرغبة خطيبته. كانت قد بلّغته بالوساطة، وامتثل هو في الحال، وطلب إلى مصطفى النجّار أن يصنع لها ما تريد! ما كان يُشعره بالزهو، عريساً، بات مدعاة حنق له فيما بعد. والآن، لا يمكنه العودة إلى الوراء، ولا أن يطالب زهيّة بعدم استخدام المفاتيح، أو بتخصيص درفة وجعلها سرّيّة» ومظلمة، «مخبأ الأمانات»، الدرفة التي تقع في الطرف الآخر من درفته هو، والتي صارت فيما بعد: تسمّيها «درفة وهبي».

عدا ملابس هذا الملعون، ماذا تخبّئ فيها؟

يقينه أنّ باب الخزانة هو نفسه الذي تدخل فيه إلى عالمها السرّيّ مع «وهبي». تغافله وتفتحها وتعطيه شيئاً خفية عنه.

ماذا تعطيه؟

تقول، حلويات الشام.

كذّابة! الأكل تضعه في النمليّة.

وتدافع هي بالقول إنّ كلّ ما هو ملفوف بورق تضعه في علبة وتخبّئه في الخزانة عن تلك الملعونة «سعدى» التي يدها تسبق عينها، والتي تأتي لمساعدتها كلّ يوم خميس على التنظيف والغسيل. بات يعرف طباع زهيّة وفنونها بتمويه كلّ ما من شأنه تدليل «وهبي». وهي بالتأكيد تعطيه «فلوس». ويخطر له أن يحرمها من المصروف. ويتحضّر لتنفيذ القول بالفعل... لكنّ الإشفاق، أكبر آفة للرجل، يأخذه فيعطيها وهو موقن أنّ فلوسه ستذهب في نهاية الأمر إلى حبيب قلبها، «وهبي».

بقدر ما يزهو بسرير النحاس و«البوفيه» ذات التاج الشاهق المنحوت بأشكال الغزلان والعصافير، يمقت الخزانة. اللهمّ... إلّا في بعض المناسبات التي يفتخر فيها بهذه «القلعة». يمتدح قوّة ركائزها وسعة دُرفها، متانة سقفها وهيبة تاجها. تقول خزانة ملوك! الله يسلّم يديك يا مصطفى! يكرّر جدّي ليقنع جليسه بأنّ أحداً لا

يمكنه منافسة نجّار المدينة، ولا حتّى أشهر نجّاري صيدا وبيروت! أمّا في الأوقات الأخرى، فيراوده ذاك الإحساس الذي لا يشرك فيه أحداً، بأنّ هذه القلعة هي منافسه الحقيقيّ! يمقتها، حتّى قبل أن يعرف أنّ زهيّة ستخرج من درجها واحداً من أساورها وتبيعه لصديقتها المفضّلة نازك، وتعطي ثمنه ل«وهبي» ليشتري به «كنزة» وملابس داخليّة من الصوف، حتّى لا يموت من البرد في طريقه إلى تلك البلاد البعيدة: أميركا. يقال إنّ صقيعها يقطع المسمار!

جدّي، لا يعرف هل هو يحب زهيّة ذاك الحبّ الذي تتحدّث عنه الروايات ؟! لطالما سأل نفسه، وكان جوابه أنّه يشفق عليها. على رغم لسانها الذي تنبري به للاعتراض، وجمالها الذي لا يختلف في شأنه اثنان، وشعرها البنّيّ الموشّى بالأشقر، ولون عينيها الذي حين تتكحّل تحتار به: أعسليٌّ أخضر هو أم أزرق؟! على رغم هذا، يشفق عليها، ربّما لرقّة جسمها ونحولة خصرها! أو ربّما لهذه الدهشة التي تطلّ من عينيها، وهذا التعبير الذي تنطق به تقاسيم وجهها المنمنم. دهشة طفلة تشاهد حدوث ما يستحيل حدوثه! أوّل مرّة رآها، بعد حفلة العرس وبهره جمالها، حمد ربّه على هذا الحظّ، وخصّ أمّه بامتنان ما بعده امتنان. فمن بين فتيات المدينة اختارت على الأرجح أجملهنّ. ولولا خشيته من أن يجده الحاضرون «خفيفاً»، لخرج من غرفته، ما إن كشف عن وجه عروسه، وراح إلى أمّه يقبّل يدها تعبيراً عن عظيم امتنانه!

الله جميل ويحبّ الجمال!

لكنّ العروس التي صارت منذ ساعات زوجته، تبدو له أكثر من مستغربة! يقال إنّ العروس تكون شديدة الخجل. أمّا هذه فتنظر إليه بدهشة، كأنّها غير مصدّقة أنّها توجد معه في الغرفة نفسها، على رغم علمها بأنّ كلّ عروس ستلاقي في نهاية الأمر من سيغدو زوجها! لعلّها، غداً أو بعد غد، ستعتاد وجوده وتنجلي الدهشة من عينيها.

ليس هذا في واقع الأمر ما يقلقه، بل نحولها هو المقلق! ولولا تورّد وجنتيها الكائنتين في أعلى خدّيها، ولولا بريق عينيها، لظنّها مريضة. لعلّها بمرور الأيّام ستكتنز. لكن لا فائدة. سنوات مرّت، فلا الدهشة زالت، ولا زهيّة اكتنزت!

تحبل وتلد، وفي الأسبوع التالي ترجع إلى نحولها الذي جاءت به إليه!يحضر لها المغذّيات من كبد الخروف النيء والمكسّرات، ويفضّلها على نفسه.

لا فائدة!

الكمال للّه وحده.

ولطالما سألها عمّا بها وعمّا يدهشها. «لا شيء»، تجيب، مستغربة سؤاله. يقينها أنّه يسأل ليغيظها. يغار من حبّها «وهبي». حبيب قلبها! كما يقول. عيونو عسلي أخضر متل عيونها! وعندما تحتدم غيرته تذكّره بالحديث الشريف: «أمّك أمّك ثمّ أباك». وعلى

لسانها هي تقول: «يا عيوني يا حسين، يا ابن طالب نعمة، بتنسى إنو «وهبي» إبنك متل ما هو إبني؟ نسيت شو عملت لمّا قالوا لك إجا الصبي؟ أشقر وعيونه زرق»؟

يبتسم جدّي، يهزّ رأسه ويقول: «ما كنت عارفو رح يطلع قليل العقل. الله يهديه.أملي كبير بحميد. حميد هيدا رح يصير «رجّال». ولا كلّ الرجال.

* * *

بعد الحادثة التي يصعب نسيانها، أيقنت زهيّة أنّ إصلاح الحال بين رجلي البيت بات مستحيلاً. إن كان زوجها لم يصدّق ما قيل، فهي، ومعرفتها بابنها كما بنفسها، صدّقت:

«أنظر إليّ جيّداً، قال «وهبي» لأبيه حسين، لن ترى هذا الوجه ثانية»!

نبرة الجواب تؤكّد لها أنّ سفر ابنها بات وشيكاً. توسّلت إليه كثيراً بأن يغفر لأبيه. أجاب بأنّه ما عاد يطيق العيش معه تحت سقف واحد، ولا في بلد واحد. وتتوسّل إلى زوجها بأن يصفح ويتقرّب من ابنه، وهذا يجيبها: «اتركيه. جبان هيدا رح يسافر؟! هيه! هيدا، يوم السفر مش رح يفيق من النوم. المركب رح يتركو غفلان»!

حين تأكّد لجدّتي إصرار ابنها على السفر، صارت تستحلفه بألّا

يسافر وأبوه غاضباً عليه، وترجو منه، قبل أن يصعد إلى الباخرة في بيروت، أن يروح إلى سوق الجوخ أو سوق «أياس» الذي يحكون عنه، ويشتري ما من شأنه أن يدفئ جسمه وقلب أمّه المسكينة. لكنّه سيسافر من حيفا. هناك بضائع لا مثيل لها في بيروت! وعلى رغم اطمئنانها إلى صحّته، بكت. ثمّ اتّجهت إلى الخزانة لتعطيه ما أمكنها. وفهم الابن الموقف، وقرّر أن يرفض.

لطالما، في صغره، كان يلاحظ أنّ أمّه تخبّئ شيئاً أو أشياء في الدرفة المقفلة. تزعم أحياناً أنّها أضاعت المفتاح، وأنّها ستبحث عنه. ولا تلبث أن تعثر عليه. تفتح الدرفة وتعطي طالب الشيء ما يسأل عنه، ثمّ تحكم إقفالها وتدسّ المفتاح في جيبها. ومنذ أن كبر، صار يخجله النظر إلى الدرفة المقفلة أو التفكير في المخابئ السرّيّة للمفتاح. يفضّل الموت على أن تظنّ أمّه أنّه طامع بفلوسها! والآن تستدعيه إلى الغرفة لتعطيه ما خبّأت! فتحت كيساً صغيراً فسمع خشخشة ورأى بريقاً. أشار بكفّه أن «لا يا أمّي، لا». ولكثرة ما ألحّت عليه، تناول من يدها «عثمليّة» واحدة: «للذكرى فقط».

لن أتأخّر في العودة وجيوبي ملأى بمثيلها.

* * *

لا «طاعة» بعد اليوم

منذ طفولته، كان «وهبي» يضيق بقسوة أبيه. الطاعة، في ذلك الزمن كانت سائدة، لا في دار جدّي أو في مدينتنا وحسب، بل في طول البلاد وعرضها. وطاعة الابن البكر أباه كانت أسمى تجلّيات التربية الحسنة، الدالّ الأكبر على مكانة الأب داخل الأسرة التي أنشأ. صحيح أنّ الخروج عليها لا يلوّث الشرف مثلما خروج البنات على طاعة ذويهنّ... فلذاك شأن رهيب، يتركهنّ ذليلات مطأطئات الرؤوس بين الناس... لكنّ جحود الأبناء ذويهم من الكبائر. فهو قد يحرم الأبناء من دخول الجنّة، والآباء من الزهو بين الناس.

كان «وهبي» يكره كلمة طاعة. لو كان للكرة الأرضيّة كلمة توحّدها لتحدّثت بهذه. ولو قيّض لجدّي أن يسمع عن خضوع الأبناء في الصين لآبائهم... واستبداد هؤلاء بعوائلهم، لأيقن أنّ ما يطالب هو به تسالٍ ليس إلّا! تسالٍ يعتزّ بها الآباء ويمقتها المتمرّدون

من الشبّان أمثال ابنه «وهبي». وهذا، لو سمع بحقّ الحياة والموت اللذين يملكهما آباء تلك البلاد البعيدة، على أبنائهم وأسرهم، لكره الأبوّة من أساسها، لازداد حقداً وتمرّداً. لطالما كان في أحلام اليقظة يتخيّل نفسه أباً مثاليّاً لطفل ذكر. لو تزوّج وأنجب صبيّاً فسيربّيه بالرفق، ليبرهن فقط لهؤلاء الناس «الجهلة» كيف تكون المعاملة. يذكّرهم بالرفق الذي كان نبيّهم يعامل به أفراد أسرته. من رآه منكبّاً على قراءة سيرة الرسول، حريصاً على الإصغاء، لظنّه ينوي السفر إلى «النجف الأشرف» ليدرس ويغدو «عالماً مجتهداً» في الفقه والدين. ولطالما كان يردّد في السرّ والعلانية: لو رجع النبيّ العربيّ لأنكر هذه الأمّة الجاهلة!

أمّة ملعونة!

من المعاملة لم تعرف سوى الاستبداد، ومن وسائلها سوى الكرباج. يفتخرون بنبيّهم. وهل كان نبيّهم يقتني كرباجاً؟!

كان جدّي غضوباً. حين «يشطح» ابنه، يفقد هو أعصابه وينهال على «وهبي» بالضرب. ولولا إشفاقه على زهيّة، لنحولة جسمها وهشاشة عظمها، لضربها هي أيضاً. هذه المرأة الضعيفة الساذجة، بالغت في تدليل ابنها البكر حتى خرّبت عقله!

كانت علاقة «وهبي» بأبيه، وقبل حكاية بهيّة بنت سمعان، قد بدأت تتدهور. صار جدّي يتحسّر على الحقبة الذهبيّة التي ولّت.

في تلك الحقبة التي امتدّت سنوات، كانت مكانة «وهبي» في نفس أبيه أشبه بمكانة أمير في نفس ملك. ولمّا اقترب «وهبي» من الرجولة، بدأ الأب يشكّ في إمكانيّة الاعتماد على هذا الولد الذي بولغ في تدليله. لكنّ اكتشافه جاء متأخّراً!

والسبب «لسان» «وهبي»!

فالربّ الذي يوزّع الهبات على عبيده، خصّ ابنه بحذق اللسان وقوّة التعبير. منذ مطلع مراهقته بدأ كلامه يدهش أباه وأقران أبيه، بل يدهش كلّ سامع؛ حتّى إنّ كلّ رجل في المدينة صار يتمنّى لو ينعم الله عليه بصبيّ مثل «وهبي نعمة».

ثقة غير متوقّعة استيقظت في صدر الأب تجاه هذا الابن الذي، قبل أن يصبح رجلاً، ذاع صيته وصار الناس يتناقلون كلامه ونوادره. فُتِنَ الأب به وكفّ عن ضربه. وصار ينتظر، والناس أيضاً، أن يفصح الغد عن مستقبل مميّز لهذا الابن النبيه! وصار جدّي يقول لزهيّة: إبني «وهبي»...ما شاءالله!

وحين يكون راضياً عنها يقول: إبننا «وهبي». وصار يستشيره في كلّ كبيرة وصغيرة، وهذا يشير عليه. كان «وهبي» هو من فاتح أباه بضرورة إرسال أخواته البنات إلى المدرسة ليتعلّمن. زهيّة تتذكّر العصر الذهبيّ الذي ساد فترة بين رجلَيِ البيت، وتتحسّر!

في مدينة صغيرة، لا يمكنك أن تخذل من تباهى بك وبنى

عليك الأحلام! في مدينة صغيرة، وأبوك على هذا المدى من الكبرياء، لا يمكنك أن تطلب إلى خياله الجامح أن يُكبح. في مدينة يعرف أهلها عنك كلّ شاردة وواردة، وتتناهى إليهم بلا جهد وقائع حياتك... ترّهات فِكَرِك... مشيتك إن كانت لجنس النمل ستُسمع، وفعلك مهما تضاءل شأنه أو شأنك سيُرى. فكيف يمكن لمن بالغ في الطموح أن يخذل؟!

حين قرّر «وهبي» ترك المدرسة بحجّة أنّه يفضّل التجارة على تعليم دربه مسدود، أيقن جدّي أنّ موهبة ابنه ستؤتي ثمارها وشيكاً في عالم الواقع! لكنّ «وهبي»، كما بدأ يلاحظ، لا يعجبه العجب: لا يرغب في أن يعمل معه في المتجر. وكلّما بدأ عملاً آخر تراءت له في الأفق أعمال يطغى بريقها على الراهن، أو وجد للشغل وصاحبه سيّئة لتركه. وما يكسبه من مال ينفقه على التفاهات. أوّل حصّالة فتحها اشترى بفلوسها عصا من الخشب المطعّم بالعاج! كلّما جمع مبلغاً اشترى به ملابس وما شابه، حتّى تكاد الدرفة المخصّصة له تطفح بالأمتعة. وبين تركه عملاً، وقبل مباشرته آخر، يمضي أوقاته في الصيد مع شلّة أصدقاء لا يفهم أبوه كيف وطّد صلته بهم! في هذا ما يثير الغيظ، وإن كان يرجع إلى البيت بفيض من السمّان والفرّيّ أو السمك.

لكأنّه صيّاد محترف!

امتحان الرجولة أسفر عن خيبة أمل. سقط الحلم وانكشفت

حقيقة الصورة التي كان يلمّعها حسن الكلام وطلاقة اللسان. ما لم تكن قدّيساً أو على درجة عالية من الحكمة، لا تغادرك خيبة الأمل بلا ضغينة. هكذا حقد الأب على ابنه، وهذا على أبيه. يقفل أمامه درب الأحلام! لا يكتفي بذلك بل يسخر منه:

- «لمَ لا تمتهن الصيد يا بنيّ؟ الحقّ يقال إنّك برعت به! أنا على استعداد لأن أشتري لك العدّة، حتّى القارب». مثل لدغة عقرب أصابه اقتراح أبيه. لا ريب في أنّه يسخر منه!

لكن لا. فالوالد جادّ في كلامه:

- «لمَ لا، فقد فشلت في كلّ شيء ونجحت به! صديقك المفضّل صيّاد. والشلّة التي تقضي أوقاتك معها، غالبيّتها من الصيّادين أو من محبّي الصيد. يوم الجمعة للطيور والأحد للأسماك!

حزّ في نفس الابن أن ينطق أبوه بالكلمة التي كان يخشى سماعها: الفشل، أن لا يعتبره جديراً بأكثر من أن يغدو، وبكلّ بساطة صيّاداً، هو من يحلم بتجارة تجاوز الحدود. يحاول أن يدافع عن نفسه. أن يفصح عن المشاريع المهمّة التي يخطّط لها. لكنّ والده أدار ظهره. ثمّ التفت وألقى عليه نظرة فيها من الازدراء قدر ما فيها من الحقد، وراح إلى غرفته. تبعه «وهبي» وزمام الأمر أفلت هذه المرّة تماماً من يده:

- وأنت من تظنّ نفسك؟ قال لأبيه. شاهبندر التجّار؟!

- شاهبندر التجّار؟!

- لو كنتَ شاهبندر التجّار، لحقّ لك محاسبتي. لو كان طموحي أن أغدو مثلك لما تأخّرت عن العمل معك في المتجر!

جواب الابن أذهل الأب!

جنّ جنونه، وعلاقته بالملقّب «شهبندر التجّار» شابها فيما مضى تنافس لم يأتِ ولا مرّة لمصلحة. ولمّا انتزع شيخ التجّار لقبه بجدارة وذهب بعيداً في أشغاله، وما عاد أحد ينافسه، أحسّ الأب بشيء من الراحة. ليس وحده من يأتي وراء ذاك الشيخ!

لكن... ها هو ابنه العاقّ يعيّره!

يشعل نار الغيرة في صدره!

في أتّون الغضب، عادت ساعة الزمن إلى الوراء. هجم على ابنه والشتائم تمهّد لما سيقوم به. رفع يده وصفعه. لذهوله، لم تبدر عن «وهبي» أيّ ردّة فعل. والأب لغضبه استمرّ في الضرب. وإذ أحسّ أنّ الكفوف وحدها لا تشفي غليله، بدأ ينزع حزامه، ونجح في ذلك. والابن يتردّد في ما يمكنه أن يفعل ليواجه جموح أبيه.

هل ينزع حزامه هو أيضاً؟!

كانت زهيّة خارج المنزل. ولمّا دخلت وجدت رَجُليها على هذه الحال الفظيعة من التأهّب: زوجها رافعاً الحزام، وابنها حاملاً كرسيّ

الخيزران، يكاد ينقضّ به على أبيه. لرؤيتها، ابتعد كلّ منهما عن الآخر من دون أن تغادرهما نار الغضب.

زهيّة، كما اعتادت أن تفعل حين يحتدم الموقف بين رجلي البيت، راحت تختبئ في الغرفة، تكتفي باستراق السمع والنظر من ثقب الباب. لديها كلّ العاطفة أن تندفع وتحمي ابنها، لكنّ التجارب السابقة أثبتت لها تفاهة الدور الذي اندفعت مراراً للقيام به! من تدخّلها لن ينتج إلّا أن تكتوي هي نفسها باللسعات!

تسترق النظر من شقّ الباب!

زوجها، بعد أن ابتعد رجع. اقترب من ابنه ، بصق، وصرخ: «أغرب عن وجهي».

- «لا تقلق لن أتأخّر في هذا. قال «وهبي».

- لو كنت رجلاً لما انتظرت. وإن كنت رجلاً لا تدعني أرى وجهك ثانية».

في تلك اللحظة اتّخذ «وهبي» القرار الذي سيشكّل منعطف حياته! لن يخبر به سوى صديقه حنّا.

حين جاء سعيد الشمّاس إلى المتجر، طالباً إلى جدّي أن يذهب، اليوم قبل الغد، وحالاً إذا أمكن، إلى المطران لأمر مهمّ... لم يفهم جدّي من مغزى الطلب شيئاً.

عجباً! ما الذي يبغيه المطران؟!

أزعجه غموض الموقف! على أنّ ضيقه ما لبث أن تبدّد! بدّده التفسير الذي خطر له، ووجد نفسه يتنهّد. إن كان ابنه العاقّ لا يكنّ له الإعجاب الذي يستأهل، فالآخرون يفعلون. والمطران على الأرجح سيوصيه بأن يجلب له شيئاً من فلسطين غير متوافر محلّيّاً. كثيرون من أهل المدينة ووجهائها يطلبون منه أشياء. ثقة الناس به تجاوز ثقتهم بأيّ تاجر آخر في صور! ووجد نفسه يتهيّأ للجواب: «مطالبك على الراس والعين يا نيافة المطران»!

هكذا...وفيما كان يتأهّب لأن يردّ لنفسه الاعتبار، كان المطران ينتظره على أحرّ من الجمر ليلقي عليه النبأ الذي سيصيبه بالذهول: ««وهبي» كان يخطّط لخطف بهيّة بنت سمعان! كان، لولا رأفة الله بعباده، سيهرّبها بعيداً عن المدينة»!

زهيّة، رأت زوجها يدخل البيت دخول ثور هائج... يصفع الباب حتّى يكاد يخلعه! يهرول إلى غرفة الخزين بحثاً عن الكرباج، ثمّ يخرج ليسألها عن «وهبي»... فأيقنت أنّ أمراً خطيراً يلوح في الأفق. تقول له إنّه منذ ذاك اليوم لم يرجع إلى البيت. وكادت تضيف أنّها قلقة لأجله، لولا أنّ اهتياج زوجها والجنون الذي تنطق به هيئته لا يتيحان لها مجالاً لمثل هذه المصارحة.

- خير إن شاء الله. خير يا حسين. اتّقِ الله. صلّ على النبي».

لم تترك رجاء إلّا نطقت به في تلك اللحظة التي تعجز فيها عن فكّ اللغز الذي يجعل زوجها غاضباً لهذا الحدّ!

زهيّة التي سمعت من الحكاية الرهيبة شذرات، صارت تتأهّب بانتظار شرّ مستطير. «أدب سيس» يردّد زوجها بالتركيّة، نكاية فيها. «أدب سيس». جيل فاسد. حبّ قال حبّ. ويخطّط لخطف البنت.

غضب الربّ عليك يا «وهبي»!

يا من سوّدت وجهي مع المطران!

زهيّة تلملم أشلاء الكلام، لتفهم ما لا يمكنها تصوّره: أن يكون ابنها قد خطّط بالفعل لخطف فتاة.

- «من هي؟

- هس. ولا كلمة!

- كذّابين. اللهمّ نجّنا من شرّ حاسد إذا حسد...

- هس اسكتي. وإلّا...

وإلّا...»

وينعتها بالبله. ويكاد ينقضّ عليها، فتهرع ليلى وتقف

بين أبيها وأمّها. وتلحق بها أختها...

غاب «وهبي» عن البيت أيّاماً، ووالده يتربّص وغضبه يشتعل.

ولمّا دخل ذات مساء، باغته بالكرباج.كان لهذه اللسعات وقع آخر غير الألم: جرح في الكبرياء لم يخيّل للأب أنّه لن يلتئم. زهيّة ستسمع بنفسها العبارة التي لن يفهم مغزاها حسين إلّا بعد فوات الأوان.

ستنهار! إن كان حسين لم يصدّق، فهي، ومعرفتها ابنها كما نفسها، صدّقت:

«أنظر، فلن ترى هذا الوجه ثانية، قال «وهبي» لأبيه».

ليلى كرهت المطران. وزهيّة كرهته أيضاً. كان في إمكانه استدعاء «وهبي» ومحادثته مباشرة، بدل الشكوى لأبيه التي دمّرت آخر أعمدة الوفاق بين الرجلين.

والآن ماذا يمكنها أن تفعل؟

تكتب رسائل لأخيها، لا تجرؤ على إرسالها من دون علم ذويها. ولمّا، تحت وطأة المرض، طلبت إليها أمّها أن تكتب رسالة ل«وهبي»، كانت سعادتها أكبر من سعادة تلك. راحت تصفّق وهي تقول: «طلبك حاضر، طلبك حاضر يا أمّي».

ما هو الحاضر يا ليلى!؟

المكتوب يا أمّي حاضر. مكتوبك ل«وهبي» حاضر.

* * *

كاتبة «من صور»

نادراً ما تمكّنت فتاة من جيل عمّتي ليلى من القراءة، فكيف بها لو تمكّنت بما كان أصعب منها: الكتابة؟! خصوصاً إن كانت القارئة الكاتبة مسلمة مولودة في أواخر القرن «التاسع عشر»؟! زمن كان يخشى فيه من تعليم البنت كي لا تصبح قادرة على «المكاتبة»!

حين يلفظن الكلمة يخفضن الصوت، إذ يقصد بذلك ما هو مشين: مكاتبة الرجال!

جدّي، حين اقترح عليه «وهبي» إرسال «البنات» إلى المدرسة، راقت له الفكرة. نعم، فعائلة نعمة لها أصول في العلم ولديها علماء. وبرغم ملامة الناس من حوله لارتكابه خطيئتين معاً: تعليم البنات، وتعليمهنّ لدى المبشّرات، اتّخذ جدّي قراره وقال لجدّتي: «غداً تأخذين البنات وتسجّليهنّ في مدرسة الإنكليز».

نعم... بماذا يتفوّق عليه شاهبندر التجّار؟! بالعلم ومسك

الدفاتر. وهو، حسين، مهما حاول، لن يتمكّن من مسكها كما يجب مثلما يفعل هذا الجنّ الذي تعلّم أكثر منه، وتدرّب على يد تاجر من صيدا. العلم مفتاح النجاح! سيجعل جميع أبنائه وبناته يتقنون القراءة والكتابة. يتقنون الحساب والحسابات.

حين سألت جدّتي المبشّرة الإنكليزيّة عن إمكانيّة تعليم البنات «مسك الدفاتر»، رفعت تلك حاجبيها تعجّباً! لميس المترجمة رفعت حاجبيها أيضاً: الفكرة لم تخطر لهذه أو تلك من قبل.

يدرسن الحساب، نعم!

لكن المحاسبة و«مسك الدفاتر»؟!

على رغم ذلك، وقع السؤال موقع الإعجاب في نفس المبشّرة. وانعكس على معاملتها الأختين اللتين طلب أبوهما علماً غير موجود حتّى في مدارس بريطانيا!

لرؤية البنات المسلمات خارجات من البيت، متّجهات إلى الجهة الغربيّة من البلدة، نحو أكثر الشواطئ انفتاحاً على البحر، والذي صار يعرف ببحر الإنكليز... لرؤيتهنّ، كانت النسوة يُطْلِلْنَ من الشبابيك أو يَشْقُقْنَ درفة باب البيت، ليشاهدن المسلمات اللواتي أصرّ أبوهنّ على تعليمهنّ لدى الأجنبيّات! لدى هؤلاء المبشّرات اللواتي يدرن في الأحياء ويطرقن الأبواب، لا فرق لديهنّ بين مسلم وغير مسلم، يَسْتَغْلِلْنَ لطف الناس وحسن الاستقبال ليتلونَ دروس التبشير. وابنة

توفيق بولس، الذي غيّر ملّته وصار بروتستانتيّاً، تقوم بالترجمة. حتّى آمنة المسلمة صارت تترجم أيضاً للناس لغة المبشّرين! وأهلها يدافعون عن ذلك بالقول: ما العيب في هذا؟! «مهنة» مثل التعليم.

لكن لا!

للمبشّرات غايات لا تَخفى على فطن، وقد يلعبن بعقول البنات. يُخرجنهنَّ عن الدين الحنيف، وقد يزوّجنهنَّ رجالاً من النصارى.

عجباً!

ما الذي يدعو رجلاً محترماً مثل حسين نعمة لأن يعرّض بناته للمخاطر؟!

البنت لا يجوز أن تتعلّم أكثر من قراءة القرآن أو «الأدعية» لأهل البيت والأئمّة الاثني عشر، عليهم السلام. حتّى إنّ من الأفضل أن تحفظ هذه النصوص غيباً. البنت، إن تمكّنت من القراءة والكتابة، فما الذي يمنعها من استخدام علمها لغير غرضه؟! كأن تكاتب رجلاً في السرّ؟! إنتشر الخبر في صور. بنات حسين نعمة يرتدن مدرسة الإنكليز!

الخبر بلغ المرجع الدينيّ، وهذا لم يصدّق أذنيه!

حتّى النصارى لا يجرؤون على ذلك!

ومَن مِن النصارى تجرّأ وفعل؟

قلّة لا يُجاوز عددها أصابع الكفّ؟

ولولا المعونات والإغراءات لما أقدم هؤلاء على ذلك:

- «يا أخي حسين ، تعليم البنات في المدرسة خطر. اسمع منّي واسحب بناتك منها قبل فوات الأوان»!

ابتسم جدّي وأجاب:

«أطلبوا العلم ولو في الصين! العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة! أليس هذا حديث الرسول، صلّى الله عليه وسلم؟!»

المُحاجّة بين الرجلين انتهت إلى برود في العلاقة. يقال، أوعز رجل الدين إلى رجاله بأن يشتموا جدّي ويذمّوا ذكره بين الناس. عندما «تخرّجت» ليلى في المدرسة، كانت قد أتقنت القراءة والكتابة:

«بيت نعمة» هؤلاء ولدوا والعلم في دمائهم. يكفي أن يرسلوا ابنة أو ولداً إلى المدرسة، ولو لسنوات قليلة، حتّى يبرعا في القراءة والكتابة. والابنة ليلى نعمة، منذ الرسالة الأولى، التي خطّتها لأخيها على لسان أمّها زهية أكّدت أنّها مُلهمة».

«يا سبحان الله!»

لم يمضِ شهران حتّى جاءهما الجواب من الابن الغاضب، يؤكّد وصل ما انقطع. ذاع صيت الرسالة. ستغدو ليلى كاتبة البلدة وقارئة

رسائلها، واسطة بين المقيمين والمسافرين. تأتيها المشتاقة،أو حتّى المشتاق بوساطة أنثى من أهله، لتدبّج لها الرسالة التي ستحمل الأشواق على أجنحة كلام هذه البنت المتعلّمة! الأمّهات يبكين على كتفها ويشكون لها لوعة الفراق: يا ستّ ليلى، أرجو منك أن تكتبي. أكتبي ليرجع. أكتبي ليرسل. أكتبي ليودّع من كان على فراش الموت... رجاءً يا ستّ ليلى.

حتماً، كان سيذيع خبر المراسلات التي تخطّها عمّتي، وتدفع الأمّهات إلى عدم اللجوء إلى رجل غريب يطرّز مكاتيب حفظها عن ظهر قلب. «ليلى هذه تخطّ الكلام من صميم القلب. تفصّل لكلّ أحد ما يريده، وكأنّها لسان حال المرسِل إلى المرسل إليه. رسائل كثيرة كتبتها ليلى، على أنّ واحدة منها بلغت شهرتها كلّ أهالي البلدة، بل طارت إلى قرى «جبل عامل».

يقال إنّ المرسل إليه، الذي وطئ حديثاً أرض السنغال، لفرط تأثّره برسالة أمّه، حمل نفسه ورجع! وأقسم بعد ذلك على عدم السفر! وغدا مثالاً يضرب به بين الناس. بعد ذلك، صارت ليلى، بحسّها الفكاهيّ، وقبل الشروع في الكتابة، تسأل محدّثتها أتريد عودة المرسل إليه من اغترابه بالفعل، أم تكتفي بالأشواق والسلام والكلام والأخبار وما إلى ذلك؟!

كانت عمّتي ليلى ذات شخصيّة مميّزة، موهبتها في بناء العلاقات الاجتماعيّة تضاهي موهبتها في كتابة الرسائل. ليلى، ورثت عن

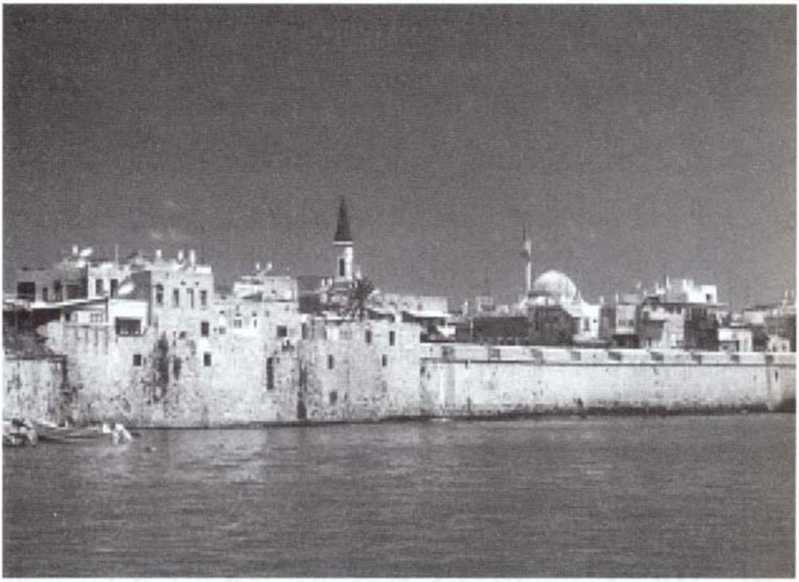
عائلة نعمة الحسّ النقديّ الفكاهيّ. وكانت بارعة في لغة الإشارة والمحاكاة، كأنّما ولدت ممثّلة! تقول «ماري منيب». يكفي أن تقوم ببعض الإشارات لتعرف منك عمّن تتحدّث من دون ذكر الاسم، أو أن تعيد عليك ما شهدته وإيّاها، فتغرق في الضحك. ذكاؤها جعل لديها جاذبيّة بين الناس. كانت ذات حنكة وقدرة على بلوغ هدفها باللين والكلمة المحبّبة للنفس.

نجاح ليلى سيجعلها مثالاً يحتذى. فتيات كثيرات في البلدة سيحملن اسم ليلى ويرسلن إلى مدرسة الإنكليز. وتيّمناً بها سيستوحي أحد متخرّجي مدرسة السلطان «عبد الحميد» الفكرة، ويضع طاولة وكرسيّاً أمام دكّان أبيه، ويكتب الرسائل، لقاء «إكراميّة». كان ذلك سنوات قبل أن يغدو مستقبلاً «باشكاتب» وينقل طاولته إلى باب المحكمة، ويعلّق يافطة تعرّف به: نعمل لإنقاذ موقوف والمطالبة بحقّ موروث. «عرائض» وكتابات تفتقد للمشاعر التي تفيض من الرسائل التي تكتبها ليلى نعمة على لسان النسوة الملتاعات.

على رغم تفانيها، كان يراود ليلى ذاك الإحساس الغامض الذي لا تبوح به لأحد: لا جدوى من الرسائل. ما الكلام...ما الدموع التي يذرفها هؤلاء سوى حبر على ورق! وتبقى عودة الغائب في علم غيب غامض يجاوز إدراك الناس. هناك بلاد يسهل الفكاك منها، وأخرى فعلها كالسحر يسكن أرواح هؤلاء المهاجرين. درب الذاهبين إلى أميركا، هي كما في الحكايات، «درب تسدّ لا تردّ».

مثل الدرب الذي سار فيه أخوها «وهبي»، وجعلها تلعن «الحبّ» والعشّاق، وتحمد الله على أنّها، هي، أو أيّ من شقيقاتها، لم، وبالتأكيد لن، يتعرّضن لمثل هذه التجربة الرهيبة التي دخلت فيها بهيّة بنت سمعان وأدخلت فيها «وهبي». ليلى أيضاً كانت في السرّ تبكي فراق أخيها الذي قد لا يعود، وتلعن أصل الحكاية والأطراف التي حبكت فصولها: «ساعة الحائط توقّفت، يا أخي الحبيب، لحظة غادرتَ فيها باب الدار إلى البلاد الغريبة التي تدعى أميركا. الساعة تنتظر. إن عدت إلينا اشتغلت عقاربها من جديد».

* * *



عكّا قبل الاحتلال

الطريق إلى عكّا

منذ مطلع شبابه، سيُعرف حميد بين سكّان البلدة، ذات التاريخ العريق في التجارة، بأنّه شابّ طموح، نظيف اليد واللسان كما الوجدان. يتمتّع بشخصيّة قويّة وعزيمة تنبع من الاستخفاف بالحياة، ما لم يؤمّن لها صاحبها نمطاً كريماً خليقاً بالصالحين من البشر.

لكنّ الظروف تعاند!

الحرب الكونيّة التي بدأت مطلع مراهقته، تسير على قدم وساق ولا أحد يعرف متى يخرجون من نفقها المظلم.الجراد يلتهم الأخضر واليابس، والمعارك تلتهم زهرات الشباب. لكن الفرص لا تبخل. ففي عطلة الربيع قال له أبوه: «يا حميد، سترافقني هذه المرّة إلى فلسطين.

حتماً سيفرحه أن يرافق أباه إلى البلد التي يُحكى عن ازدهارها وخيراتها. من يطلب الحجّ إلى القدس، يذهب إليها. من ينشد العلاج... من يجهّز ابنته المقبلة على الزواج، وكان قادراً، يذهب إليها. والشبّان حين يحلمون بدنيا مغايرة فإلى مدنها تطير الأحلام. فلسطين امتداد للبنان. يقال حيفا كما يقال بيروت والشام. أهلها جيران لأهالي صور، أقارب بالزواج أو شركاء في العمل.

لم يكن حميد قد بلغ السادسة عشرة حين فاضت المسؤوليّات على أبيه، وصار مطالباً بلا كلام بالمشاركة. حتماً سيمتثل ويرافقه في رحلة العمل هذه. سيجلبان القمح والحبوب وما تيسّر من الثمار المجفّفة لبيعها أو التقوّت بها. ذاك النهار الربيعيّ، ركب كلّ من الأب والابن دابّته واتّجها جنوباً. يسيران بمحاذاة أجمل شواطئ العالم. يشعر اليافع بهذا على رغم أنّ عناصر المقابلة لم تكن قد تشكّلت في ذهنه بعد. البحر يتموّج بالأزرق الفيروزيّ والكحليّ. وخلفه بساتين خضراء ملأى بأشجار البرتقال والحمضيّات. أبوه يكرّر على مسمعه، أنّه من صور لعكّا أو حيفا لا يلزمه أن يحيد شبراً.

المدن هذه كلّها توائم. عكّا توأم صور وصيدا. حيفا توأم بيروت. طمع بها كلّ غزاة التاريخ...

يحاول اليافع أن يتخيّل «خريطة» البلاد، ويستعيد دروس الجغرافية والتاريخ التي حفظوها عن ظهر قلب، والتي تتحدّث بسلطنة بني عثمان، المترامية الأطراف، وخيبة جيش نابليون وهلاك نصف جنوده في عكّا بالتيفوئيد.

كانا قد قطعا شوطاً في الرحلة، حين قال له أبوه: «يا بنيّ، عليّ أن أرجع. مسألة مهمّة غابت عن بالي، تذكّرتها الآن...».

«عجباً!»

ما المسألة التي تضطرّ والده إلى العودة، وقد بلغا رأس «الناقورة»؟! إستراحة ليلة واحدة ثمّ مسير يوم، ويصلان إلى عكّا؟! ما الأمر الذي يخفيه عنه والده؟!

وبعد تردّد قال الأب:

- الأسبوع المقبل جلسة محكمة للبتّ في خلاف على أرض خبّأ عندي صاحبها بعض الأوراق. يأمل بأن تثبت هذه ملكيّته. نسيت أن أعيدها إليه. لو تخلّفت فقد يخسر الرجل دعواه. إن أردت العودة معي فلا بأس. وإن كنت تفضّل انتظاري هنا في الناقورة...

خجل الولد من أن يفصح عن قلقه من السفر بمفرده. إنّه الامتحان الأوّل! والأب الذي كأنّما قرأ فِكَرَ ابنه قال:

- يمكنك المبيت ليلتين في هذا النزل. إن تأخّرتُ عليك يمكنك العودة إلى صور. وإن رغبت فاسبقني إلى عكّا. إنزل في خان الحمدان، واترك لي خبراً مع أحد هناك.

الولد لم يعلّق.

«أو... اسمع... أضاف الأب، من الأفضل أن لا تكون وحدك وأنت جديد العهد بالسفر. كثير من التجّار يسلكون الدرب نفسه، وبعضهم يعرفني. قد تَلقى تاجر خيل يدعى مطانيوس الأشقر، يأتي من بلاد جبيل، مطلع الشهر، ويبيت هنا في الناقورة، وفي خان الحمدان في عكا. يا سلام... لديه من الجياد ما لم ترَ العين من قبل. يعتني بها كما يعتني بأولاده. سيكون حظّك كبيراً إن لقيته. من يدري؟ فلعلّه سيدعوك لتركب واحدة من أفراسه. لفرط ما يلمع شعرها، يخيّل لراكبها أنّه سينزلق عنها. إن تأخّرتُ عليك فرافقه إلى عكّا. هناك، اسأل عن تاجر يدعى عبد الصمد في سوق الخردة. أشهر من نار على علم. دكاكينه هي في حدّ ذاتها سوق. لن تطلب شيئاً ويقال لك لا يوجد... ألقاك في متجره.

إنتظر حميد في النزل ثلاثة أيّام لم يرجع فيها والده، ولم يبعث إليه بخبر مع أيّ من القادمين من صور.

ما العمل؟

الاحتمالات التي تلوح في خاطر حميد عديدة:

إمّا أن يرجع إلى صور في أقرب وقت، ليطمئنّ قلب أمّه.

وإمّا أن ينتظر أباه بضعة أيّام أخرى.

وإمّا... الاحتمال الثالث الذي ملأه حماسة، وجعله يترك رسالة لوالده مع صاحب النزل، يقول فيها إنّه سبقه إلى عكّا، بالفعل مع تاجر الخيل «مطانيوس» الأشقر، وأنّه سيترك أخباره لدى التاجر عبدالصمد في عكّا.

سيقلق الأب على ترك ابن السادسة عشرة من عمره يسافر وحده. في عكّا لن يخشى عليه وعبدالصمد موجود. الدنيا على رغم الحروب والملمّات لا تبخل على أبنائها، ولا سيّما الطيّبين منهم. يقول هذا لطمأنة زهيّة، التي يتحدّث وجهها بالأخطار المحدقة بابنها، فيما عقله مثل رقّاص الساعة يعدّد الاحتمالات التي قد يتعرّض لها اليافع. أيّ كارثة أن يتسبّب بخسار ولديه الاثنين: الأوّل بسبب صفعة وكرباج، والثاني بسبب عهد أخذه سرّاً على نفسه: بعد خيبة أمله في ابنه البكر، سيعمل المستحيل ليجعل من الصغير رجلاً. لكنّه، وزهيّة قد عصبت رأسها بالمنديل... أدرك أنّ الصداع الفظيع قد أمسك بها من جديد. يعرف أنّها في لحظات اليأس تصغي إلى الترّهات من الأقاويل التي تزعم أنّ الجنّ تسكن الروح. وأنّ هذه، لواعز ما، تهبّ وتعبث بأولاد آدم وحوّاء، ولا تتركهم إلّا منهكي القوى! ويحذّرها من الشعوذات التي لا علاقة لها لا بالطبّ ولا بالدين. ويمنعها من اللجوء إلى شيوخ السحر والمزار. ولا يتوانى عن

السخريّة من «كتابة الكتب» و«سكب الرصاص». وهي إن كانت تجاوز الحدود في المسألتين الأخيرتين، فتلجأ إلى الشيخة أم رقيّة، إلّا أنّها، في شأن السحر وحلقات الزار، لا تجرؤ حتّى على التفكير فيها. لو عرف زوجها جنّ جنونه!

وما أسهل أن يعرف!

له عيون وآذان على كلّ شاردة تقوم بها وواردة. وابنته ليلى التي، بعد قطيعة «وهبي» صار يفتخر بها، ليلى العاقلة المتعلّمة... هي العين والأذن البديلة التي تنقل له الوقائع!

زهيّة، تستغرب أن يعاند زوجها لهذا الحدّ طرائق معروفة في العلاج! طبعاً! لو كان هو المصاب بالصداع لسكب كلّ رصاص الدنيا! لأقام كلّ يوم وصلة زار! لكن، عندما يتعلّق الأمر بغيره، يتهاون.

يؤكّد لها أنّه لا يتهاون بل ينظر إلى الأمراض نظرة رجل عاقل، متنوّر. قارئ كاتب كما يقولون. حفيد الشيخ عبدالله نعمة، العالم الفقيه في قضايا الدين والفقه والسيرة النبويّة. صحيح أنّه هو، حسين، ليس بعالم مثل كبير أعمامه، ولم يذهب إلى المدرسة سوى ثلاث سنوات، ومن قبلها تعلّم القرآن في الكتّاب... لكنّ الصحيح أيضاً أنّ شيئاً لا يضيع. فهو يلجأ إلى العقل، ويقينه أنّ الصرع ليس من مظاهر الجنّ، بل هو مرض. يقال إنّ عالماً كبيراً في الطبّ، من أبناء

العرب، عاش قبل أكثر من ألف سنة، قد أودع علمه وأسراره في كتب معروفة، كتب يتهافت عليها علماء أوروبّا، وينهلون من ينابيعها، ونحن ما زلنا نُشيع الحكايات عن الجنّ والشياطين! «إبن سينا» هذا تحدّث في كتابه عن الصرع، ولم يَعْزُهُ إلى جنّ أو عفريت!

جدّي يسأل حوله عمّن يمكنه علاج جدّتي. ولمّا أعيته الحيلة وعدها بأن يأخذها إلى فلسطين، لترى طبيباً ألمانيّاً ذاع صيته. لكنّه في بادئ الأمر اكتفى باستشارة طبيب في بيروت. وهذا، بعد أن استمع إليه، هنّأه على تنوّر فكره، وطمأنه بأنّ شيئاً لا يدلّ على أنّ حرمه تعاني «الصرع». ما لديها يُسمّى صداعاً نصفيّاً. عليها أن تتجنّب الهموم وانشغال البال. أعطاه أعشاباً مسكّنة، وقال له إنّ أفضل دواء للصداع راحة البال.

كيف... وهي لا تفتأ تنوح على فراق «وهبي»؟! والآن تعصب رأسها لغياب حميد؟!

ترويحاً لها عن نفسها قال جدّي:

- تهيّئي يا زهيّة، سآخذك إلى فلسطين ترين الطبيب الألمانيّ وتتفرّجين على بلاد خلق الله.

وهي من فورها سألته: هل حيفا بعيدة عن القدس؟

- بعيدة حتماً!

قالت إنّ زيارة المسجد الأقصى، هي في نظرها أعظم ألف مرّة

من زيارة الطبيب. دخول المسجد الأقصى سيكون الترياق الشافي لها في الدنيا، ومفتاح الجنّة في الآخرة.

لا يضاهيه ثواب سوى الحجّ إلى بيت الله الحرام؛ ومشروع مثل هذا في ظروف الحرب غير مضمون. تسمع كثيراً عن القدس. يا إلهي...سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى!

نعم، أن تكحّل عينيها برؤية القبّة... أن تلامس كفّها حائط المصلّى... أن تؤدّي ولو فرض صلاة واحداً في هذا المكان المقدّس... لهو ترياق الشفاء.

هنيئاً لمن تسنّى له مثل هذه الرحلة!

لو كان في وسع زهيّة أن تحكي... لو كان لها ملكة التعبير، لقالت بالإسراء والمعراج قصائد رابعة العدويّة، وروحها كروح تلك، تخشع وبدنها يقشعرّ! حماسة زهيّة حين تستمع إلى حكاية الإسراء، تجاوز حماسة طفلة لسماعها أكثر الحكايات الخارقة سحريّة. إن كان أبطال هذه وبطلاتها من أشباه الجنّ والبشر، فسيّد تلك نبيّهم المصطفى. في تلك الليلة فُتحت له أبواب السماء وهبطت الملائكة وحملته على فرسه من مكّة إلى القدس!

يا إلهي! سبحانك ما أعظم شانك.

يذكر حميد أنّ أمّه في ليالي القدر، لا تنام. فيما والده يغطّ في

سابع نوم. تفتح الشبّاك، تحدّق إلى القمر والنجوم، خاشعة مضطربة تبتهل! تبتهل ليرجع «وهبي». حميد الذي في تلك الليلة لا يغمض له جفن هو أيضاً، يراقب المشهْد الذي سيظلّ ماثلاً في مخيّلته حتّى آخر العمر.

لخشيته من أن يتحوّل مشروع السفر، من استشارة طبيب إلى رحلة حجّ، حزم جدّي أمره: سيعطي زهيّة وعداً يعوّضها به عن زيارة القدس، بزيارة أخرى: «الستّ زينب» في الشام. وينتهز الفرصة ليسلّيها بالحديث... هناك مقام آخر «للستّ زينب» في مصر... من يدري؟ لعلّه ذات يوم سيركب المركب من مرفأ صور إلى الإسكندريّة. لو تعلم... مرفأ صور، لفرط ما كانت تبحر مراكبه إلى مصر، كان يطلق عليه اسم «المرفأ المصريّ»... ثمّ يعود ليذكّرها بالواقع: الرحلة إلى فلسطين، غايتها استشارة الطبيب الألمانيّ ليس إلّا.

لكن الآن... وقلقها على حميد يبلغ ذروته، قال لها:

«إن شاء الله، ما إن يرجع حميد من عكّا نبدأ نستعدّ. سيرافقنا إلى حيفا في زيارة الطبيب. لا تقلقي. إبنك حميد «جدع». أعدك، ننتظر يومين حتّى تُشفَي من الصداع. وإن لم يرجع ألحق به لأعيده إن شاء الله سالماً».

لسماعها وعد زوجها، نهضت زهيّة من الفراش، نزعت العصبة عن رأسها وقالت لزوجها حسين: شفيت!

ذاك اليوم، دخل خميد على الأسرة. هرعت أمّه إليه تقبّل

وجنتيه، وسجدت تقبّل الأرض. أنهضها وقبّل يدها وهو يقول: سيكون النجاح حليفي، وأمّي راضية عليّ.

ثمّ التفت إلى أبيه وقال:

«علينا بأسرع وقت أن نخرج إلى الساحة لنفرغ حمل الجمال».

نظر إليه أبوه مذهولاً! إن كان قد صدّق عينيه، فكيف يصدّق أذنيه؟

- يا أبي، الجمال في الساحة تنتظر، والعربة أيضاً.

أعدك... المرّة المقبلة سأذهب إلى عكّا بالمركب!

كان هذا أوّل نجاح لأبي في عالم التجارة. تجربته الأولى هذه جعلته يردّد: تلزمك النقود لتكون بائعاً، ولكن كي تغدو تاجراً يلزمك ما هو أثمن من ذلك بكثير: الثقة. ثقة عبد الصمد بحسين نعمة كانت رأسمالي. التاجر العكّاويّ سلّمني البضاعة لقاء مال قليل، فقط لسابق تجربته مع أبي.

* * *

مراهقون في العسكريّة

كانت الرحلة التجاريّة تلك، الأولى لحميد خارج بلدته، وفراقه الأوّل أهله. أمّا الفراق الثاني فكان له شأن مختلف: العسكريّة الإجباريّة. حاول ذوو المطلوبين تخليص أولادهم منها.

لم الإعفاء يسأل الضابط؟

- «إنّه بحكم الوحيد يا حضرة... وأخوه بحكم المفقود...».

- «عليك أن تثبت ذلك يا أخ حسين».

سيؤخذ اليافعون إلى «الخدمة»! في حادثة مشابهة، كما وصلت الأنباء، أعاد قائد ثكنة عاليه «المراهقين» إلى ذويهم. أمّا قائد السريّة هنا، فلم يجد غضاضة في إلحاق مراهقين بطابور الحرب. كانوا في غالبيّتهم صغاراً سنّاً وقامة. لم يكن قد تبيّن بعد، أيصبحون رجالاً أشدّاء... وتطول قاماتهم، وتغدو أكتافهم أعرض، وسيقانهم

أوفر عضلاً، أم ستلازمهم القامة النحيلة الصغيرة تلك، بقيّة حياتهم؟ الأوفر حظّاً منهم كان يأمل الحدّ المعقول من وجبات الغذاء. كيف لا والجراد يسبق الناس إلى التهام المحاصيل من الحقول؟! والفاكهة، قبل أن يحين قطافها، تتوارى عن الشجر؟! الأحياء يأكلون الشعير، ومن لا يتمكّن ينازع الموت في الطرقات. عقود طويلة والرهبة من المجاعة ظلّت تمسك بالنفوس. سنوات طويلة و«المعتوه» يدور في الشوارع يتسوّل والناس يطعمونه. يقال إنّ زوجته وطفليه قضوا جوعاً، ففقد صوابه. صار ينادي الناس ليلقي عليهم «الحزّورة» نفسها: «أفعى برأسين، بأربع عيون وجسم واحد. ما هي»؟ ويجيب نفسه: رأسا الأفعى، الحرب والمجاعة.

حميد ورفقاؤه راحوا إلى «سفر برلك»، التي تقشعرّ لذكرها الأبدان. «الذاهب إليها مفقود والعائد مولود». كثيرون راحوا وانقطعت أخبارهم، مثلما جرى لأسعد. اليوم، وزهيّة تودّع ابنها إلى مصيره المجهول، يتراءى لها وداع أخيها أسعد، كأنّه البارحة!

طُلب إلى المراهقين التجمّع عند طرف البلدة حيث الثكنة. سيمكثون فيها فترة قبل أن يأخذوهم بالقطار إلى فلسطين. أو إلى ثكنة «مرجعيون». في الطريق من البيت إلى الثكنة سيراً على الأقدام، أصرّت جدّتي على مرافقة ابنها. جدّي يحاول أن يثنيها عن عزمها. إرجعي، يقول لها مشفقاً، كي لا يتحوّل الصداع إلى صرع.

لم تكن العادة أن ترافق النساء أبناءهنّ إلى الثكنات. لكنّها أصرّت. تبدو في سيرها كأنّها ترافق ولدها إلى منصّة الإعدام، تمشي بجانبه تتمتم بالآيات والأدعية وعبارات تخرج من حشا القلب، تدعو الله والأنبياء وأهل البيت والقدّيسين أن تحصل معجزة تنجّي صغيرها حميداً من تجربة سفر برلك.

جدّي يذكّر ابنه بتفاصيل الخطّة التي رسمها مع سائر الآباء لأبنائهم المراهقين: سيصلون بالدشداشات القصيرة ليبدوا أقصر قامة ممّا هم عليه بالفعل، وأصغر سنّاً. حال وصولهم يفرشون لُعَبَهم: يرمون البلابل الخشبيّة على الأرض بخيطان المصّيص، وبالكرات الزجاجيّة يلعبون «بالكلل». وبالنقيّفات يتسلّون باصطياد العصافير. سيستغرقون في اللعب. وكما أوصوهم... سيلتهمون الطعام التهاماً، وهم يتذمّرون من شحّه ورداءة نوعه وطعمه. سيزعمون الإجهاد وعدم القدرة على التركيز أو الامتثال للأوامر، حتى يتأكّد للمسؤولين استحالة تدريب صبيان تجاوز كلفة إطعامهم وملبسهم الفائدة المرجوّة منهم. عندئذٍ يرجعهم قائد السريّة إلى ذويهم، كما فعل العام الماضي قائد سريّة «عاليه».

عندما عادت أمّ المرشّح للعسكريّة إلى البيت، بدت كأنّها ستقضي الليلة حتفها. استبدلت بالعصبة البيضاء أخرى سوداء، وتمدّدت على فراشها ونامت.

أيّاماً لازمت الفراش.

جدّي يكذب عليها. لأوّل مرّة صار يواسيها بالقول إنّه كتب لـ«وهبي»، وإنّه سمع من أحد القادمين أنّه سيرجع.

* * *

في الثكنة كانت الأمور تجري بصورة روتينيّة مغايرة لما رسم الآباء. فقد امتثل الصبيان للأوامر. سلّموا لُعَبَهم للعساكر، وخلعوا دشداشاتهم ولبسوا الزيّ العسكريّ، والتهموا الطعام الرديء كما لم يلتهموا طعاماً من قبل. أمّا تأفّفهم منه فلم يجاوز آذانهم. سيّروهم بالقوّة والتهديد. وقيل لهم أن يستعدّوا للبدء بالتدّرب على السلاح والفتوّة في الثكنة، لفترة وجيزة، قبل إرسالهم إلى فلسطين.

غداً سيبدأون.

أسبوع مضى، والغد الموعود لم يأت. في الأسبوع التالي باشروا: «يمينك سرْ شمالك درْ». «راوح مكانك». ثمّ وزّعت عليهم بنادق بلا رصاص. كانوا بعد ساعات مقيتة من التدريب المملّ، يمضون أوقاتهم في حوش الثكنة وزواياها. يلهون بالبنادق الفارغة، ويأكلون طعاماً تمجّه النفس. وفي الليل ينامون في عنابر تضيق بهم. يشاع أنّهم قريباً سيؤخذون إلى الجبهات، بلا تدريب. لطالما شهدت الحروب ترّهات كهذه، يُجعل فيها المراهقون، طعماً

لمن يصطاد في وحل الصفوف الأماميّة، ومتراساً يردّ عن الجنود المدرّبين تعسّف الهجمات الأولى.

* * *

في منتصف ليل، أفاق جدّي على خشخشة. نهض وسار نحو الباب الخارجيّ: ورقة على الأرض! تناولها وراح إلى المطبخ. أشعل مصباح الكاز وقرأ العبارة التي تكاد توقف القلب: «ابنك، ابنك يا حسين نعمة هرب من العسكريّة. ابحث عنه ودبّر له المخبأ اللازم»!

قرأها مرّات.

يا للعجب! وسمع خطوات زهيّة قادمة إليه، وصوتها يسأله عمّا جعله يستيقظ من عزّ النوم ويضيء المصباح؟ دسّ الورقة في جيبه وقال: لا شيء، ألم في المعدة..

كيف له أن يصدّق الأمر والتهوّر ليس من طبع ابنه؟!

وإن كذّبه فماذا يكون مغزى الرسالة؟

استلقى جدّي على فراشه، وغموض الموقف وتعدّد الاحتمالات يعبثان برأسه. في الصباح حمل نفسه واتّجه إلى متجر الحاجّ توفيق سرحال، فابنه مالك كان من فوج المجنّدين مع حميد. رحّب الحاجّ به ودعاه للجلوس. تبادلا عبارات لا معنى محدّداً لها، فيما جدّي

يحاول قراءة شيء في عيني الحاجّ، لعلّه هو الآخر تلقّى رسالة قائلة «ابنك هرب من العسكريّة شوف شو بدّك تعمل».

ماذا يقدر أن يفعل؟

لو كان ابنه في ثكنة صور، لتذرّع بأن يأخذ له طعاماً ليراه. لكن من المؤكّد أنّ الفوج صار في ثكنة حيفا.

وينك يا حيفا؟ والأمر على جانب كبير من الخطورة. وما عدا التاجر عزّام، لا يمكنه أن يثق بأحد هناك.

هل يذهب إلى فلسطين يتقصّى الأخبار؟

وهل إذا فعل يلحق الأذى بابنه بدل مساعدته؟!

وماذا لو أمسكوه، هو، للتحقيق؟

وقال للحاجّ سرحال:

- تحدّثني نفسي بالذهاب إلى حيفا، لأتفقّد حميداً. ما رأيك في أن نذهب معاً لنطمئنّ إلى صحّة أولادنا؟

- رأيي... لا أعلم. ثمّ من قال لك إنّ الفوج في حيفا؟

- قيل سيأخذونهم إليها.

- قالوا، هذا صحيح. ولكن من غير المؤكّد أنّهم فعلوا. كانوا سيقضون الفترة الأولى في مركز صور، أو في ثكنة مرجعيون.

عجباً!

الحاجّ توفيق لا يبدو متحمّساً لزيارة ابنه! ودّعه جدّي ومشى كاتماً سرّه، فيما التساؤلات تعبث برأسه. في الأيّام التالية صار يتذرّع بالتوافه ليمرّ بفلان وفلان ممّن كان ابنه في الفوج مع حميد.

في تلك الفترة كثرت المصادفات التي صار يلاقي فيها رجال البلدة بعضهم بعضاً، وهذا ما أكّد لجدّي أنّ هؤلاء تلقّوا الرسالة التي تلقّاها هو ولا أحد يجرؤ على الإفصاح!

في بادئ الأمر، لم يخبر جدّتي شيئاً. لكنّه عندما رجع بعد أيّام وجدها تنوح، فهم أنّها قد سمعت بما قرأ. كان يمكنه تكذيب ذلك لولا أنّ الخبر قد شاع في المدينة: «الفوج الأخير من المجنّدين فرّ من العسكريّة».

إلى أين؟!

العلم عند الله!

لكن، سيتأكّد للناس الخبر. سيقرؤه المدرّس محسن غزال في «الجرنال». سيأتي هذا حاملاً الصحيفة يرافقه بعض الرجال. ومن متجره سيراهم جدّي متّجهين إليه. من كان ابنه من المجنّدين، ومن لم يكن...جاء ليصغي إلى المدرّس محسن غزال يقرأ عليهم الخبر المذهل! الفوج كلّه هرب، وأفراده التحقوا بالمتمرّد الشهير «نصري».

ألطف يا ربّ العالمين!

كلمة نصري وحدها توقف شعر الرأس! لا أحد يجهل الثائر الذي صار أشهر من نار على علم. من أكثر المتمرّدين على السلطة العثمانيّة بأساً. ذاع صيته وطارت أخباره في البلاد. طُلب رأسه لقاء مكافآت تزداد إغراء يوماً عن يوم. خارج على القانون! متّهم بخيانة السلطنة وبارتكاب جرائم قتل، سلب ونهب...

على أنّ أقوال مناصريه تنفي تلك الإشاعات: شجاع يقود ثورة ضدّ الظلم. ينتصر للضعيف والمقهور. كسب ثقة كلّ من عرفه في جبل عامل، وشعبيّته في ازدياد. صار مرجعاً يحتكم إليه الناس، احتكامهم إلى قاضي عدل. لا يملك سوى الملابس التي على بدنه. وأنصاره مثله أشدّاء متقشّفون، وهبوا حياتهم لنصرة المظلومين، أمثال هؤلاء المراهقين الذين يساقون إلى الحروب، لا لشيء إلّا للدفاع عن سلطنة لا تكنّ لأهل البلاد سوى الضغينة.

أهالي المجنّدين يتساءلون: «من أين لهؤلاء الشبّان الذين لم يبارح الواحد منهم الحارة التي ولد فيها... أن يعرفوا نصري؟»!

أهالي المجنّدين، أصيبوا بذاك الشعور الملتبس الذي يعصف به النقيض والنقيض. كانت رغبة كلّ أمّ منهم، وكلّ أب، في أن يريا ابنهما عائداً إليهما، توازي رهبتهما من تلك العودة. كيف لا والفارّ يلاقي بئس المصير، فكيف لو كانت غايته الالتحاق بنصري؟! يا

ربِّ لطفك ورضاك! تهتف جدّتي وهي تذرع الدار ذهاباً وإياباً. يا ربِّ ارحم عبدتك أمّ «وهبي». يا ربِّ احمِ ابنها حميداً وأعد كلّ غائب إلى أمّه سالماً.

* * *

في فصول البطولات التي تُروى عن نصري، اندرجت حكاية هؤلاء المجنّدين: في الثكنة، والظلام على أشدّه، سمع حميد همساً يأتيه من خلف النافذة: هس... هس... اصحَ يا شابّ. اصحَ يا جدع. اصحَ يا أخي...

ظنّ حميد أنّ النوم الذي يأخذ ابن آدم إلى سابع دنيا قد أخذه إليها، وأنّ أحداً يقطع عليه هناء راحته، أو يعابثه بوعد جميل مستحيل:

«اصحَ يا شابّ! الفرصة من ذهب فلا تفوّتها. قل لرفقائك أن ينهضوا».

راح أبي إلى النافذة. في العتمة تراءت له عينان تلمعان من خلف قضبان الحديد! لعلّ صاحبها هو الشاويش الذي يدرّبهم! القبّعة قبّعة الشاويش، والملابس ملابسه، لكنّ معالم الوجه مختلفة! الشابّ من خلف القضبان يوشوش:

- جئنا نخلّصكم من سفر برلك.

- ومن أنتم؟

- نحن رجال نصري.

يا ربّ العالمين!

- لا تخف، قال طيف الشابّ. ما يشاع عن نصري افتراء. نصري ليس بمجرم كما يزعمون، بل ثائر يطلب العدل. بلّغ رفقاءك، من يرغب منكم في الهرب، فليلبس ثيابه العسكريّة ويأتِ ببندقيّته ونحن نتكفّل بالباقي.

خلف طيف الشابّ يتراءى لحميد رجل آخر أكبر سنّاً، يبتسم له ويومئ برأسه، مؤكّداً كلام زميله. لا تخف قال الرجل.

من يرغب منكم في العودة إلى ذويه، نسهّل له الأمر. وهو، حميد، بالتأكيد يرغب في ذلك، لولا أنّ الفرار جريمة. لكنّ سفر برلك شرّ، فلم لا يغامر ويستجيب لدعوة هذين الشابّين؟

راح إلى زميل له، ووشوش في أذنه العبارة. هبّ هذا من رقاده. راح وهمس بدوره في أذن زميل آخر... وهكذا في غضون دقائق كان شبّان العنبر، في الظلام الدامس، قد هبّوا من رقادهم وراحوا يرتدون ثياب العسكريّة، فيما الرجلان في الخارج ينشران الحديد. دقائق وكان سلّم صغير قد أنزل إلى الغرفة «وأوب»... تسلّق أبي السلّم.

«يا جدع إبلع بطنك. كوّر كتفيك. أعبر الطاقة». و«أوب»... صار حميد في الخارج.

شبّان العنبر، جميعاً، تسلّلوا في عتمة الليل بالملابس التي ستموّه فرارهم المنظّم إلى حين أن يصلوا.

إلى أين يصلون؟

لا أحد منهم يعلم.

قيل لهم إنّهم غير مطالبين إلّا بتسليم البنادق والزيّ العسكريّ. سيعطون ملابس عاديّة غيرها. من منهم يفضّل الانضمام إلى جماعة نصري، فعلى الرحب والسعة. ومن كان لا يرغب في هذا فالله معه.

- وأنت يا شابّ. ما اسمك؟

- «عبد الحميد» نعمة، ولا معيل لأبويّ غيري.

- أنت حرّ.

نعم هو حرّ! ولكن ما نفع حرّيّة تقودك إلى الهلاك! من المؤكّد أنّ السلطات ستبحث عنهم، وقد يحكم عليهم بجرم الفرار وتُعلّق مشانقهم في ساحة صور.

* * *

بعد انقضاء شهور على هذا الفرار، انتهت الحرب الكونيّة. ستُطوى صفحة الماضي. سينسى حميد الأناشيد التي أنشدها على مقاعد الدراسة للسلطان محمّد رشاد. الناس جميعاً سيطوون صفحة

عصر كان في خلدهم من عصور الظلام. مثلما ينسى مصاب يداً له قطعت في المعركة، سيقطعون صلتهم بالعهد العثمانيّ. الصلة المعذّبة التي عاشوها وعاشها أسلافهم منذ أكثر من أربعمئة سنة. مَن كان منهم فرحاً بقدوم الأجانب، ومن لم يكن. سينسون، وفي خلدهم أنّ الأتراك كانوا المسؤولين عن البؤس الذي عاشته البلاد. السنّة يقولون إنّ الترك لا يحبّون العرب. والشيعة يضيفون على ذلك كره العثمانيّين البيّن لهم: في توزيع المسؤوليّات والتجنيد والضرائب، يأتون في طليعة المسلمين، وفي الامتيازات يغفل وجودهم تماماً! على وضعهم الملتبس، يفضّلون وضع المسيحيّين. لهؤلاء، على الأقلّ، امتيازات ودول تقف وراءهم.

أهالي الفارّين ينتظرون عودتهم. لا يعرفون أأحياء هم أم صاروا في عداد الموتى أو المفقودين؟ لقي جدّي مصادفة رجلاً قيل له إنّه كان شاويشاً في العسكريّة التركيّة. راح إليه وسلّم عليه. ثمّ بعد السلام جاء الكلام. وسأل جدّي بلامبالاة كاذبة عن الحادثة التي سمع الناس بها: فرار المجنّدين المراهقين...

- يا أخي يمكنك أن تسأل صراحة، فالعهد العثمانيّ انتهى. هؤلاء الصبية... آه لو تعلم كم فرحت حين علمت بفرارهم. وكم فرح ضابط الثكنة بذلك. صبيان... جاؤوا ومعهم، هل تتصوّر؟! لُعَب: «كلل وبلابل ونقيّفات»!

الحكاية التي صنعها جدّي مع أقرانه ودرّبوا المراهقين عليها،

سيسمعها من الشاويش. وهذا يقول: «إستدعاني الضابط إلى مكتبه يخبرني كما لو كان يبشّرني. ثمّ، خبط سطح المكتب وصاح: ستبحث عن هؤلاء الفارّين وتعيدهم مهما كان الثمن. مفهوم؟!

- مفهوم يا حضرة الضابط.

وبصوت خفيض أضاف: مفهوم حتماً. لكن... إيّاك. إن رأيت وجوه هؤلاء الصغار أن تخبر أحداً غيري، مفهوم؟..

قال الشاويش هذا وقهقه. جدّي، مجاراة له، ضحك ثمّ سأل:

- «يا حضرة الشاويش..هل سمعت شيئاً عن ابني «عبد الحميد»؟

- حميد نعمة؟

- أيوه؟

- كان على رأس الهاربين!

- وأين هو الآن؟

- يقال إنّ الهاربين جميعاً انضووا تحت لواء نصري.

راح جدّي إلى دكّان الحاجّ توفيق. وهذا لم يكن وحده. إبنه كان يقف معه يعمل! يا سبحان الله، تقول توأم أخيه «مالك»:

- لا يا عمّ، أنا مالك نفسه.

- مالك؟!

أخذه جدّي في الأحضان، قبّله وهو يبكي ويسأله عن حميد.

- آخر مرّة رأيته يوم هربنا. كنت أنا يا عمّ من كتب لكم الرسائل.

ستُعرف فيما بعد حكاية هؤلاء المراهقين: أمضوا شهور الفرار في الخفاء والتنكّر، خرجوا بعدها من المخابئ التي دبّرها لهم الثوّار، وعادوا إلى أهلهم. ستزغرد جدّتي وتفتح «مباركة» لاستقبال المهنّئات، لابسة فستان المخمل «التوتيّ» ذا الصدر المطرّز. أجمل ما خاطته لها الخيّاطة «صبيحة». ستزيّن شعرها بالقرنفل، التسريحة التي تشبه تسريحتها يوم عرسها، والتي تتذكّرها في البهيج من المناسبات. لم تنس أن تكحّل عينيها العسليّتين وتضع أحمر الشفاه والخدّين. ومحلّ الدهشة فاضت نظراتها بالفرح.

حين رآها جدّي ابتسم، تلك الابتسامة التي قلّما تظهر على وجهه، وغازلها بالقول:

- «تتزيّنين لحميد ولا تتزيّنين لي»؟!

أمسكته هي بذراعه لتقول: أسرع في الخروج. ستبدأ المهنّئات بالوصول. اليوم عيد. اليوم سترقص زهيّة وترقص معها كلّ المحبّات.

- رقص وزينة، يا سلام...

منذ سنين... منذ سفر «وهبي» لم تفعل هذا!

* * *

صورة الغائب

كبر أبي، «عبد الحميد»، في بيت نساؤه يندبن مسافراً حبيباً يعجز هو عن تخيّل هيئته. يعرف بالعقل أنّ المسافر أخوه، ولكن، يخيّل له أنّ «وهبي» هو عمّه. فمكانة هذا المسافر ملتبسة في سياق التسلسل، ومقامه في الخيال من مقام الراحلين بلا رجعة! ويسمع من الآخرين شذرات من الحكاية التي قطعت حبل الودّ بين أبيه وأخيه. وسمع أخته ليلى توشوش صديقتها بأنّ «وهبي» أحبّ بنت سمعان القبطيّ، وأنّ المطران كلّم والده فغضب عليه. فخرج هذا من البيت ولم يعد.

ليلى لم تذكر لصديقتها أيّ شيء عن معركة الكرسيّ والكرباج، واكتفت بذكر الصفعات التي تلقّاها «وهبي» من أبيه.

يقال سيرجع. يقال وغد أمّه بأن لا تطول غيبته، لكنّها طالت.

وحين ضجّت الدنيا بحادثة «التايتانيك» تأكّد لحميد أنّ «وهبي» غرق فيها مع من غرق.

لكن من يدري؟ لعلّه نجا؛ فقد كان سبّاحاً ماهراً! لعلّه قطع البحر ووصل إلى الشاطئ، وقد يفاجئهم يوماً بدخوله البيت، وينسى هو وأبوه ما جرى. أخته ليلى ستشرح له ما بعث في نفسه التفاؤل: «وهبي» سافر قبل حادثة التايتانيك بكثير. لكنّ تفاؤله تلاشى! قامت الحرب الكونيّة وما عاد حميد يشطح بأحلامه. من سيجرؤ على ركوب البحر بعد ذلك؟!

غائب!

وكما الموتى، يستحيل أن يلقاه وجهاً لوجه. وحين مرضت أمّه وصارت تهجس بالصورة، زاعمة أنّ لابنها «وهبي» صورة أخذها له المصوّر اسكاف، ونسيت هي نفسها أين خبّأتها، كان هو يتمنّى أن تكون الصورة موجودة بالفعل، لا كما تجيبها ليلى:

«يا أمّي «وهبي» لم يتصوّر. كان في ودّه أن يفعل، لكنّه أجّل ذلك. ثمّ قرّر فجأة السفر. سنطلب إليه أن يرسل لنا صوره من أميركا. إن كان قد تزوّج... حتّى بأجنبيّة! إن كان له منها كما يسمعون، ولد أو أكثر، فليتصوّر وإيّاهم.

ليه لأ؟»

بعد شهرين ونصف الشهر، جاء الردّ والصور التي صارت جدّتي تخبّئها في الخزانة. واعتادت أن تدعو ابنها الصغير ليتفرّج عليها،

كي لا ينسى الوجه الذي رآه آخر مرّة وكان له من العمر سنوات قلائل. وحين اقترح عليها اسكاف فكرته المبتكرة، كادت تطير من الفرح، وقرّرت أن تضرب عرض الحائط بكلّ المحاذير التي قد تغضب زوجها أو تمنع النساء من أن يتصوّرن. يا سبحان الذي هدى ابن آدم إلى اختراع الصور! تحضر لك الغائب وتنطق عنه بالكلام!

في بادئ الأمر تمنّع جدّي عن إمساك صورة «وهبي»، كما طلب إليه اسكاف. قال «أتصوّر لنفسي، لا لهذا الجاحد! إن أردتم أنتم أن ترسلوها له فأرسلوها».

حتّى يوم مماته، لن يغفر لنفسه!

كلّما حدّثوه عن الصورة استعاد في ذهنه ذاك المشهد: «وهبي» يرفع كرسيّ الخيزران بوجهه! للحظة ما خُيّل له أنّ ابنه سيهشّم الكرسيّ على رأسه، ويقضي عليه. لكنّ «وهبي» قال له: «ليس أنا من يضرب أباه. أعطني الكرباج فأعطيَك الكرسيّ لتجلس!».

وضعها أمامه. وامتثل الأب، وجلس مذهولاً غير مصدّق ما يجري. رمى الكرباج على الأرض. رفسه «وهبي» بحذائه رفسة رفعته في الفضاء وأنزلته في حوش الحديقة. لكنّه ما لبث أن راح ولمّه. وبهدوء يأنف أن يفصح عن مكنونه بطريقة أخرى، لفّ جلده حول المقبض: «سأحتفظ به للذكرى»، قال لأبيه. ثمّ أضاف العبارة التي ستبقى محفورة في خاطر كلّ منهما:

- «انظر. تمعّن، فلن ترى هذا الوجه ثانية في حياتك».

والآن تطالبه هذه البلهاء بأن يتصوّر من أجل هذا النذل!

لفرط ما استعطفته زهيّة وابنتاه، عاد جدّي وأذعن. وأخذ لهما اسكاف، هو وجدّتي، اللقطة التي ستحظى بشهرة تضاهي شهرة الرسالة التي كتبتها ليلى. كثيراً ما سيقلّدها الآخرون: هو وهي واقفان يحملان صورة ابنهماالمسافر. ذاك اليوم تأكّد لزهيّة أنّ من شأن هذا الابتكار أن يحنّن قلب «وهبي» فيغفر لأبيه ويرجع.

حميد، لا يملّ من تأمّل الصورة التي تجمع الغائب والحاضرين. إن كان «وهبي» قد تصوّر... فهو إذاً موجود! حيّ! وتبلورت في ذهنه فكرة اللحاق بأخيه. لكنّ الحرب الكونيّة وقعت، وخيّم اليأس على نفوس السكّان، وما عاد يجرؤ، ولا أمّه أيضاً، على أن يفكّر في السفر لا في أن يحلم بعودة المسافر. وتأكّد للمراهق أنّ ذكرى أخيه ستُطوى في دفّات النسيان، وأنّه لو استعاد حكايته في خياله فإنّ هيفعل كمن يستعيد حكاية سمعها من راوٍ، أو شاهدها في صندوق الفرجة. شذرات من هنا، ونتف من هناك؛ تناهت إليه تلك الحكاية التي تسبّبت في هدم آخر أعمدة الوفاق بين أبيه وأخيه.

كان ذات مرّة في رفقة أخته ليلى، وهذه فاجأته بالقول:

«انظر... انظر». هذه هي...

واسترق إلى الشابّة نظرة في اللحظة التي كانت هي أيضاً تسترق

النظر إليه. كان في العاشرة من العمر. وحين كبر ،حكى له أبوه القصّة وجهاً لوجه. كلام رجل لرجل. حكاية أشبه بشكوى. مثلما يحدث أن نشكو لأقران لنا من مسألة، ونحن على ثقة بأنّ هؤلاء يشاطروننا الرأي فيها:

- «كاد يتسبّب بفضيحة، بكارثة للعائلة الفاضلة تلك، بل للطائفة بأسرها. «أدب سيس». هل كان سيقبل هذا على نفسه؟ أو على أخته، لا قدّر الله؟!

يا لغيرة الدين!

ويخطّط لتهريبها! يا إلهي من جنون هذا الولد. من أين ورث الجنون؟!

يتساءل جدّي فيما ينظر إلى زهيّة، السبب في إرث هو بريء منه. «يقال كان لها خال معتوه»! في استعادته الحكاية، يستعيد الأب الغاضب تعبيرها الأوّل، ويقشعرّ لها بدن المراهق، خصوصاً حين يردّد أبوه: «هل كان سيقبل هذا على أخته»؟!

يا إلهي أيّاً منهما يقصد أبوه؟ ليلى؟ زهرة؟

لا قدّر الله، مستحيل!

هكذا تشكّلت ذريعة حميد للسفر. إن كانت ذريعة البكر إهانة تلقّاها من أبيه، فذريعة الأصغر هي إصلاح ما أفسدته الإهانة. هكذا تكفّ أمّه عن البكاء، ووالده عن عضّ أصابع الندم. كانوا قد نجوا

من الحرب ومن المجاعة التي أبادت الكثيرين، وكادت تقضي على البقيّة الباقية، لولا تعاون الناس وتغلّب الإرادة على جور الظروف، مثل إرادة أبيه في العمل. لا بدّ أن يسعى ويجتهد ليكافئ هذا الأب المتفاني. نعم لا بدّ أن يسافر يوم تُتاح له الفرصة، و«يفتح» البحر أبوابه. يسافر... حتّى وإن كان قد غدا لأسرته الرجل الوحيد. هذه الأسرة، يجب أن يفارقها «ليجمع شملها» ويمحو أثر الحكاية المؤلمة التي فكّكت لحمتها.

* * *

بدأت الحكاية يوم كان «وهبي» متّجهاً إلى بيت صديقه حنّا في «حارة المسيحيّين»، كما اعتاد أن يفعل كلّ يوم أحد، ليذهبا معاً إلى الصيد. ذاك النهار، لمح فتاة كان يراها لأوّل مرّة في «الحارة».

رائعة!

لا يدري أجميلة هي للحدّ الذي خُيّل له لحظة مروره بها، أم إنّ انفعاله لرؤيتها رسم له تلك الهيئة التي لن يملّ من استرجاع تقاسيمها، ولا من محاولاته المتكرّرة لرؤية صاحبتها ثانية؟! مروره بالفتاة، هذا الكائن شبه المتخيّل، خطف أنفاسه. لم تكن ترتدي الإزار الأزرق الذي ترتديه مسيحيّات المدينة، والذي هو عديل الزيّ الأسود لدى المسلمات.

كانت ترتدي ملابس بديعة!

إنّها المرّة الأولى التي يرى فيها شابّة تسير في الشارع مرتدية مثيلها: تنّورة ضيّقة الخصر طويلة وواسعة الأطراف تنتهي بالدانتيل. وياقة قميصها كانت من الدانتيل أيضاً، كما أطراف الأكمام. وعلى رأسها غطاء أبيض من التول المشغول، يخفي من شعرها البنّيّ البديع قدر ما يظهر. رأى كلّ هذا بلمح البصر، لتنطبع الصورة النادرة في خياله!

يا سبحان الخالق المصوّر!

لو كانت الملائكة من جنس الإناث، لكانت هذه المخلوقة التي تعبر الشارع من جنس الملائكة.

من تكون هذه يا ترى؟!

بالتأكيد هي غريبة عن البلدة!

لم يفكّر «وهبي» في أن يلحق بالشابّة، وعلى رغم هذا وجد نفسه يمشي وراءها حتّى رآها تدخل كنيسة الكاثوليك. تابع دربه نحو منزل صديقه حنّا، مشغول التفكير. واستحى أن يسأله شيئاً، وإن كان قد أيقن أنّ هذا اللقاء سيشكّل علامة فارقة في حياته. وبعد أن أمضى وقتاً يكاد لا يصغي فيه إلى ما يقوله صديقه، ولا يجيب عن الأسئلة التي سيتوقّف عليها برنامج النهار.

إعتذر وانصرف. سار باتّجاه الكنيسة. بعد قليل ستخرج. سيتبعها ليكتشف المكان الذي تنسكن فيه، أو العائلة التي تنزل ضيفة عليها.

وفي الأيّام التالية، راح يحلم ويخطّط للمرور بالقرب من مسكنها ولكن مرتدياً، لا الملابس البسيطة التي يلبسها في ذهابه إلى الصيد، بل «الطقم الإفرنجيّ» الذي فصّله له الخيّاط بهيج، ولبسه يوم زفاف خاله رامز، وصار بين الحين والآخر يزهو أمام معارفه بالأناقة التي يضفيها «الطقم» عليه، والذي يبدو فيه مثل «ولاد الإفرنج»، هو الوسيم ذو الشعر الأشقر المتموّج، والعينين العسليّتين الخلاّبتين!

الفتاة التي راق لها «تمايل» الشابّ الوسيم الأنيق، صارت تذهب وحدها إلى الكنيسة، وتستفسر سرّاً عن فتى أحلامها، فيقال لها

ظريف اللسان، ذكيّ، طموح، لكن الحظّ لم يحالفه بعد.

سيحالفه إن شاءالله، فكّرت بهيّة!

لكنّه مسلم!

مسلم؟!

نعم مسلم.

وقالت هي في نفسها: مسلم شابّ وتحبّه، خير من مسيحيّ كهل ستجبر على زواجها به.

ثمّ طارت شائعات تهمس بالمكاتبة بينها وبين «وهبي» ابن

التاجر حسين نعمة. شائعات تقول إنّ «وهبي» «يتمايل» لها، وإنّه بات يُخشى من أفظع الاحتمالات: أن «ينزع» صيتها وهي عروس مقبلة على الزواج.

* * *



سفينة حميد

ابن الثامنة عشرة، يتهيّأ للسفر. الدنيا لم تبخل عليه في جعل الحلم واقعاً: أن يغادر العائلة ليصلح بينها! سيطمئن أمه إلى أنّ غيبته لن تطول، وأنّه سيرجع لها برفقة «وهبي». لسماعها اسم ابنها الغائب، تبتسم جدّتي ابتسامة يراها جدّي أشبه بابتسامة معتوهين. لن تلبث الابتسامة أن تتوارى، ويتجهّم وجهها. ترفع ذراعيها إلى السماء وتبتهل.

حميد يشركها في التفاصيل: يا أمّي، في الباخرة لا يحتاج

المسافر إلى شيء في الباخرة غرف صغيرة وأسرّة مريحة. لكلّ سريره ودرفة خزانته. على الأرجح أنّه سيقاسمه غرفته مسافر آخر، شابٌ من صور يقصد الذهاب إلى السنغال من عائلة «هلال».

زهيّة تعجز عن تصوّر جغرافيّة البلدان التي سيمرّ بها حميد. مهما قيل لها عن عمران أوروبّا وأميركا، تتخيّلها قاحلة موحشة! تنتهي إلى بحر أكبر بكثير من بحر صور وفلسطين معاً، محيط يجدر بالباخرة التي ستقلّ ابنها أن تجتازه شهوراً، لتصل إلى نيويورك حيث يعيش أخوه «وهبي».

ويحدّثها حميد عن الأوراق وجواز السفر، ولكنّه يخبّئ عنها أشياء: سيلقّحونهم قبل صعودهم إلى الباخرة، ضدّ الأمراض: الحمّى الصفراء وحمّيات أخرى. لا يعلم أحماية لهم يفعلون هذا، أم لأهل أميركا؟ هناك أيضا مسألة «التراخوما» التي يسمع بها لأوّل مرّة. لن يأذنوا لأيّ مسافر بالدخول، ما لم يثبت الفحص خلوّ عينيه منها.

- «ما هذه»؟.

- «يقال مرض في العيون منتشر في بلدان البحر المتوسّط».

لا يدري حميد أيعاني هذا المرض؟ فهو لا يشعر بشيء، ونظره عشرة على عشرة. لكن، ماذا لو كان مريضاً به؟ لو منع من دخول أميركا؟ تكون مصاريف الرحلة والأحلام كلّها قد طارت في مهبّ الريح!

كان والده في آخر زيارة له إلى حيفا، قد اشترى له الحقيبة التي

سيحملها في الرحلة. أمّه تولّت ترتيب الملابس وإعداد الزاد. ما سبق أن هيّأته ل«وهبي» في الخفاء، تهيّئ مثيله لحميد في العلن، بإشراف زوجها حسين: زعتر وكشك ولحم قاورما ولبنة حليب ماعز مكبوسة بزيت الزيتون، وغيرها من الأجبان، أضف إليها التين المجفّف والتمر والعسل والمكسّرات. جدّتي تحادث نفسها: مهما كان الطعام في الباخرة رديئاً... فسيكون لدى ابنها ما يعوّض. وحتماً لم تنس أن تضع له في أكياس صغيرة من قماش «الخام»، مجموعة من الأعشاب والزهورات المفيدة للوقاية من نزلات البرد وعلاجها.

شقيقتاه، ليلى وزهرة، أحضرتا ما لديهما من علب لرصّ المأكولات، بحسب نظام يسهّل على أخيهما استهلاكها. هذا الصندوق لعلب الرحلة القصيرة بين بيروت ومارسيليا. وذاك للرحلة الطويلة بين فرنسا وأميركا. الاستعدادات التي يشوبها الحزن، تتّسم بما يشبه الفرح. فسفر حميد لا يعدو كونه رحلة موقّتة ستحقّق الحلم الغالي على قلوب هؤلاء النسوة المنهمكات بها: إعادة المهاجر «وهبي».

زهيّة محتارة في أمرها! في ودّها الطلب إلى حميد أن يتصوّر قبل السفر، لكنّ خشيتها أن تكون الصورة رمز فراق نهائيّ، تعادل رغبتها في أن ترى وجه ابنها الغائب كلّما اشتاقت إليه... لن تطول حيرة جدّتي، فابنها من تلقاء نفسه سيتصوّر، «بالطقم الإفرنجيّ» الجديد الذي فصّله له الخيّاط جريس، من جوخ «الهيلد»

الإنكليزيّ، مخصَّصاً للرحلة. في هذه الملابس، ستبدو قامته أكثر انتصاباً، وسيبدو هو أكثر تأنّقاً، في نظر نفسه على الأقلّ، وفي نظر أمّه بالتأكيد. على رغم ذلك، أصرّ على أن يحمل معه ملابسه من الزيّ اللبنانيّ التقليديّ، الملابس التي تقوم أمّه بتنظيفها وكيّها، ليبدو ابنها على الدوام في أبهى حال.

في مروره «بالسرايا» الحكوميّ، لقي حميد ضابطاً يحمل خريطة يتأمّل خطوطها. إستأذنه بالسؤال عن قناة السويس. يقال اختصرت المسافات. نظر إليه الضابط بإكبار من يصغي إلى مكتشف نظريّة أرخميدس.

- بارك الله بك يا بنيّ. كم لك من العمر؟

- ١٨ سنة.

- وما داعي اهتمامك بالأمر ؟

- أتهيّأ للسفر. سألحق بأخ لي في المهجر. يقال إنّ البواخر تمرّ في قناة السويس في مصر، لكنّ عقلي لا يصدّق هذا.

- إلى أين أنت مسافر يا بنيّ؟

- إلى أميركا.

- لا. لا أظنّكم ستمرّون بقناة السويس. تعال أُرِكَ الخريطة. نحن هنا، وهناك تقع قناة السويس. الذاهب إلى الهند أو بعض مناطق أفريقيا يمرّ فيها. لكنّ دربكم سيكون شمالاً باتّجاه تركيا

نحو أوروبّا. ستمرّون بمختلف البلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسّط، ثمّ تخرجون من مضيق جبل طارق غرباً، باتّجاه الأطلسيّ. الطريق التي عبرها الأجداد في فتحهم الأندلس. «البحر أمامكم والعدوّ وراءكم» قال طارق بن زياد لعساكره في خطبته الشهيرة.

ألم تسمع بها؟!

كان حميد قد سمع بالخطبة التي يتداولها الناس حين يفتخرون بأمجاد العرب. لكنّه أحبّ سماعها من فم الضابط، وكرّرها ليؤكّد لهذا إعجابه.

- بارك الله بك يا بنيّ. ما اسمك ؟

- حميد نعمة.

- من أين أنت ؟

- من صور ؟

- والأصل ؟

- أصل عائلتنا من بلدة حبّوش.

- بارك الله. رحم الله الشيخ عبدالله نعمة.

- إنّه أخو جدّي.

- بارك الله. أنا خدمت طويلاً في المنطقة، وصرت أعرف تاريخ عائلاتها. أناس طيّبون.

- أنت الأطيب يا حضرة الضابط.

- إطمئنّ يا بنيّ. لن تمرّوا بالسويس. لكن نحن سنمرّ بها.

- أنت أيضاً مهاجر يا حضرة الضابط؟

- بل مسافر. أنا من جبل لبنان. دخلت السلك العسكريّ الفرنسيّ. سيأخذوننا إلى بلد صوب الهند. يقال إنّه بلد رائع. أنظر. هنا. لو أردت شراء خريطة فستجدها في بيروت. في مكتبة في ساحة الحرّيّة.

- أشكرك يا حضرة الضابط، فقد نوّرت عقلي. وفّقك الله في رحلتك. سأطلب إلى أمّي أن تدعو لك في صلواتها، بالخير والتوفيق.

- ما من صلوات أبلغ من صلوات الأمّهات! أبواب السماء لهمسها تفتح!

كلام الضابط كان أوّل درس جغرافية يفهمه حميد بلا معاناة. لعنة الله على قسوة المدرّسين. الكلمة لديهم لم تكن تخرج إلّا وقضيب الرمّان رفيقها. لسعاته تكوي الكفّين، تطيش الصواب. هل كان سيبقى في النفس متّسع للعلم؟ ليته لقي أمثال هذا الضابط كلّ يوم، ليسأله أشياء عن الرحلات وخرائط الإبحار. الدنيا هذه لا تبخل، لا بدّ أنّه في دربه الطويل سيلقى أمثاله. سيتعرّف بأناس جدد، ركّاب جاؤوا من مختلف المناطق والبلاد، ليمرّوا بفرنسا قبل أن يتفرّقوا ثانية.

ما إن تصعد إلى الباخرة وتغدو فرداً من مسافريها، يصبح هؤلاء أخوتك في الممكن، أذنت لك الظروف بأن ترافقهم قبل أن يروح كلّ منكم ثانية في حال سبيله. الباخرة هي أرضكم، رحلتها دنياكم، وسكّانها رفاق في المصير تواجه وإيّاهم مختلف الاحتمالات. على متنها ستتبادلون معاً الأحاديث والمشاريع. سيحكي كلّ منكم قصّته ويرسم وجهته وغاية سفره. وستكتشف بعد قليل أنّهم مختلفون، شأن أقرانهم الذين لم يغادروا اليابسة. منهم الطيّب ومنهم الخبيث، الحذق، الملعون أو الظريف، ظرف العمّ صليبا القطّان. هو جبليّ اللهجة واللسان، لا يفوّت فرصة لا يضحك فيها ويُضحك من كان حوله. في جعبته كنز من الحكايات.أين والده هو من هذا العمّ! أشدّ المواقف صعوبة يحوّلها إلى هزل! فكيف الحال وكلّ ما يمرّون به استثنائيّ، وكلّ ما يرونه فريد؟!

منذ أن لقيه، وعلى رغم الفارق في السنّ والطباع، انجذب حميد إلى العمّ صليبا، وهذا أيضاً انجذب إليه. يرى فيه مثالاً لشبّان القرن العشرين. الوعي والجرأة مجتمعان في ابن مدارس مؤدّب خلوق، يلعب بطاولة «الزهر» ويأنف من اللعب بالورق.

- ما اسمك أيّها الشابّ؟

- حميد نعمة.

- إلى أين أنت ذاهب، في نهاية المطاف...؟

- إلى نيويورك. صديق أخي ينتظرني في مرسيليا. سنتابع الرحلة معاً إلى أميركا.

يحدث أن يخرج العمّ صليبا بمفرده إلى سطح الباخرة، فيروح حميد يسلّم عليه. في المطعم ترافقه امرأة من الواضح أنّها زوجته وشابّة من المؤكّد أنّها ابنته. يحترم حميد خصوصيّة الأسرة ويبتعد. كان أكثر ما يحرجه أنّ «كابينته» قريبة من كابينة العائلة الجبليّة هذه. يحرجه أن يلاقي الفتاة في ممرّات الباخرة الضيّقة، أن يسبقه فضوله وتفلت منه نظرة إليها. ويتذكّر عبارة «أدب سيس».

عيب!

ولكن، على سطح الباخرة، والآفاق مفتوحة على منبسط لانهائيّ، يذوب الحرج. على سطحها، يبدو كلّ شيء طبيعيّاً، ما عدا سلوك العمّ صليبا نفسه، الذي يصبح حرّاً في الحديث أكثر ممّا يجب، لأب بحضور ابنته! شابّة صغيرة والدها يمازح رجالاً غرباء في حضورها، مزاحاً، وإن كان لا يخرج عن الحدّ المقبول، إلّا أنّه قد يوحي بالخروج عنه.

«سيدة» زوجة العمّ صليبا على قدر من اللطف، وإن كانت تعامل حميداً بتحفّظ يعزوه هو إلى التزام «الأصول» تجاه شابّ غريب. أمّا جوليا... فكانت تضحك لتهريج والدها، إلّا أنّها سرعان ما تخفض بصرها ويحمرّ خدّاها وتنسحب. من المؤكّد أنّ الشابّة

صارت تنفعل لمروره بها، وهو يخجل أن يعبث بمشاعر فتاة من غير دينه، لا مستقبل له معها في دنيا الواقع.

أنس حميد للعمّ صليبا ولمعاملته إيّاه معاملة رجل لرجل. وأكثر ما استحلى فيه تمسّكه بالزيّ التقليديّ، بل المبالغ في تقليديّته، شأن الطراز الذي يعتدّ به رجال الجبل. سروال شديد الاتّساع تقول نُفخ بمنفاخ! شارباه مفرطان في الطول، مفتولان بالصمغ ومعقوصان لفوق. حين ينهض يبدو ضخم الجثّة وحين يضحك يهتزّ شارباه فوق خدّيه المكتنزين، فيبدو شديد الانشراح. صورة لا تشبه في شيء صورة والده حسين المتجهّم على الدوام. ملابس العمّ التقليديّة شجّعته على أن يحذو حذوه، فصار يخرج بين الحين والآخر بالزيّ اللبنانيّ المخصّص لليافعين من أمثاله: قليل الاتّساع ضيّق الساقين، يضفي على قوامه رشاقة المراهقين، وشملة من الحرير لمّاعة، نبيذيّة أو عسليّة، تجعل الخصر أنحل، وفوقها «جيليه» من قماش «الصاية» ذات حواشٍ مطرّزة بالأبيض أو الذهبيّ. يقال إنّ الملابس هذه كانت في الماضي خاصّة بالأمراء، ثمّ انتشرت ولبستها العامّة. هكذا، بين «طقم إفرنجيّ» «خلنج»، ولباس شرقيّ لا يقلّ عنه إتقاناً، كيف للعمّ صليبا ألّا يفتن به؟ بل وكيف للصبيّة جوليا ألّا تفتن به هي أيضاً!

* * *

على رغم متعة الرحلة وعذوبة الخريف، كان حميد مستعجلاً الوصول. الباخرة ليست كالدابّة تسيّرها كما تشاء! أهواء كثيرة تتحكّم بك وبها. الحمدلله، الطقس رائع، الهواء عليل وحركة الإبحار طبيعيّة. لكنّهم أعلنوا عن التأخّر! ما دام الطقس لهذا الحدّ بديعاً، فلم التأخّر؟!

يشيع بعض الركّاب أنّ القبطان ضلّ الطريق.

ما نفع قبطان يضلّ طريقه؟!

يقال إنّ هذا المحنّك، لسبب خاصّ، قد غيّر وجهة السير!

أبي يستشيط غضباً، والعمّ صليبا يحاول تهدئته! كان يمكنهم أن يكونوا الآن على مشارف مرسيليا بدل هذا اللفّ والدوران! ثمّ من يضمن لهم أنّ الباخرة ستتابع رحلتها بحسب الخطّ المرسوم؟ إن كانوا قد كذبوا عليهم مرّة، فقد يكذبون ثانية! من يضمن لهم ألّا يعيدوهم إلى نقطة البداية؟ أن يحدث لهم ما حدث لحليم القبطيّ: سافر ونيّته الهجرة إلى كراكاس، فوجد نفسه في دكار! كثيرون نزلوا في مرافئ لا يقصدونها، ثم انتهى بهم الأمر إلى الإذعان والمكوث في بلد لم يختاروه. وهو لا يسعه الرضوخ، وصديق «وهبي» ينتظره في مرسيليا! لا يهدأ له حال. يتنقّل بين «الكابينة» وسطح الباخرة، والتوتّر بادٍ على وجهه وحركاته:

- ما بك يا حميد لا تهدأ، سأله العمّ صليبا؟ أنا مثلك مستعجل...

- لكن يا عمّ...

- ولم الاستعجال؟ آخر المطاف سينتهي بنا في مرسيليا. إستمتع الآن بالفرجة على البلدان. يا ابني استمتع بفرجة بالمجّان!

وهل تسنح لنا فرصة كهذه كلّ يوم؟!

يضحك ويضيف: من يدري؟ لعلّ البلدان التي سنمرّ بها ستفتح لنا كنوز علي بابا؟! كثيرون تغيّرت حياتهم في محطّات لم يحسبوا لها حساباً. هكذا يا حميد سأوفّيك المبلغ ضعفين. تيقّن يا بنيّ!

العمّ صليبا، يلمح إلى المبلغ الذي استدانه من أبي: حين أعلنوا عن تأخّر الرحلة، خشي العمّ صليبا أن يقصّر في المصروفات الإضافيّة. إلى أن يحطّوا في مارسيليا ويقابل في الفندق قريباً له، قد يضطّر إلى الاستدانة. سمعه أبي يشكو حاله، فعرض عليه أن يقاسمه المبلغ الذي كان يحمله، وهذا وافق.

صليبا يمازح حميداً بالقول:

- تراك مستعجلاً استرداد المبلغ؟ لا تقلق. مغارة علي بابا ستفتح في مراكش. يقال إنّها بلاد ساحرة!

- لا يا عمّ، معاذ الله، وراء استعجالي ظروف. ثمّ لم يكذبون على الناس؟

- فليكذبوا يا ابني...

تنهّد أبي وهو يقول: بالك يا عمّ فاضي وبالي مشغول...

- يا حميد... إذا سنحت الفرصة، لا يجدر بأحد أن ينشغل عن رؤية زاوية من الدنيا التي خلقها الربّ. زوجتي وابنتي ستفرحان بهذا التأخير. وهل يتسنّى لأمثالنا كلّ يوم أن نزور مصر التي يقال عنها أمّ الدنيا!؟ وبلاد المغرب التي توصف بأنّها بلاد ألف ليلة وليلة؟!

لاحقين على همّ الشغل.

الحقيقة التي لم يُكشف عنها للركّاب، والتي بلغت هؤلاء بصورة متقطّعة، هي أنّ أحد المسافرين من ذوي المقام الرفيع، ولعلّه من ذوي المناصب السياسيّة، مضطرّ إلى المرور بالمغرب قبل أن يتابع دربه إلى مرسيليا. يقال إنّه مكلّف بمهمّة رسميّة طارئة، وكانت هذه الباخرة أسرع وسيلة للوصول.

يحاول حميد أن يسترجع في خياله الخريطة التي رآها مع الضابط في السرايا الحكوميّ في صور، ليفهم جيّداً خطّ سيرهم، وكم من الوقت سيضيّعون في الدرب الملتوي؟

وقال أحد معاوني القبطان إنّ الطريق ليست في واقع الأمر أطول بكثير. بيروت هنا. أشار إلى مكان وهميّ هو منتصف الضفّة الشرقيّة للبحر المتوسّط. وبدل أن تتّجه الباخرة شمالاً نحو تركيا، وتكمل دربها وصولاً إلى مرسيليا، اتّجهت جنوباً عن طريق فلسطين، مروراً بالإسكندريّة ثمّ بنغازي. هذا كلّ شيء. ثمّ، بعد أن تعبر الجزائر

وتونس تصل إلى المغرب، على بعد خطوات من مضيق جبل طارق، المضيق الذي تخرج منه السفن إلى المحيط الأطلسيّ باتّجاه أميركا.

- «يا إلهي! ألن تمرّ إذاً بمارسيليا»؟!

- لا تقلق يا بنيّ. الباخرة بالتأكيد ستعود إلى مرسيليا. كيف لا والسياسيّ المتنفّذ سينزل فيها...ليستجمّ؟!».

كان لاستعجال أبي سبب آخر غير زهده بالفرجة على بلدان العالم، خشيته أن تضيع عليه الفرصة التي حدّثه بها أخوه في رسالته الأخيرة: صديق له سيرجع من مرسيليا إلى نيويورك. فرصة ممتازة ليسافر بمعيّته. من الأفضل له، كمهاجر غير شرعيّ، أن لا يدخل أميركا بمفرده. الأحوال تغيّرت كثيراً عمّا كانت عليه. والرقابة، إزاء تهافت المهاجرين بعد انتهاء الحرب، والخوف من «التراخوما»، تتزايد يوماً بعد يوم.

دوّن له «وهبي» عنوان الفندق الذي سينزل فيه والذي يعرفه جميع العرب في مارسيليا: «لا تقلق يا أخي العزيز، يقول «وهبي» في رسالته، أصحاب الفندق من أهل جبالنا، يذهبون إلى المرفأ لاستقبال كلّ باخرة آتية من بلاد الشام. ويدعون ركّابها للنزول عندهم. بقيّة التفاصيل يخبرك بها النحلاوي حين تلقاه».

حسنٌ! صديق أخيه سيغدو صديقاً له، وبرفقته سيدخل مرفأ نيويورك.

لو كانت جدّتي تعلم بالخطّة التي يخبّئها، «وهبي»، حتّى عن حميد نفسه، لطارت من الفرح. «وهبي» سيذهب بنفسه لاستقبال أخيه في مارسيليا. لكنّ مثل هذا المشروع لم يكن قد حسم تماماً. لا لأنّ «وهبي» متردّد، بل لخشيته أن تعاكس الظروف النوايا، ويكون قد أعطى أخاه وعداً كاذباً. سيترك المسألة مفاجأة. سيقف عند رصيف المرفأ ويبحث عن أخيه بين الوجوه، ومن المؤكّد أنه سيتعرّف الشابَّ الذي حين فارقه كان طفلاً.

والعمّ صليبا يكرّر:

- «فلنستمتع يا بنيّ. لعلّها فرصة يتيمة سنلازم من بعدها أماكننا على اليابسة، منكبّين على عمل لا نعرف ماذا سيكون».

يقول هذا، فيما في سرّه يفكّر: «حميد نعمة أخوه «وهبي». لا شكّ في أنّه مسيحيّ، مسيحيّ بالتأكيد، فهو يلبس الزيّ الإفرنجيّ الذي يتباهى بلبسه مسيحيّو المدن».

- من أين أنت يا بنيّ؟

- من صور.

- بارك الله، مدينة باركها السيّد المسيح!

- وأنت يا عمّ هل قرّرت وجهتك أخيراً ؟

- يا بنيّ كما قلت لك، لقائي ابن خالي في مرسيليا يحدّد كلّ شيء. قد يحطّ بنا الرحال في أفريقيا؛ أو نهاجر إلى البرازيل.

ثمّ ضحك العمّ صليبا ضحكته الممتلئة وقال: من يدري؟ لعلّنا سنركب الباخرة معاً إلى نيويورك؟

فيما كان أبي يتمنّى ذلك... كان العمّ صليبا يقول في نفسه: «هذا شابّ يليق بجوليا. شابّ يستأهل أن يجعله الأب صهراً له».

ويقول لزوجته:

«هذا ابن مدينة بحقّ، ولديه شهامة أهل الجبال! ما إن لاحظ الضائقة التي نخشاها، عرض علينا المساعدة».

يذكّرها بهذا في معرض إقناعها بالشابّ، وبجعله زوج وحيدتهما جوليا.

وتذكّره هي بأنّ ابنتهما مخطوبة!

ذات يوم، سمع حميد الرجل وزوجته يتهامسان.العمّ صليبا يقول لها: «وجه عرفته خير من وجه لم تعرفه بعد».

وهذه تجيب:

- «إنت غلطان».

- «لأ مش غلطان. حميد نعمة، أخوه «وهبي» نعمة، ماذا سيكون؟!»

عجباً! لـمَ يأتيان على ذكر أخيه «وهبي»؟

هل يعرفان «وهبي»؟

هل يخبّئان عنه شيئاً؟

تنبّهت المرأة لوجوده، ارتبكت وسكتت. وأنقذ العمّ صليبا الموقف قائلاً: أهلاً بحميد. طاولة الزهر تنتظر، ما رأيك؟

إن كان لارتباك الابنة ما يبرّره، فمغزى ارتباك صليبا وزوجته المتكرّر سيبقى طيلة الرحلة عصيّاً على التفسير. وذات مرّة، سمعهما يتهامسان بشيء آخر: «الدوطة». يقول لها إنّ أهل الساحل أكثر يسراً منّا نحن أهالي الجبال. يقال كثيرون يعفون العروس من «الدوطة».

صحيح! فكّر حميد! عادات وتقاليد. على من يتكلّمان يا ترى؟! لا يدري.

ولكن عجباً، لـمَ، ولو بصورة غامضة، يشعر أنّه هو المعنيّ بالحديث ؟

الفتاة من جهتها لاحظت اهتمام أهلها بحميد. وكم خجلت حين مازحها أبوها في حضوره بالقول: «قلبي بيحدّثني يا بنتي... وقلب الأب دليلو... قبل أن ننزل من الباخرة سيكون خاتم الخطبة في إصبعك». إذّاك تأكّد لها أنّ أباها قرّر استبدال هذا الشابّ الوسيم بخطيبها. من ناحيتها لم يكن لديها مانع، فهي لا تعرف خطيبها، والشابّ يروق لها. ولولا شكوك أمّها لاندفعت في مشروع والدها الوهميّ الذي يوشوش به لزوجته، وهذه تهزّ رأسها وتزمّ شفتيها بما يوحي بالشكّ!

بماذا؟

بما يجعل حلم صليبا مستحيلاً. يقينها أنّ هذا الشابّ، على رغم صفاته، لن يكون هو الخطيب الذي يبحث عنه صليبا لجوليا. هناك شيء ما يؤكّد لها استحالة المشروع! وذات يوم، وجدت نفسها تهمس: «لعلّه مسلم»!

- «بل إنّه مسلم. بالتأكيد»، تمتمت!

- من هو المسلم؟ سألها زوجها؟

- صهرك حميد!

- أسكتي. من قال لك هذا؟

- حميد... اسم مسلم؟! يا لذكاء النساء! إبن خالي اسمه حميد.

- لكنّ هذا ليس ابن خالك، واسمه حميد ومسلم.

- وما أدراك أنت بديانته؟

- لاحظ... لا يأكل لحم الخنزير، ولا يشرب الكحول، وما هتف مرّة باسم الصليب أو باسم يسوع الربّ، أو حتّى باسم العذراء. ماذا تكون ديانته؟!

- صحيح... قال صليبا هازّاً رأسه، فيما خيبة الأمل ترتسم على وجهه!

كلام زوجته جعله «يفرمل» مشروعه، وحوّل جوليا إلى فتاة

صامتة وعلى قدر من الحزن. ستنزع الخاتم الوهميّ الذي ألبسها إيّاه أبوها المتهوّر. لا تجرؤ على القول لأمّها: «حتّى ولو كان مسلماً، فلعلّه يتنصّر»!

الموقف الصعب تورّط فيه «وهبي»، أدرك حميد من بدء الرحلة محاذيره. لا يدري هل هو أحبّ جوليا؟!

لكنّ الاسم في حدّ ذاته فاتن!

وملبس الفتاة على بساطته بديع!

وجمالها لا يخفى على ناظر! لا ريب في أنّه قد انجذب إليها. إستحلى ابتسامتها التي تلازمها غمّازتان على خدّيها، وضفيرتيها اللتين تنزلان من تحت «الإيشارب» وتلمعان في ضوء الشمس بلون الشهد. لعلّ عاطفة ما غامضة تجاه هذه الفتاة ذات الحياء، قد ترعرعت في صدره على سطح الباخرة. لو كانت مسلمة لفكّر في الزواج بها. ولكن ليس هو من يغدر بأبيه!

في مارسيليا، سيضحك العمّ صليبا كثيراً للحلم الذي راوده، ولن يخجله أن يخبر به صاحب العلاقة. صهره المفترض يدعى ببساطة: حميد حسين نعمة.

- «يا أخي... لمَ لم تقل من أوّل الدرب إنّ اسم الوالد حسين؟!»

ترى، أين انتهى بهؤلاء المطاف؟!

لعقود طويلة مقبلة، سيظلّ حميد يفكّر في هذه العائلة التي سار وإيّاها شوطاً من رحلته. لم يكن يتوقّع أنّه سيكتشف ذلك بنفسه. بعد انقضاء عقود على رحلة مرسيليا، سيصادف جوليا في شاطئ العاج. سيهتف للّقاء: جوليا.

ولسانه سيقول بلهجة تراوح بين السؤال والجواب:

- «مدام جوليا؟»

- «نعم. كيف عرفت اسمي. وأنت، يا مسيو، من تكون ؟»

- «أنا؟»

سيصيبه حزن للتغيّر الذي لحق بهذه الفتاة! في رحلة الباخرة مع والديها، كانت تبدو مثل وردة تتفتّح. وهي الآن تقف قبالته في محلّ «النوفوتيه» كأنّها مخلوقة امرأة أخرى! هندامها، والهمّ البادي على وجهها لا يدلّان على أنّها عاشت حياة سعيدة، أو أنّها عرفت الرفاه. ألقت عليه عينين ذابلتين ونظرة استغراب ووجد نفسه يقول:

- أنا... حميد. ألا تذكرين حميداً؟

لم يبدُ أنّ ذاكرة المرأة قد أحضرت لها شيئاً ما ذا صلة به! وبادر هو إلى الإيضاح:

- رحلة الباخرة بين بيروت ومارسيليا؟ نسيتها؟

سيلزم جوليا برهة لتتذكّر:

- «آه! قالت وهي ترفع كفّها إلى جبينها. تذكّرت. يا إلهي! وأنت في حينه إلى أين ذهبت؟

- في حينه... إلى نيويورك.

* * *



مرفأ مارسيليا ١٩٠٠

توائم البحر!

فيما كانت الباخرة الآتية من شرق المتوسّط، «تراوغ» في الدرب بين بيروت ومرسيليا، كانت الأميركيّة «دوللي» تمخر مياه الأطلسيّ، تأهّباً لعبور المضيق باتّجاه أوروبّا، حاملة على متنها مئات المسافرين، ومن بين هؤلاء «وهبي» نعمة. فالمهاجر اللبنانيّ استصعب أن يترك أخاه اليافع يواجه مشقّة الهجرة غير الشرعيّة بمفرده. «وهبي»، بعد التجارب الكثيرة التي عاشها، وتجارب أخرى سمع بها، سيعرف كيف يسوّي الأمور. منذ صعوده إلى الباخرة

وهو يخطّط للتعرّف بمعاون القبطان. حسنٌ! لقد تمكّن من لقائه. يُدعى «ماركو». أنِس هذا إليه وصار يدعوه للتسامر أو للعب بالورق أو «كش ملك» الشطرنج. «الإنكليزيّة» التي يحكيها هذا التاجر «التركيّ»[1] سهّلت التفاهم بينه وبين معاون القبطان الإيطاليّ. ستتوثّق الصلة بين الرجلين و«التركيّ» سيعرض مسألة أخيه على الإيطاليّ ليسمع منه الحلّ، وهذا سيهزّ رأسه ويقول:

- كلامك يا صديقي مقنع؛ ولكن كيف نقنع به الآخرين؟ للبوليس عيون وآذان لن تلبث أن تكشف أمر أخيك.

- سأترك لكم مهمّة الإقناع.

كان هذا ما قاله «وهبي» لمعاون القبطان، فيما هو يشرب نخبه. نخبك يا صديقي ماركو. قالها فيما كان يناوله مبلغاً على الحساب ويسترسل في الحديث:

- «يا صديقي، في رحلتي من بيروت إلى نيويورك، منذ خمس عشرة سنة، مررت بنابّولي. يا لعظمة بلادكم! لا بدّ لمن يمرّ بها أن يتمنّى لو كان قد ولد فيها. في حقيقة الأمر لم أستمتع في حينه بتلك الرحلة. هل سنتوقّف فيها هذه المرّة؟!

- «فهمت. قال معاون القبطان»، وباله مشغول بمعرفة المبلغ الذي دسّه «السوريّ» المحنّك في يده.

(١) في دخولهم أميركا، كان سكّان بلاد الشام والعرب عموماً، يحملون الهويّة التركيّة، ويعرفون بالأتراك.

- «فهمت. كانت تلك رحلتك الأولى إلى أميركا على ما أظنّ، أليس كذلك»؟

- «برافو يا صديقي. إنّك لعارف جيّداً بأحوال الدنيا وأهلها! تقول إنّك معاون قبطان. ومتى بإذن الربّ ستغدو قبطاناً»؟

قهقه الرجلان بالضحك، فيما كان كلّ منهما يشرب نخب الآخر.

- «يا صديقي التركيّ... حين نرسو في نابّولي سأدعوك لعشاء لذيذ. ستجرّب طعم النبيذ المعتّق في أعرق أديرتها. رحيقه قبل فعله يدوّخ الرأس».

هكذا تمّ الاتّفاق بين الرجلين.

ماركو سيضع «السيناريو»، كما يسمّيه، لدخول «هميد» إلى نيويورك: ما إن يطأ أرض السفينة يُسجّل عاملاً فيها. أيّ عمل لا يحتاج إلى لغة: دهّان. طبّاخ. منظّف صحون. لا يهمّ. مهنة لا أظنّه سيمارسها، لكنّها ستكون الغطاء الضروريّ له على متن الباخرة. إذا ما جاء البوليس يسأل، فسأقول لهم إنّه دهّان. لطالما نقلت البواخر «دهّانين «غدا بعضهم مواطنين أجلاّء في أميركا، أرض الفرص. عسى أن يحالف الحظّ أخاك. إن كان له ذكاؤك وكان من ذوي الطموح، فسيحالفه الحظّ بالتأكيد!

- أرجو ذلك، قال عمّي. شغف التجارة يجري في عروق هذه الأسرة التي خرجنا منها. ليتها كان لها في الدنيا شغف آخر!

- ماذا تقصد؟

- عائلتي عرفت بالجدّيّة، بل بالصرامة. عداوة مستحكمة تقف بينها وبين مباهج الحياة! يملكون روح السخريّة، لكنّهم أعداء المرح والترفيه. يقال إنّهم كانوا في الأصل من رجال الدين...

- لا أحد مثل هؤلاء يعرف كيف يستمتع! في انتظارهم نعيم الآخرة، لا يغفلون أبداً ملذّات الدنيا.

- العائلة التي أخرج منها، ليست، يا للأسف، كذلك...

- ما علينا إذاً سوى تعويض ما فاتنا بسبب الآخرين، قال الإيطاليّ. سأجعلك تلقى القبطان قريباً فهو يحبّ الذوّاقين. سيسرّه لقاؤك أيّها التركيّ. كنّا حلفاء أوّل الحرب، قبل أن تتغيّر الأحوال. لعنة الله على الحروب.

- من المؤكّد أنّ القوى العظمى تابت عنها!

- أرجو ذلك. قال ماركو.

ثمّ راح يشرح لجليسه الحقبة التالية من «السيناريو»، آملاً أن يكون النجاح حليفه!

«سيحالفه بالتأكيد»، كرّر «وهبي» فيما هو يتخيّل لقاءه أخاه في أرض المرفأ، ووقع المفاجأة في نفس اليافع! موقف رجوليّ يملؤه زهواً، ومن شأنه تصحيح الصورة السلبيّة التي رسمها أبوه له في ذهن أخيه!

على أنّ هناك مسألة أخرى تنشرح لها نفس «وهبي». الرحلة هذه ستتيح له زيارة بلاد مرّ بها شابّاً وشبه مفلس. سيراها الآن بعين رجل ناضج وجيب ملآن. لذا، أن يُعلم، حال وصوله، بأنّ الباخرة المبحِرة من بيروت ستتأخّر، وأنّ لديه المزيد من الأيّام يقضيها في فرنسا... فوالله إنّ هذا لنبأ مفرِح! ليس هو المسؤول. الظروف هي التي حاكت. الظروف تعرف أكثر من بني البشر كيف تفصّل لهم برامج يتعذّر عليهم الحلم بها. وإن فعلوا استكثروا على أنفسهم تحقيق ما حلموا به! مثل حلمه أن يلفّ البلاد ويتعرّف بمختلف أصناف العباد. إن وجد الفرصة مناسبة، فسيذهب إلى باريس. والفرصة تبدو أكثر من مناسبة. باخرتهم وصلت قبل موعدها، وتأخّرت تلك الآتية من بيروت! وليس بين مرسيليا وباريس سوى مسافة يوم في القطار. ها هي سكك الحديد تنتظر ركّابها، ولا سيّما الراغبين منهم في التفرّج على العالم! هكذا، سيركب القطار المتّجه إلى عاصمة العواصم، أعظم ما شاد البشر من مدن!

- بكم التذكرة إلى باريس؟

- درجة أولى؟ سياحيّة؟

- كم الفرق؟

- ضعفان.

- إذاً درجة أولى.

لمَ لا وقد تعب من رؤية البؤساء؟!

ركب عمّي القطار المتّجه إلى باريس. قيل الحرب ألحقت بها الأضرار... ولكن، لن يلبث أهلها أن يعيدوا ترميم ما أفسدته تلك! كان في ودّه أن يسأل جليسه في القطار عن المعالم التي يجدر بزائر أن يراها. لكنّ عائق اللغة... لا بأس، فمدير فندق مارسيليا زوّده بعناوين كثيرة مفيدة. وفي باريس سيلاقي عرباً، فيتفاهمون معاً ويدلّونه على ما يبحث عنه. لم يخيّل له أنّ لغة هؤلاء، وإن قلّت صعوبة عن الفرنسيّة تبقى عصيّة على الفهم! «لا باس» كما يقولون، وقد تطوّع أحدهم ودوّن له العناوين: مونمارتر. نوتر دام. برج إيفيل. الحيّ اللاتينيّ. مولان روج. سان دوني. وأماكن لا حصر لها يلزمه وقت طويل ومال غير قليل لزيارتها. سيزور بعضها ويفوّت على نفسه زيارة البعض الآخر.

ما لم يخطر له هو أنّ السياحة ستفوّت عليه اللقاء على أرض المرفأ: الباخرة وصلت ونزل ركّابها وحميد صار في الفندق. سأل عن «النحلاوي» فلم يبدُ على موظّف الاستقبال أنّه قد سمع باسمه من قبل.

ماذا لو لم...؟! تساءل حميد

وحشة ما بعدها وحشة أمسكت بروحه. ليت العمّ صليبا يبقى في مارسيليا لحين أن يغادرها هو! ودهمت رأسه فكرة أخرى طردها في الحال. لكن الفكرة تلحّ عليه:

أن يرجع في الباخرة نفسها إلى بيروت.... لولا خشيته من أن يغدو موضوع تندّر بين الناس لفعل! حكاية تتناقلها الألسن كما سبق أن تناقلت حكاية «أبو عسل» الذي وصل إلى دكار، واستدار عائداً من دون أن ينزل فيها. نعم، لو فعل... فطيلة حياته سيحكي الرجال من على كراسيّهم في المقهى، قصّته! والنسوة والجدّات يسلّين أولادهنّ بحكاية الشابّ حميد نعمة الذي استصعب «الفراق» وعاد القهقرى من دون أن يطأ أرض البلاد التي كان ينوي الهجرة إليها! تراوده مثل هذه الفِكَر المزعجة، فيما «وهبي» يتساءل عن أخيه حميد.

كيف صار يا ترى؟

وأيّاً من رجال العائلة يشبه؟

أباه، جدّه أم خاله؟

أم لعلّه كما كان في صغره، يشبه أمّه؟ زهيّة أبو صالح.

يا إلهي كم هو مشتاق إلى رؤية وجهها البديع!

* * *

موظّف الاستقبال استدعى حميد نعمة لمقابلة شخص ما ينتظره تحت في الصالون. الشابّ الذي ينتظر اللقاء منذ البارحة.

نزل مهرولاً، وأشار الموظّف إلى رجل يقف غير بعيد. راح إليه حميد وسلّم عليه:

- السيّد إبراهيم نحلة؟ سأل حميد الرجل الواقف قبالته، فيما انفعال غريب أمسك بروحه: «يا إلهي كم يشبه هذا أخاه «وهبي» في الصورة»!

- أنت السيّد إبراهيم نحلة، أليس كذلك؟

- ما رأيك أنت ؟

- رأيي؟

- نعم... رأيك في هذا الواقف قبالتك؟ إذا ما كنتُ شخصاً آخر غير إبراهيم نحلة، فمن تراني أكون؟

كاد حميد يقع في أرضه وهو يعانق أخاه. يعانقه فيما طيف أمّه يشهد لقاء ولدين تعبدهما، جمعتهما الأقدار في أرض مرسيليا.

سينتظران فيها فترة غير قصيرة ليبحرا ثانية. فترة بدا كلّ منهما، أثناءها، قلقاً. حميد لا يملك أيّ فكرة عن صواب الخطّة التي رسمها له أخوه ومعاون القبطان. وهذا لا ينفي احتمال أن لا تأذن له دائرة الجوازات بالدخول:

- «كلّ الاحتمالات واردة يا أخي! لا تكن متشائماً مثل أبيك. على الأرجح أنّ معاون القبطان، سيتدبّر الأمر! وعدني بذلك. لن

يتراجع بكلامه، ونصف المبلغ في انتظاره! على أيّ حال، أمامنا وقت... قد نمكث أكثر من شهرين في مدينة تعتبر الثانية في فرنسا».

نعم، فليسعد قلب أخيه، هذا المسكين الذي لم تحمله الدابّة إلى أبعد من عكّا! سيجعله يكتشف من العالم أرقى ما وصلت إليه المدنيّة. سيجعله يتحسّر على الأيّام التي أمضاها في صور، في بلاد الشام، بل في الشرق بأسره! أوروبّا هذه عرفت الحضارة، وأميركا ترتع في الرفاه.

هنيئاً لمن وطئ هذه البلاد!

صحيح أنّ أوروبّا نُكبت بحرب، غير أنّ حكّامها، بعد أن رأوا نتائج فعلهم الشيطانيّ، قد ثابوا بالتأكيد إلى رشدهم. «يا أخي، إنّها فرصة لنتعرّف بها الناسَ في مرسيليا. يقال إنّ فيها كثيراً من العرب المغاربة و...» وهتف حميد بما سيقهقه له «وهبي»: بما أنّ الإقامة ستطول... فلم لا نجد لأنفسنا عملاً موقّتاً فيها؟!

* * *



أرض الأحلام

بعد أسابيع من الإبحار، وصلت الباخرة دوللي إلى ميناء نيويورك، ونزل ركّابها جميعاً، ومن بينهم «وهبي» نعمة. راكب واحد تخلّف عن النزول: حميد. في غمار قلقه، كان يتدّرب على الدور الذي سيقوم به، يغنّي الأغنية الأثيرة لديه، والتي يرتعش لها الصوت مموّهاً الأسباب. بين لحظة وأخرى سيتقرّر مصيره! ماركو يقول: يلزم ذلك ثلاثة أيّام. تذكّر. في اليوم الثالث ستغادرنا نهائيّاً. ستغدو مواطناً في أميركا يبحث عن أوراق شرعيّة. العبارة التي

يقولها بفرح معاون القبطان، تصيبه هو بالضيق، ضيق ازداد حين صعد رجال الأمن والجمارك إلى الباخرة.

تقدّم أحدهم من شابّ جالس على سطحها يدير ظهره للمدخل، يتأمّل البحر أمامه، ويصفر أغنية تحمل من الشجن ما سينتقل إلى موظّف الأمن، حتّى وإن كان اللحن غريباً عنه. سيتقدّم الموظّف من الشابّ ويسأله:

إسمك؟

موطنك؟

ويسأله عن سبب وجوده في السفينة؟ ماذا يعمل؟

وفي جمل تعلّمها على متن الباخرة بين مرسيليا ونيويورك، وإشارات من يديه ووجهه تشرّبها منذ نعومة أظافره، سيقدّم حميد ما عليه تقديمه من أجوبة مقنعة. سيُعجَب معاون القبطان بموهبته في التمثيل ويكاد يرفع له إشارة النصر، لولا خشيته من انكشاف اللعبة. سيتمكّن حميد من أن يشرح للموظّف ما ينتظر هذا سماعه:

«إسمي حميد نعمة، سوريّ من بلاد تركيا.

- أنا عامل دهان مثل أبي.

- ومن هو أبوك؟

- حسين نعمة. يعمل في صناعة المراكب. وقد علّمني صيانتها ودهان جوانبها، وأحببت المهنة. فأنا أحبّ البحار والإبحار.

- وهل تنوي الإقامة في أميركا؟

- ماذا؟

- الإقامة، هنا، في أميركا؟

- أنا؟ أميركا؟ سأل الشابّ مقطّباً؟!

«لا. أبداً. أشار بسبّابته، برأسه وشفتيه. أنا... أريد أن أرجع إلى بلدي وأهلي. إلى أمّي التي حملتني في بطنها تسعة أشهر، وربّتني ثمانية عشر عاماً».

«الكلّ يزعم عدم الرغبة في دخول أميركا»، فكّر موظّف الأمن. ولكن، والحقّ يقال، هذا الشابّ يبدو صادقاً في زعمه. من الواضح أنّه يستعجل العودة. لا غرابة وزوجته حامل «في شهرها التاسع وتنتظر مولوداً»!

عجباً! على رغم حداثة سنّه، ثمانية عشر عاماً فقط!

كان هذا ما قاله موظّف الأمن لمعاون القبطان. وهذا ابتسم وقال:

- بعض الشعوب تزوّج أبناءها في سنّ مبكرة.

- ولم يفعلون؟

- في دياناتهم تحريم للعلاقات خارج الزواج.

- حسنٌ. شعوب طيّبة لا تخلو الأرض منها!

- «حظّاً سعيداً يا شابّ، قال موظّف الأمن لحميد. أتمنّى لك العودة سالماً إلى زوجتك!

- تفضّل، قال معاون القبطان للموظّف. ما رأيك في كأس على سطح الباخرة في هذا المناخ البديع؟

- أشكر لطفك يا قبطان، قال فيما هو يتأهّب للجلوس».

التفت معاون القبطان إلى الشابّ الواقف غير بعيد، يدندن أغنيته الشجيّة، وقال له:

«هاي.. أنت هاميد. خذ... اذهب واشترِ لنا شيئاً من «الشوبْ». هناك خلف الناصية بالضبط، «شوبْ».

«ما بك تتلكّأ يا شابّ؟ قلت لك...»

هرول الصبيّ إليه، وشبه انحناءة تؤكّد امتثاله طلب معاون القبطان. التتمّة يعرفها حميد. حفظها عن ظهر قلب، لفرط ما ردّدها في الباخرة، وحفظ مفرداتها قبل وضعها في جمل قصيرة كما علّمه أخوه: «فود»، طعام. «درنك»، شراب. «جوس»، عصير. «كوفي»، قهوة... تي، واتر. سندويتش...

خرج حميد من الباخرة.

إنّه خروجه الأوّل منها. الفارق بين أن تعرف وتسمع وبين أن تختبر، هائل. يحاول أن يسير بثقة. الممرّ الطويل الواسع هذا... أتتمة للباخرة هو، أم بداية لأرض المرفأ؟

لا يدري.

ضربات قلبه تتسارع! غشاوة في العينين ودوار في الرأس.

مرفأ نيويورك غير مرفأ مرسيليا!

ذاك أشبه بلعب الأطفال مقابلة بهذا! سكّان الكرة الأرضيّة بأسرها يتوافدون إلى نيويورك! إكتظاظ لا يصدّقه عقل! عربات، أحصنة، ماكينات، عمّال يفرغون حمولات البواخر. آخرون يقومون بنقلها، يصدمون مارّين. شبّان يفترشون الأرض، تنبئ تقاسيمهم باليأس والبؤس الذي يرافق ترحالهم. آخرون يبحثون عن أشخاص من الواضح أنّهم أضاعوهم. بعضهم ينادي البعض الآخر. نساء يبكين وأطفال.. حقائب. صناديق. بقج. يا ربّ العالمين، ما الذي يجبر بني البشر على هذا؟!

تابع سيره يقبض على روحه ندم، كيف أنّه لم يأخذ عنوان «وهبي»، واتّكل على الخطّة بلا ضمانات!

كاد يتسمرّ في مكانه!

تشجّع يا حميد... تشجّع! نجوت من سفر برلك ومن عواقب الفرار و... تشجّع. أدخل إلى هذا العالم. عبر الممرّ ويده تمرّ بالحبال الغليظة التي جعلت مثل درابزين. هذه أرض المرفأ، لكنّها أرض نيويورك أيضاً. أفي الداخل هو أم في الخارج؟

يمشي فيما الإحساس بعبثيّة الموقف يلازمه: أنت هنا يا حميد

أضأل من إبرة وقعت في البحر. أنت هنا لا شيء. لا أحد. ما أسهل أن يبتلعك الموج. لو حدث لك أن سهوت... أن ضللت شبراً من الدرب، ضاعت الفرصة عليك! سينتظرك أخوك... سيسأل عنك ذووك... ليقال خرج ولم يعد!

أوقفه الجنود.

- من أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب يا شابّ؟

لا يدري من أين هبطت عليه الثقة! إنّها ثقة من سيرجع بعد دقائق إلى الباخرة.

أخرج حميد بطاقته وبدأ يسمع درسه: أنا عامل في الباخرة. القبطان أرسلني لأشتري ، واتر، كوفي، درينك، بسكويت...

- «دعوه يخرج. قال الشرطيّ لزميله».

خرج.

أو بالأحرى دخل. كلّ يرى الاتّجاهات بحسب مبتغاه.

وهو، حميد نعمة، ما وجهته في نهاية الأمر؟ وما مبتغاه في هذه الأرض الغريبة؟!

في الخارج، على أرض مرفأ نيويورك، سيغدو واحداً من آلاف الناس الذين يطؤون يوميّاً أرض أميركا. سيخرج ويدخل عدّة مرّات كلّ يوم، أو العكس. سيكرّر مشواره إلى أن يأنس الجنود لخروجه



ودخوله، فيغدو عاديّاً مثلما هو عاديّ أن يأتوا، هم، صباحاً إلى عملهم، ويغادروه آخر النهار. هكذا، وفي اليوم الثالث، لن يلاحظ تسلّله أحد. في الدرب المتفرّع من ذاك المواجه للمرفأ، قبالة «الشوبْ»، سينتظره «وهبي». حال أن يلمحه سيستدير ويمشي. وهو، حميد، سيتبعه. خطوة خطوة. وما عدا معاون القبطان، لن يلحظ غيابه أحد.

بانتظار اليوم الثالث، صار حميد يخرج ويرجع بقدر ولو ضئيل من الثقة، ثقة من هو غير راغب في العيش «هنا». حين أكّد للموظّف أنّه سيرجع إلى أمّه، لم يكن يكذب. سيرجع بالتأكيد حال أن يرتّب أوضاعه وأوضاع أخيه. سيتأبّط ذراعه، ويدخلان

على ذويهما بجيوب ملأى بالمال، وحقائب ملأى بالهدايا. لذا فهو، حين أُخبر بضرورة أن يُسجّل عاملاً في الباخرة، كي تنطلي الحيلة على رجال الأمن، خطر له من فوره، أن يكون له بالفعل عمل فيها أثناء الرحلة. لكنّه، خشية أن «يزعل» «وهبي» منه سكت. ثمّ عاد وفاتحه بالموضوع. ضحك «وهبي» وجلجلت ضحكته في «الكابينة»، وضرب كفّاً بكفّ وهو يقول:

- «والله يا أخي، إنّك بحقّ ابن حسين نعمة».

حال أن هدأت ضحكة أخيه، سأل حميد:

- يا أخي، ما نوع الشغل الذي ينتظرني في أميركا؟

- مهلك يا حميد، اصبر. استمتع بالدنيا. على أيّ حال، لا بدّ أن تتعلّم الإنكليزيّة. لا تفعل كما الآخرون. يعيشون ويموتون في بلاد لا يتعلّمون من لغتها إلّا أكل وشرب ونام. ليتني كنت قادراً على أن أتفرّغ ولو بضعة أشهر لأتعلّمها كما ينبغي لإنسان من القرن العشرين أن يفعل. وأنت، إن تعلّمت شيئاً من الإنكليزيّة فُتحت لك آفاق كثيرة. من ناحيتي أتمنّى أن تعمل معي، حتماً إذا أعجبك الشغل. على أيّ حال، أفكّر في مشاريع جديدة، تعجبك!

لسماعه جواب أخيه، بخصوص تعلّم الإنكليزيّة، قال حميد في نفسه: «ما حاجتي إلى لغة سأغادر أهلها عمّا قريب»؟!

نعم، سيرجع.

لا لأنّه غير طموح أو يعوزه النشاط، بل لأنّ شيئاً لن يقف بينه وبين غايته الأخيرة: أن يرجع ويعيش وأسرته في البلاد أعزّاء مكرّمين.

* * *

الأشهر التي أمضاها الشقيقان في مرسيليا، والرحلة بين هذه ونيويورك، كانت شبه كافية ليكوّن كلّ منهما «انطباعه» عن الآخر وفيضاً من التساؤلات. منذ اللقاءات الأولى، ثمّة خشية ساورت هذا التوّاق إلى رؤية أخيه البكر، أن يكون ما سبق لأبيه قوله، يحمل من الصحّة قدر ما يحمل من التجنّي: «معجباني»، زهوه بنفسه من أوّل اهتماماته. حميد، لا يلومه على أناقته، فهو نفسه أراد أن يبدو في نظر «وهبي» لائق المظهر. انتقى «الطقم» الذي سيقابله به، والقميص وربطة العنق، حتّى إنّ أخاه، أوّل لقائه به قال: «ملبس عال العال. من الذي اختاره لك»؟

- خالي رامز.

- طوال عمره صاحب ذوق. تعال، سأشتري لك المزيد. تعال نخرج وإن أعجبك شيء اشتريناه.

استصعب حميد أن يبدأ رحلته بالبذخ. ما لديه من الثياب يكفي. وفي سرّه راح يتأمّل ملابس أخيه:المنديل الناصع البياض الذي يبرز من جيب السترة. وفي الجيب المقابل قلم من الفضّة

مطعّم بالذهب. سلسلة الساعة الذهبيّة تتدلّى من الجيب الصغير. في هذا إفراط يُجاوز الأناقة!

المباهاة!

إن كان هدف أخيه لفت الأنظار، فقد نجح. حين يمرّ «وهبي» «بطقمه البيج» على سطح الباخرة، الكلّ يلتفت إليه.

نظرة الأخ الثاقبة حملت ل«وهبي» فِكَرَه فقال:

- تعجبني ملابسك الشرقيّة يا حميد.. تجعلك ملفت نظر!

ثمّ ضحك وأضاف:

ستغطّي على أخيك «وهبي».

ضحك حميد، وفي نفسه قال:كيف أغطّي و«وهبي» يلبس كلّ يوم

جديداً؟! لديه من القمصان من جميع الألوان. إن كان على هذا المدى من الإسراف، وعلى هذا الشغف بالرحلات، فلعلّه قد جمع ثروة! «ليتك كنت معي في باريس»، قال له. «من لم يرَ باريس، لم يعش من حياته سوى نصفها». إن كان ميسوراً لهذا الحدّ فلم يبخل في ما يرسله إلى ذويه؟!

هناك مسألة أخرى لم يفهمها حميد! لدى «وهبي» دفتر صغير يخرجه من جيب الجاكيت، يدوّن فيه أشياء، مثل الدفتر الذي يحمله

أبوه في رحلته إلى فلسطين. والده كان يدوّن احتياجات المحلّ والأسعار. و«وهبي» ماذا يدوّن؟ حسابات؟

لا. كتابات.

أيكون أخوه شاعراً وهو لا يعلم؟ سأله مرّة، و«وهبي» أجاب: «خواطر. انطباعات. ذكريات. أشياء أحببتها، أشياء أخرى كرهتها...».

- «وهل تفكر في نشرها بكتاب؟

«لا أظنّ. ذات مرّة أرسلت مقالة إلى مجلّة، وقد نشروها لي. ولكن من غير المؤكّد أنّي أفكّر في نشر كتاب.

«وهبي» ينتظر المساء ليصعد إلى سطح الباخرة، ويجلس في المكان الأثير لديه، غير بعيد عن الدرابزين. يطلب زجاجة بيرة أو كأس كحول. حين يجلس مع معاون القبطان، يدعوه للجلوس معهما. وهو يفهم جيّداً مغزى الدعوة. نافذة يفتحها له على عالم التمدّن: أصول المائدة وشرب الكأس. وهو لا مانع لديه من تعلّم أشياء جديدة؛ فهو ليس ضدّ «التفرنج»، إذا ما كانت غايته تهذيب سلوك الناس. ولا هو ضدّ الاستمتاع بمباهج الحياة، ولا حتّى ضدّ «التأمرك». و«وهبي» يحدّثه عن الاختلاف في العادات بين أهل أميركا والوافدين حديثاً إليها. وهو، حميد، إن كان قد تعجّب من تغيير الأسماء، إلّا أنّه يتفهّم السبب:

- تسهيل الأمور؟

- بل ربّما لأسباب أخرى...غير ذلك!

- ما هي إذاً؟

ما هي، كي يصبح «وهبي» «بوب» وابنه «خضر» «جورج»، وتغدو «مريم» «ميري»؟! ما همّ هذا إن كانوا أولاداً صالحين. لكن... وجه «وهبي» يوحي بسبب غير باعث على الراحة. ما يقلق حميداً ليس الوجه العمليّ للمسألة بل نتائجها: أن لا يكون هؤلاء، بمرور الوقت، هم أنفسهم.

- سيكونون كذلك. لكنّ الحرص فضيلة، قال «وهبي».

ماذا يقصد ؟

- القادمون الجدد يفضّلون عدم لفت الأنظار إلى أصولهم أو البلدان التي هم قادمون منها.

هل يقصد أخوه أنّ على الوافد إنكار أصله؟!

- ليس بالضبط كذلك، ولكن...

- ولكن ماذا؟ ما العيب في أصولنا، يا أخي؟

- بعض المتعصّبين من الجهلة يمقتون الوافدين خصوصاً...

- آه فهمت، قال حميد، فيما هو يتساءل ماذا سيكون اسمه هناك؟!

ميدو؟ آمادو؟!

سنرى، أجابه «وهبي»، فيما هو يبذل جهداً كي يكتم ضحكه. وقال:

- ربّما آمادو. اسم برازيليّ. البرازيليّ، في نظر هؤلاء، أفضل من التركيّ أو العربيّ.

- آمادو البرازيليّ سيحلّ مكان حميد الصوريّ، علّق حميد بشيء من الهزل.

تعجبه روح السخريّة لدى أخيه، وبالتأكيد لا تفاجئه!

الدمغة التي ورثتها العائلة أباً عن جدّ! ترى، ممّن تسخر هذه العائلة؟ أمن نفسها أم من الدنيا؟

أم من كلتيهما معاً؟

على الأرجح من علّتها: الطموح. طموح من شأنه تحريك الجبال. يتحدّثون عن «القناعة وكنزها الذي لا يفنى»! لكن لا. إنّهم يردّدون العبارة هذه على سبيل العزاء!

حميد، من ناحيته، يراقب ويفكّر:

««وهبي» يبالغ في الإسراف. ينسى أنّ أسرته تعيش «أعطنا خبزنا كفاف يومنا». أيكون قد راكم ثروة، أم تراه من ذاك الصنف القائل: إصرف ما في الجيب يـأتِك ما في الغيب»، على خلاف والده الذي لا يفتأ يكرّر» قرشك الأبيض لليوم الأسود»؟

هل سمع «وهبي» بفظائع المجاعة؟

- حتماً سمعنا. لكنّ المجاعة انتهت. وهل كلّما نزلت كارثة سنمضي في ندب ضحاياها مئة عام؟ في ذلك الحين جمعنا الكثير من المساعدات. ماذا يمكننا أن نفعل أكثر من ذلك؟ أراك يا أخي متأثّراً بمجالس العزاء. الشيعة لا يكفّون عن ندب الحسين، منذ أكثر من ألف عام.

يعبر حميد عن تهكّم أخيه ويقول في نفسه: أن تعرف بالسماع، غير أن ترى وتشهد. ما أفظعها من أيّام مرّت على أهل البلاد. ما أفظعها... لم يشهدها أخوه. وتلك الحادثة التي لم يخبر بها أحداً، ولا حتّى أباه إلّا قبيل سفره. من باب الأمانة فقط أخبره. يومذاك، وكما في كلّ عام، كان يساعد أباه على إجراء «التقويم» السنويّ للبضاعة، فانتهز الفرصة ليقول:

- يا أبي، سجّل كيس قمح بالناقص على حسابي.

تطلّع إليه أبوه مستغرباً! سيخبر أباه بموجز الحادثة التي سيكون من الصعب عليه نسيانها:

إنّه يرى تلك الفتاة الرائعة الجمال، ابنة الرجل المحترم الذي لطالما تبضّع بالجملة من متجر أبيه، وأظهر أمانة في سداد الديون قلّما يظهرها أحد! ثمّ مات بالسلّ وترك أسرته بلا معيل. يراها واقفة في مخزن أبيه والإنهاك على وجهها ينبئ بأنّها قد تكون هي أيضاً مسلولة. تسأله عن القمح والحنطة. وقبل أن يجيبها تتوسّل إليه بالقول:

- «أعطني الكيس هذا لأطعم إخوتي ولك ما تريد».

كلّما استعاد الموقف دمعت عيناه. يتذكّر وجه أبيها الذي فارق الدنيا من أعوام، ووقفتها المتسوّلة الذليلة، وتدمع عيناه.

يا للعوز كم هو مذلّ! ويا للجوع كم هو كافر!

في ذلك الحين فهم جيّداً وازع الفتاة فقال لها: «خذي ما تريدين يا أختي ولا أريد منك شيئاً». جمع لها ما تيسّر من غذاء ثمّ قال: يمكنني أن أدبّر لك عملاً لدى عائلة تاجر ميسور.

- «إن كان لديه ما لديكم من شهامة، فأنا على استعداد لأن أصبح عبدة لزوجته، مقابل أن أطعم إخوتي».

المسكينات يبعن كلّ شيء من أجل اللقمة. يلقين بثمار أحشائهن على عتبات الميسورين. «وهبي» لم يشهد شيئاً من هذا. لم يرَ الناس يتأوّهون في الطرقات، ينازعون الموت، والأطفال يقضون جوعاً، وحليب الأمّهات يجفّ في الصدور. الجراد ينافس المزارعين ويلتهم ما لم يحن قطافه. «وهبي»، كما يقول والده، عاش مدلّلاً، من أبيه طفلاً، ومن أمّه صبيّاً ومراهقاً. لعلّ أباه على حقّ، ربّما بالغت زهيّة في تدليل ابنها حتّى خرّبت عقله! ويبدو أنّ الدنيا حابته أيضاً، فلحين سفره كانت أحوالها بخير. فهو لم يجرّب الجنديّة، ولا فزع الفارّين منها، ولا الاختباء لدى أناس يعيشون هم أنفسهم على حدّ الكفاف. لم يعمل سرّاً في الحقول، لقاء لقمة ومرقد، ولم يحفر في

الصخر ليعوّض عمّا سيأكل ويشرب، ولم ينم مثل الكلاب، يغمض عيناً ويفتح أخرى كي لا يدهمه العساكر ويقودوه إلى حبل المشنقة.

* * *

في الباخرة، أمضى حميد أيّاماً يتهيّأ للأسئلة التي من المؤكّد أنّ أخاه سيلقيها عليه، هذه المرّة، بالتفاصيل. سيسأله عن أمّه وقد استعدّ هو للجواب: إن كنت تريد لها ألّا تموت من الغمّ، فعليك الإسراع في العودة، حتّى وإن كنت ستهاجر ثانية.

سيسأل عن شقيقاته: ليلى وزهرة وخديجة.

ليلى بألف خير وزهرة أيضاً.

- وخديجة؟

خديجة هي الكبرى، توأم «وهبي». ماذا يقول له؟

- خديجة... زوجها لم يرجع من الحرب. إنقطعت أخباره.

- وهي؟ هل هي بخير ؟

يا له من سؤال صعب!

«لا. ليست بخير».

- توأمك يا «وهبي»... أمّنا الثانية رحلت عن الدنيا. تركت ولدين، صبيّاً وبنتاً.

بان التأثّر على وجه «وهبي». بكى. بكى بحرقة فقدان توأمه الأنثى وهو يقول: كانت الأخت الحنون. مسح دموعه، ولزمه وقت ليتماسك وينهض. راح إلى «الكابينة». عاد بعد قليل، وبصوت يغصّ بالبكاء سأل:

- من يعتني بالصغيرين؟ من يدبّر أمور معيشتهما؟

- من كنت تظنّه سيفعل؟ عائلة نعمة طبعاً. إلى حين أن يعود أبوهما من الحرب... هذا إن عاد منها، الأسرة هي التي ترعى.

سيسأله عن أبيه؟ بالتأكيد سيسأل: أبوك يا «وهبي» ممزّق الروح وكبرياؤه يمنعه من الاعتراف.

سيسأله عن تجارة أبيه وعن أحواله الماليّة؟

أبونا يكبر يا «وهبي»، وما عاد في مقدوره أن يعمل كما في السابق. صحيح أنّ الحرب انتهت، لكنّ الصحيح أيضاً أنّ حرب الأسعار حلّت مكانها...

نعم ولكن...

«وهبي» لم يسأل عن أبيه! لا بدّ أنّه يتريّث ليفعل. لم يفعل. حسنٌ، سيبادر هو إلى الكلام:

- أراك ما تزال حانقاً يا أخي! إغفر لأبيك فهو ممزّق القلب.

تجهّم وجه «وهبي». الاضطراب في العينين، هزّة الرأس، كلاهما ينطق بالحقد:

- «تعال أُرِكَ، قال «وهبي».

- ماذا؟

- ما يسرّك. الحقني إلى «الكابينة».

مشى «وهبي» في الممرّ، وتبعه حميد. سيلزم هذا وقت طويل لينسى اللقاء في «الكابينة»، وأخاه يرفع قميصه ويدير ظهره ويقول: أنظر، هل ترى؟

- ماذا أرى؟

- ألا ترى؟

- ربّما أرى بعض الـ...

- لا بل إنّك ترى. حدّق جيّداً. قل إنّها آثار كرباج أبيك. كلّما تذكّرته ذكّرتني هذه بعاطفته.

- يا أخي، ما من أب إلّا ضرب ابنه. آن الأوان كي تنسى، أو تغفر. أنت تعرف كم كان يحبّك...

- ليته لم يحبّني. ليته لم يكن أبي. ليتني كنت لقيطاً لمّني من الشارع، لعلّه كان سيشفق على يتمي.

احتار حميد في الجواب:

- «والدنا لم يكن أقسى من غيره. ألا تسمع بقريب له كان يكوي أبناءه بالنار؟

- أنت قلتها!

- ما هي؟

- الحقيقة، حقيقة هؤلاء القوم القساة الجهلة. شعوب متأخّرة، خانعة، عرب، أتراك كلّهم في القسوة سواسية. يقهرهم الحكّام فيقهرون الأبناء.

- يا أخي اهدأ...

- يا أخي... يا أخي. إعلم أنّي أنكر هؤلاء القوم. يفرحون بالذكر ساعة ولادته، لا لأجله، بل ليزهوا به بين الناس. ثمّ، قبل أن يكبر يناصبه أبوه العداء. لا يسمعون بالرقّة التي كان نبيّهم يعامل بها زوجاته، بناته وحفيديه، الحسن والحسين. يقال كان يحملهما على ظهره ويسير بهما مفتخراً. كان يعلّم الجهلة هؤلاء، كيف يفتخر رجل... لا ككلّ الرجال... نبيّ... بابنَي ابنته فاطمة الزهراء.

أين هم من هذا؟!

ما أرذله من شعب!

تفِهْ!

قالها بالطريقة عينها التي كان أبوه يقول بها:

«أدب سيس».

فهو يحقد، لا على أبيه وحسب، بل على جيل كامل من الساسة

والآباء والمدرّسين الذين لم يكن لديهم وسيلة للتربية سوى العنف! كأنّ هنالك وسائل أخرى، في ذلك الحين، لم يسمع بها حميد! جلّ ما يعرفه أنّ هنالك آباء يفوقون آخرين قسوة، وأنّ قلّة نادرة من الرجال تشبه طباعهم طباع النساء، تفيض في قلوبهم عاطفة جيّاشة ورحمة على أبنائهم، وكأنّهم ليسوا ذكوراً، بل أشخاصٌ ناعمون، أو حتّى مهيضو الجناح، يتكلّمون بصوت خفيض. وهو يستغرب كيف يمكن لزوجاتهم أن يَرِيْنَهم رجالاً، وأن يعامِلْنَهم على هذا الأساس!

الجلسات بين الأخ وأخيه تحوّلت إلى مباراة، تولّى الأوّل فيها مهمّة الهجوم بلا هوادة على أبيه وبلاده المتأخّرة، والثاني مهمّة المستميت في الدفاع عن أب لم يُعرف بين الناس إلّا بالصلاح وقوام المسلك.

وماذا يعرف الناس عن معاملة هذا ابنه؟ لك حقّ في أن لا تفهم موقفي يا حميد. نحن لا نتكلّم على الأب نفسه. كان «وهبي» الدرس الأوّل، وكنت أنت يا أخي، التطبيق. ثمّ لا تنسَ أنّي ذاك اليوم انتزعت منه الكرباج. على ما يبدو لم يشتر كرباجاً آخر بعد ذلك.

- إنتزعت الكرباج وأبقيت على الحزام. أنت تعرف والدنا أكثر منّي. غضبه أعمى، والحزام الذي كواك به لم يوفّر جوانبي. لكنّي تعلّمت كيف «أسايسه» لأتجنّب مصادمته. ثمّ إنّه أبونا. وهل للإنسان في الدنيا مئة أب؟ وهل الأب قميص نشتريه من دكّان أو نفصّله على ذوقنا؟!

لاذ «وهبي» بالصمت:

«لا فائدة... جرح مثل هذا يصعب شفاؤه. قدرك أن تولد ذكراً، وأبوك رجل ينزل بك العقاب! لا لشيء إلّا لجموح في روحه بأن يمارس رجولته بالطريقة نفسها التي سبق لآخرين، آباء، حكّاماً ومدرّسين، أن مارسوا بها رجولتهم.

ويقولون ارجع !

هل أنا مخبول لأفعل»؟!

وقال حميد:

- «أوروبّا أو أميركا بلاد عظيمة، لكنّها ليست بلادنا. بلاد الشام هي بلادنا».

نعم، بلاد الشام هي الأوطان؛ ولكن، ويا للعجب، لقد وجد نفسه يبكي فراق مرسيليا!

كانت الباخرة تتهيّأ، والناس يلوّحون بالأكفّ لأحبّائهم على أرض المرفأ، وبين هؤلاء العمّ صليبا... إنسلّ هو إلى «الكابينة»، جلس على سريره وبكى. بكى بكاء أمّه فراقه، فراق «وهبي» وفراق ابنتها الأبديّ،

كأنّه لا يغادر مرفأ مرسيليا بل مرفأ صور.

لكأنّ مرفأ هذه هو نفسه مرفأ تلك، أقاماه على الضفّة الأخرى من البحر!

يا إلهي، لكم تتشابه المرافئ! لا ريب في أنّ بُناتها هم توائم في الروح، بعضهم ولد هنا، والآخر هناك، ليشكّلوا هنا وهناك ما يشبههم. الآن والباخرة قد غادرت مرساها باتّجاه المحيط، أيقن أنّ رحلته الحقيقيّة قد بدأت. لا يمكنه العودة إلى مسقط رأسه صور. المكان الذي يمقت أخوه «وهبي» ذكره، يفتقده هو هذا الفقدان المريع! لو عاد إليه... فسيركع يقبّل الأرض! سيقبّل وجه البحر لو عاد إليه! سيركض فوق الموج! في لحظة الشوق هذه يدفع حياته ثمن أن يلقي نظرة واحدة على «منارة» صور.



منارة صور الشهيرة

ساعة الشيطان

كان يمكن لمرفأ صور أن يحمل لـ«وهبي» أعذب الذكريات، لولا الحكاية تلك... التي بين مارسيليا ونيويورك، سيستمع حميد إلى أخيه يرويها له على سطح الباخرة، بطريقة مغايرة للّتي حكاها بها أبوه. سيحكي له عن «الحبّ الرائع الذي خنقته التقاليد العفنة في المهد». كان سيكون أسعد رجل على الأرض لو سمح له بالزواج بمحبوبته. كانت هي أيضاً ستكون أسعد امرأة.

«تبّاً للتقاليد! ويزعمون الإيمان وحبّ الله.

أين هم من جوهر الحبّ؟

ويتبارون في أداء الفروض. ما نفع السجود والركوع بقلب خاوٍ وذهن عفن»!

انفعال «وهبي» لحكايته مع الفتاة، يوقف الكلام في حنجرته،

يدهش حميداً. كأنّ ما جرى... قد جرى البارحة! مدّ «وهبي» يده إلى جيب سترته، وسحب رزمة صغيرة من الواضح أنّها «مكاتيب» ووضعها على الطاولة:

- المكاتيب هذه هي أغلى شيء في الدنيا، قال. أغلى من أيّ مال يتبجّح بحيازته رجل.

يقول هذا فيما حميد ينظر إليه غير مصدّق أنّه تغرورق عيناه:

- هذه رسائلها. كانت ترجو منّي أن أتزوّجها. أن أهرّبها من أهلها الذين يُعدّون لها زوجاً يكبرها بخمسة وعشرين عاماً. ابنة الثامنة عشرة يزوّجونها برجل في الخامسة والأربعين.

عجبي!

* * *

ابنة مهاجر أعادها ذووها من الهجرة، لتمضي بعض الوقت لدى عمّتها، ريثما يجدون لها الزوج «الملائم»، «للسترة» حتماً، يقول «وهبي». الفرص أمامها لم تكن كثيرة، على رغم حلاوتها وتمدّنها. لم تكن تملك «الدوطة» المطلوبة من فتاة مسيحيّة. كان صديقه حنّا سيساعدها على الهرب. اتّفقا على كلّ شيء. استأجر «وهبي» غرفة في صيدا لسكن موقّت، ريثما يتمّم ترتيبات السفر في الباخرة. سيأخذ بهيّة ويسافران إمّا إلى أميركا حيث نشأت ولها فيها معارف،

أو إلى الأرجنتين. تقول: في بلاد أميركا يمكن للمرأة أن تعمل. وهي كانت تساعد أمّها في إجازات المدرسة، على إعداد الطعام في مطعم يملكه شخص سوريّ.

كان على «وهبي» أن ينتظر بهيّة وحنّا في مرفأ صيدا، بحسب الاتّفاق، كانت قد هرّبت «جهازها» إلى بيت حنّا. يوم الاثنين، قبل الفجر، كانت ستتسلّل من بيت عمّتها، وتلاقي حنّا خلف الصخور حيث يكون قد أرسى المركب الذي يحمل أمتعتها.

يوم الاثنين أبكر «وهبي» في الذهاب إلى مرفأ صيدا. يعرف أنّ بهيّة وحنّا لن يصلا قبل الظهر، وعلى رغم ذلك أبكر. قرّر أن يجلس في مقهى «الزجاج» يتناول قهوته، ومن ثَمّ يدخل على الفوّال فيأكل طبقه المفضّل، ثُمّ يخرج يتجوّل في شوارع صيدا. قبيل الظهر سيتّجه ثانية إلى المرفأ، إذ يحدث أن يصلا قبل الموعد، فيكون هو حاضراً للاستقبال.

على صخرة كبيرة قبالة البحر جلس. بان له في عرض البحر مركب. لا بد أنّه هو. لا، قال له بحّار كان يقف على الشاطئ. هذا آت من جهة الغرب مباشرة، ومراكب صور تأتي من هنا، من الجنوب.

مركب آخر وصل عند الظهر، من الواضح أنّه آت من بيروت، محمّلاً بالبضائع، وركّابه الذين نزلوا، غالبيّتهم من العمّال. حسنٌ! هذا مركب يتراءى له من الجنوب. لكنّه أكبر بكثير من أن يكون

مركب حنّا! كبير مثل سفينة، وصل من حيفا، وعلى متنه مسافرون وبضائع. من يدري؟ لعلّ حنّا غيّر الخطّة وأحضر له الفتاة في سفينة آتية من فلسطين، تمويهاً للدور الذي يقوم به!

ها هم الركّاب ينزلون، وهو يبحث بين الوجوه، بلا فائدة!

إنتظر «وهبي» طويلاً في مرفأ صيدا. كلّما لاح له مركب مقبل استبشر خيراً، لكنّ أمله سرعان ما تبدّد. وسأل أكثر من قادم، هل مرّ أحدهم بمركب يحمل شابّاً وفتاة؟ وفي كلّ مرّة كان يجاب بالنفي. يقولون إنّهم مرّوا بعدد من الشبّان، وما من مركب كان ينقل امرأة.

الشمس تميل إلى المغيب، تستعدّ للهبوط وراء الأفق. تسرّع الخطى، وقلبه مع خطاها ينقبض. يا لهذا الانقباض!

ماذا لو غربت الشمس، ومحبوبته لم تصل بعد؟!

بدأ الغروب يخيّم على الأرض. مركب شراعيّ يقترب. نزل منه ثلاثة رجال، ثمّ راحوا يجرّونه إلى حافة الميناء تمهيداً لربطه. كأنّهم لا يربطون مركباً إلى مرساه، بل يربطونه هو إلى المرسى! غادروه فيما بقي المركب يتمايل على سطح الماء.

وخطر ل«وهبي» أن يقضي الليل على الصخرة ينتظر. المشكلة ليست في المغيب ولا في ظلام الليل. بل في غموض الموقف! هل يرجع إلى الغرفة التي منذ يومين فقط صارت غرفته؟ سأل عمّال المرفأ فأجيب أنّ المراكب الصغيرة، مراكب التجديف، قلّما تأتي في الليل. إلّا لسبب اضطراريّ.

على هذا النحو، انتظر «وهبي» ثلاثة أيّام، حتّى بدأ يلوح له فشل المشروع الذي خطّط له هو وحنّا. لعلّ صديقه الذي عُرف بسعة الخيال وقلّة الحيلة، في اللحظة الأخيرة تقاعس! أو لعلّ الفتاة نفسها خافت... أو لعلّ الحكاية انكشفت، أو... أو... الاحتمالات كثيرة، ولا واحدٌ منها يبشّر بالخير.

كان هو الغلطان.

كان يجدر به أن يتولّى بنفسه تهريب الفتاة. والآن ماذا يبقى أمامه سوى أن يحمل نفسه ويرجع إلى صور؟! وماذا لو كانت هناك مشكلة تنتظره؟!

تحت جنح الظلام، بزيّ غير الذي يعرفه الناس به، بالصاية والطربوش، دخل المدينة. لم يجرؤ، على التوجّه إلى منزل أهله، فخشيته على أشدّها من أن تكون ورطة ما وقعت للهاربة ومساعدها، أو أن يكون الأمر قد انكشف وتناهى إلى علم أبيه. سيذهب إلى بيت خاله.

ضرب الباب، والخال سأل: من؟

- أنا يا خالي، «وهبي»...

- خير شو الحكاية يا «وهبي»؟

حسنٌ أنّ الخال سأل!

أن لا يسمع بشيء يعني أنّ المسألة ما زالت طيّ الكتمان. تنهّد. سحب نفساً عميقاً وأجاب: «لا شيء. يا خالي لا شيء». ولمعت في ذهنه بارقة أمل مثل نور رحيم. صافح خاله وهو يقول: «لا تؤاخذني، احتدم الموقف مع الوالد، وفضّلت المجيء إليكم، إن لم يكن لديكم أيّ مانع»...

ضحك خاله وقال:

- كثرة المشاكل بين الأب وابنه تشير إلى أنّ وقت الزواج قد حان. يللا استعدّ. هل بدأت تخبّئ بعض المال؟

- إن شاءالله قريباً يا خالي. لديك حقّ، لقد آن الأوان.

- ومن تكون صاحبة الحظّ يا ترى؟

إلتفت «وهبي» إلى هذا الصوب وذاك، وقد عاد الانقباض إلى روحه. لا يدري لِمَ، بعد بارقة الأمل، خطر له أن تكون الفرصة قد فاتته تماماً بالزواج ببهيّة. ووجد نفسه يجيب عن سؤال خاله:

- لا أعرف. لم يقع اختياري بعد على بنت الحلال يا خال. وما أدراني أنا بجنس البنات؟ أعتمد عليكم في اختيار صاحبة الحظّ.

ضحك خاله وقال:

- قريباً نفرح بك إن شاء الله، وخالتك سعدى لا بدّ أنّ لديها فِكَراً...

* * *

في اليوم التالي أرسل «وهبي» إلى حنّا طالباً إليه أن يلقاه عند بستان «السبيل»:

- «من منطقتكم، قال حنّا، لم يعلم أحد بالقصّة. ومن عرف بها هنا يُعدّون على الأصابع. إحمد ربّك على أنّ المسألة لم تتمّ».

قال حنّا هذا وانهار يبكي وهو يحكي، و«وهبي»، مذهولاً، يصغي إليه! حنّا لا يبكي عدم وفائه بوعده، بل ندماً على ما كان سيقوم به لو أنّه استسلم لشيطان فكره.

يا للشيطان حين يزيّن لابن آدم أفعاله!

كيف كان سيهرّب ابنة ديانته إلى شابّ مسلم؟!

كانت الكنيسة ستطردها، تلعنها وتحرمها من أعظم ما ينعم به مسيحيّ: تناول القربان المقدّس! وتحرمها من الاعتراف. كانت ستخسر دنياها وآخرتها. كان غضب أهلها عليها سينزل بها حتّى آخر العمر. طائفة بأسرها كانت ستغضب وتقاطع العاصية. طيلة حياتهم كان العار سيلبس هؤلاء الناس الطيّبين.

وهو، حنّا، لو انكشف تواطؤه، كان أيضاً سيُلعن ويُحرم.

يقولها ويلطم وجهه لطماً يفاقم من ذهول صديقه الجالس قبالته يفرك كفّيه، وعيناه مثل رقّاص الساعة، تتابعان الحكاية الغريبة التي يقصّها عليه صديقه الملتاع! يسأل، ويشعر بلسانه يابساً مثل حطبة. ويكرّر السؤال: «وما الذي حدث بعد ذلك...؟».

* * *

الليالي التي سبقت تنفيذ الخطّة، لم يعرف فيها حنّا طعم النوم. وفجر يوم الأحد، هبّ من رقاده كمجنون. خرج خلسة واتّجه إلى بيت الخوري. ضرب على الباب ضرباً خفيفاً كي لا يوقظ أحداً. حسنٌ أنّ الخوري بنفسه فتح الباب.

- ما بك يا بنيّ؟ هل من أمر لا سمح الله؟!

- كاد يكون كذلك يا أبتِ. كاد يكون...

وأسرع حنّا بالدخول، وأغلق وراءه الباب، والخوري يراقبه غير مصدّق:

- ما الأمر يا حنّا؟ هل والدك بخير؟ هل أنتم... هل عمّك هل... بخير؟

- الكلّ بخير يا أبانا. لكنّ الشيطان... سامحني، قال وقد جثا على ركبتيه. سامحني، الشيطان الذي...

- عمَّ أسامحك يا بنيّ؟

تناول حنّا كفّ الخوري، وراح يلثمها. وهذا يجد صعوبة في سحب يده.

- إنهض يا ابني... إهدأ وأخبرني بما حدث.

انهيار الشابّ على هذا النحو... الطريقة التي يقبّل بها يده، كأنّه يتوسّل إليه أن يغفر له ذنباً عظيماً... كلّ هذا يوحي للأب بأنّ

في الأمر سرّاً رهيباً.. ولفته أنّ حنّا يحمل «بقجتين». هذا الخوري الذي عرف برصانته، اعترضته في حياته مواقف كثيرة، في البلدان العديدة التي عاش فيها، مواقف كان يخمّن مضمونها من أوّل نظرة. والآن يستعصي عليه التخمين! في هذا السياق ما مغزى هاتين «البقجتين»؟!

- ما هاتان «البقجتان» يا بنيّ. هل أنت هارب؟ هل أنت، لا سمح الله، مطارد؟!

- لا يا أبانا. ليتني كنت كذلك! هاتان «البقجتان» ليستا لي.

الشيطان زيّن لي أخذهما.

- سرقتهما؟

- لا. ليت الأمر كان كذلك! ليتني كنت سارقاً!

- ليتك كنت سارقاً؟!

- نعم، بدل الفعل النذل الذي كنت سأقوم به!

- الفعل النذل... لا قدّر الله! وما هو ذاك الفعل؟! وهاتان «البقجتان»، لمن هما؟

- لبهيّة، بنت سمعان القبطيّ.

- بهيّة بنت سمعان؟!

- نعم

- آه فهمت...

- لا. لا أظنّك فهمت يا أبانا. الأمر أفظع ممّا تتصوّر! أفظع بكثير!

بين سجود وركوع، اعترف حنّا للخوري بالحكاية التي، لولا «البقجتان»، لما كان في وسع الكاهن تصديقها. لولا «البقجتان» لظنّ أنّ مسّاً أصاب عقل هذا الشابّ المنطوي الذي، ما عدا البحر والسمك، لا يعرف عن أحوال الدنيا شيئاً.

برهاناً على تآمر الشيطان ضدّه، فتح حنّا إحدى «البقجتين» وسحب منها فستاناً من فساتين بهيّة. أسقط بيد الكاهن: الفتاة التي كان سيزوّجها الأسبوع المقبل، والتي، في مثل هذه الليلة منه، كانت ستصبح في بيت زوجها العازب الوقور إسكندر... هذه الفتاة الوديعة الجميلة، كانت ستهرب غداً مع هذا الشابّ حنّا!

- «لا يا أبانا مع المسلم «وهبي» بن حسين نعمة! كان حنّا ابن دينها وكنيستها هو من سيساعدها على الهرب»!

رحمتك يا إله السموات. رحمتك! «يا ربّ نجّنا من الشرّير»!

وركع الأب يصلّي، وأشار إلى حنّا بأن يحذو حذوه، وهذا سجد ينتحب. يكتم نحيبه ويقطع على الخوري صلاته ليقبّل يديه. إعترف حنّا بكامل التفاصيل، وركع وصلّى وبكى كثيراً بين يدي «الأب». وقبل مطلع الفجر كان كلّ شيء قد انتهى. كان بمعيّة الخوري وخال

الفتاة يضربون باب عمّتها ليلقوا عليها النبأ المذهل، النبأ الذي، ما إن سمعته العمّة، أغمي عليها!

حدث ذلك فيما كان «وهبي»، هو أيضاً، يمضي الليلة ساهراً في غرفته في صيدا، لا يغمض له جفن، وعند الفجر ينهض ليبكّر إلى الخروج لاستقبال المركب الذي ستبحر على متنه المحبوبة بهيّة. لا يعلم أنّ المركب المذكور لم يبارح مرساه في مرفأ صور.

أزمان وَألوان

سيّد الدلائل

كاتبة هذه المذكّرات، امرأة تشبه نساء كثيرات من جيلها في لبنان. عاشت السنوات الأولى من حياتها في المدينة التي ولدت فيها. تشرّبت منذ طفولتها روح العدل، وتبنّت اليسار رؤيةً والعروبة هويّةً. لكنّها ورثت أيضاً التناقضات: عن مدينتها المحافظة ورثت ثوريّة سياسيّة لم تنقطع، وقلّما كان لها نظير. وعن أسرتها التي تفوق المدينة محافظة، ورثت جرأة في التفكير، ومراساً في إعادة النظر في الأحكام المسبقة.

قد يتساءل القارئ عن مغزى هذا التناقض.

لم تكن الازدواجيّة بين نمط الحياة، والموروث من التقاليد،

تقتصر على مدينة «صور». ففي المرحلة التي رأينا فيها النور، كانت مدن لبنان تعيش ازدواجيّة حضاريّة بصورة طبيعيّة. سأكتشف أنّ مدن الساحل التي يبدو ظاهرها «متفرنجاً» هي في حقيقة الأمر شديدة المحافظة. أنت في منطقة حافظت زمناً طويلاً على أوضاعها الثقافيّة والاجتماعيّة، ثمّ، بعيد عقدين من القرن العشرين، عصفت بها التغيّرات. إنهارت السلطنة التي حكمتها أربعة قرون ونصفاً، وجاءها استعمار غربيّ، انتداباً هنا واحتلالاً هناك. وزامن مجيئَهُ ازدهارٌ عالميّ، واستخراج وفير من حقول النفط في المنطقة. إنتعاش اقتصاديّ أشبه بالطفرة، نال منه غالبيّة السكّان نصيباً. النمط البورجوازيّ الغربيّ للمعيشة، الذي كان في ما مضى يقتصر على فئات ضيّقة، كما المدارس، صار متاحاً للطبقات الأخرى، ولا سيّما الوسطى منها. حدث هذا فيما أصداء الثورات التي تشهدها الكرة الأرضيّة تتردّد. تبشّر الناس بتغيير لم يحدث، وتحفزهم لمساءلة مختلف مظاهر المستتبّ، ورفض مختلف أشكال التسلّط.

جميعها كانت معرّضة للمساءلة في منزلنا، إلّا واحدة: الأخلاقيّات.

هكذا، بين حرّيّة بالغة للفكر، وتمسّك شديد بثوابت الأخلاقيّات، كان على الأجيال الجديدة أن تبحث في «درب الشوك» عن طريق

لها. وليس غريباً أن يكون المفكّر غولدمان على حقّ، ويكون المتمرّد السياسيّ الكبير أكثف من ظاهره، ويبطن تمرّداً على ثوابت كثيرة لم يكن من اليسير وعيها أو المجاهرة بها[1].

على رغم وعورة الدرب، كان جيلنا محظوظاً! أيّ سعادة أن تحلم بأنّك ستشهد تغيير العالم، وأن تغدو أنت نفسك حلقة في سلسلة هذا التغيير؟!النظم القديمة تتابع انهيارها. العدل سيعمّ الدنيا، والأخطاء التي تقع فيها الأنظمة الثوريّة ستعالج. نعم، أنت ثوريّ يساريّ، إذاً أنت في قلب العالم، وحركة ٦٨ في فرنسا تتحدّث باسمك!

يساريّون ولكن...

ما تختاره لنفسك لا يعني إنكاراً لما اختاره لك تاريخك. فنحن، اليساريّين، بالمعنى الثقافيّ، أبناءُ مذاهبنا. وسجلاّت النفوس التي قُيّدنا فيها تشهد على هذا. وأنا - كما مثيلاتي - على رغم يساريّتي، مسلمة من أب شيعيّ وأمّ شيعيّة. والدالّ على هذا، بحسب الألسنيّة الحديثة هو سيّد الدلائل: الاسم.

جدّي لأبي يدعى حسيناً تيمّناً بالشهيد الإمام، وجدّي لأمّي

(١) رؤية خاصّة «بالصراع العاطفيّ» في مسرح «راسين». قدّمها «لوسيان غولمان» في كتابه «الإله الخفيّ» يبيّن فيها أنّ مأساة «فيدرا»، ومثيلاتها من النبيلات السجينات في القصر ، هي صورة دراميّة لواقع اجتماعيّ سياسيّ، تمثّل آنذاك في تيّار معارض للسلطة الملكيّة من داخل «القصر». وهو تيّار «الجانسينيزم» الذي تربّى «راسين» على أيديهم وانتمى إليهم.
Lucien Goldmann .Le Dieu cache, Gallimard

يدعى محمّداً، ولعلّه الاسم الأكثر شيوعاً في العالم. ولديّ أخوة وأخوات يحملون أسماء تنمّ عن الانتماء إلى الإسلام: حسين ومحمّد، فاطمة وخديجة. صحيح أنّي غير متمرّسة بطقوس العزاء الشيعيّ، وأشاطر والدي وجهة النظر التي أنشأنا عليها بالنسبةإلى تاريخ الإسلام. على أنّ «الفداء» «إذا ما جاوز الظالمون المدى»، يلاقي هوى عميقاً في نفسي، ويغدو، كما كان على مرّ التاريخ، أمثولة للحياة غايتها الحفاظ على النوع أو الجماعة التي تمثّله.

* * *

لم يخيّل لأبي أنّ «الاسم الجميل» الذي يموّه «الطائفة» التي أنتمي إليها، وبالنظر إلى ذاك التمويه، سيغدو خارج حدود مدينتنا مصدر إرباك لي وللآخرين، ولا سيّما أنّي من جيل لم يرتدِ الحجاب. كنت على الدوام - وما أزال - موضع إرباك لمن كان هاجسه معرفة «الأصول».

في الماضي كان تباين اللهجات من الدلالات شبه القاطعة على الجهة أو الطائفة التي أنت منها. وبانتشار الإعلام وتزايد الاختلاط، ذابت فروقات اللسان لحدّ كبير، وصار التكهّن «بالأصول» أصعب من السابق. السؤال «عنها» يُلقى عليك أينما ذهبت: في وسائل النقل، في الطائرة، في البحث عن عمل أو سكن. أحياناً يُلقى بصورة مباشرة، فتسأل عن الطائفة التي أنت منها، وأحياناً، بصورة

ملتوية: المنطقة التي جئت منها.

- «من أيّ منطقة أنت يا مدام». من «دير القمر»؟!

لعلّ المعلوم «الجغرافيّ» يلقي ضوءاً على المجهول الدينيّ! فبلدة دير القمر البديعة، تضمّ عائلة مارونيّة كبيرة العدد، تحمل اسم «نعمة». ومنها رسّامة تشكيليّة اسمها هي الأخرى «رجاء نعمة». تعرّفت بها في أحد المعارض، ويصلني بريدها الإلكترونيّ، أحياناً، من طريق الخطأ.

«المدام من دير القمر؟»

- «أنا من «صور»، أسارع أحياناً إلى الإيضاح».

- «أمِنْ صور نفسها أنت، أم من جوارها؟ مدينة جميلة! تبعد عن صيدا... صور عرفت بِـ...لديكم فلان... صور تجمع كلّ الملل... شيعة، سنّة، مسيحيّين..»».

من ناحيتي، كنت غالباً ما ألمح إلى انتمائي السياسيّ، فأذكر لسائلي أنّي يساريّة مؤمنة، أؤمن بأنّ الأديان كلّها واحدة لصلاح البشر.

لا فائدة. مهما تحايلت، فسينتصر عليك سائلك. ولا بدّ للإجابات من أن تفضي إلى المعلومة التي تُقِضّ مضجع اللبنانيّين: «إلى أيّ دين أو طائفة، تنتمي أنت،أيّها الآخر»؟!

هيئتك في لبنان، لونك أو تقاسيمك لا تدل على الديانة أو الطائفة التي خرجت منها. حين طارت الإشاعة بعد ٢٠٠١، أنّ دوائر الهجرة في أميركا «ترسم» مواصفات محدّدة «للشرقيّين الأوسطيّن»، بدا الأمر فكاهيّاً: أنت أسمر البشرة أسود العينين، وتوأمك أشقر، أزرق العينين. أنفك رومانيّ يونانيّ نروجيّ أو أفريقيّ... شعرك أملس أو أجعد... فأنت من الشرق الأوسط.

قيل: سيلجأون إلى معايير أخرى، أدقّ من مشي النمل على الرمل! يقيسون عرض الجبهة،انحدارها، محيط الرأس واحديداب مؤخّرته. يقيسون حجم الرقبة والكتفين نسبة إلى الحوض والساقين و....

لا فائدة. يلزمهم مختبرات «خرافيّة» لفكّ ألغاز الأنسجة التي حبكتها ملايين السنين من الاختلاط والتزاوج، منذ أن خرج النوع العاقل «الأومو سابيانس» من أفريقيا إلى هذه المنطقة من العالم.. لعلّهم أقلعوا عن تنفيذ الفكرة، مكتفين بالتلويح بها، كي لا يهنأ لك بال.

* * *



بوستر ذكرى مرور قرن على صدور كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين

فجر التاريخ

من تخيّلات الطفولة أنّ «التاريخ الحديث» بدأ بقدومنا إلى الدنيا، نحن أبناء هذا الجيل وبناته. وأنّ العصور السابقة، على ما نعرف، كانت ضحلة، بلا «نكهة»، كما تقول كاترين. وزمننا، هو الآن في طور التشكّل! كما لو أنّ انقطاعاً بين حاضرنا و«ماضيهم» قد حدث، ما كان أحد في المدينة يتحدّث عمّن جاء قبلهم بأجيال إلى الدنيا.

قد يبدو هذا غريباً لمن ولد ونشأ في مدينة يعود تاريخها إلى آلاف السنين! نشرت الأبجديّة والأرجوان في أطراف الدنيا، وكان لتشكيلها نفسه حكاية فريدة: الإسكندر المقدونيّ، بعد أن أخضع جميع المدن الواقعة على الساحل الشرقيّ للبحر المتوسّط، استعصت عليه صور. في الأصل كانت هذه مدينتين: صور الجزيرة، وصور البرّيّة التي قاومته سبعة أشهر، والمحاصرون فيها يرمون الحجارة

والزيت المغليّ على جنود الإسكندر. حين استتبّ لهذا أمرها، خشي من مواجهة تكلّفه سبعة أشهر أخرى ضدّ توأمتها البحريّة، فأمر بهدمها عن بكرة أبيها، وجعلها ممرّاً لبلوغ الجزيرة. هكذا تشكّلت دراما شبه الجزيرة «صور».

مدن كثيرة غيرها قبل هذا التاريخ وبعده، جاءها فاتحون: «رمسيس... المصريّ وارتحششتا الأشوريّ... ونبوخذنصّر الكلدانيّ.... ثمّ القيصر الرومانيّ... وكلّ من هؤلاء، حين دخل الساحل الفينيقيّ، نقش اسمه وصورته على الصخرة الشهيرة فوق نهر الكلب.

يا لتلك الصخرة كم كابدت من نقوش!

على أنّ ما نسمعه درساً في التاريخ، يبقي معلومة مجرّدة في الذهن، في خدمة «لدفتر العلامات» ليس إلّا. فمدوّنات الرفوف لا تعني للأطفال شيئاً، ما لم تتوغّل في وجدان من سبقهم إلى الدنيا، وتُنقل إليهم بإحساس ما، أفرحاً كان تعبيره أم دموعاً. وفي مدينتي قلّما تحدّث أحد بتاريخها، اللهمّ ما يتعلّق بالوقائع الطازجة أو الأوسع شيوعاً: الحرب الأولى، والمجاعة التي عصفت بالبلاد وقضت على ربع السكّان. ولكن، يذكرها الناس ليستعجلوا طيّ صفحتها. ويذكرون بطش الولاة «الأتراك»، ولكنّهم يخفضون أصواتهم ويختصرون، فيما تعلو نبرتهم بالحماسة في استذكارهم أمجاد العرب.

هكذا، بين أمجاد الأندلس وظلم الأتراك، كانت هناك مساحة شاسعة من الظلمة، تعطّل لا الذكريات فحسب، بل الذاكرة أيضاً.

حاولت كثيراً أن أبحث عن مغزى «الأمنيزيا» تلك. سألت من حولي في شأنها، فتعدّدت الآراء. ذكر بعضهم أنّ احتدام ما يجري الآن يعتّم على ما جرى في السابق.

وقال آخرون:

«الأمنيزيا» مرادف الألم. وتاريخ المنطقة سلسلة ويلات تعفي الناس من التذكّر، وتغريهم بالنسيان».

إحدى المتحمّسات لتحرير المرأة أكّدت أنّ تاريخاً تغيب عنه النساء، هو تاريخ مبتسر يسهل نسيانه. لا بدّ للذكريات من أن تمرّ في «المتخيّل الأنثويّ» لتحيا.

زميلتي في الجامعة، هيلدا، لا توافقها على الفرضيّة. إن كان هناك من «أمنيزيا» لدى بعض الناس، فإنّما بسبب المذابح «الفظيعة» التي جرت بين الدروز والمسيحيّين في منتصف القرن التاسع عشر. تقول هذا بصوت خفيض، وذعر يلوح على وجهها، كأنّ من قام بالفظائع منذ قرن ونصف ما زال يقف وراء الباب!

سأعتذر إلى هيلدا، فالمستقبل القريب سينبئ بأنّه كان يقف بالفعل وراءه! ستعاد الكرّة التي تشهد على الوجه النبوئيّ لذاكرتها. فالمذابح المروّعة التي خيّل لنا أنّ صفحتها قد طويت إلى الأبد، لن

تلبث أن تتجدّد إبّان الحرب الأهليّة في السبعينيّات والثمانينيّات من القرن العشرين. أرواح كثيرة زهقت في قرى الجبل الصغير، ومن بين هؤلاء، سبعة من أفراد عائلة هيلدا نفسها!

* * *

إن كان هذا المؤلَّف يعني لكاتبته شيئاً، فلأنّه يصل شيئاً ممّا انقطع، ويعيد تشكيل بعض ما أُغفل من ملامح التاريخ، لجيل اعتبر أنّ «العصر الحديث» قد «بدأ» بقدومه. بداية تؤكّد أنّ المستحيل هو الممكن، مثل أن تفلت الإناث من قدر الخياطة والتطريز، يلتحقن بالمدارس ويتابعن الدراسة بعد التعليم الابتدائيّ، مثل أن يشاركن في التظاهرات، يهتفن وسط الرجال بسقوط الظلم والاستعمار، أو أن يتحقّق ما كان يبدو من رابع المستحيلات: نزع الحجاب[١].

حين همست نادية في أذن أختي شيئاً، شهقت هذه لوقع المفاجأة:

- «غداً سأخلع الحجاب. أبي وافقني».

وفي اليوم التالي، سارت كاشفة الرأس في عزّ النهار، في عرض الشارع!

(١) كان الحجاب في تلك الفترة مرادفاً لانسحاب المرأة من الحياة العامّة، وهذا ما يفسّر ضيق النساء به.

في طفولتي، كنت أضيق بالزيّ الأسود الذي ترتديه النسوة المتزوّجات. الزيّ هذا كان يضع في خيالي الحدّ بين زمن هؤلاء، وزمن الشابّات. لكأنّ القدر الذي يوزّع الحصص على البشر قد خصّ المتزوّجات به: كانت أمّي محجّبة، وجدّتي حتماً. وخالاتي أيضاً وعمّاتي، وزوجات أخوالي، وكلّ نساء البلدة المتزوّجات كنّ على ما أذكر محجّبات بالأسود. مَن تخرج منهنّ بزيّ آخر تشكّل استثناء، مثل أن تكون قادمة من وراء البحار: من البرازيل، الأرجنتين، مشيغن أو داكار[1].

بلاغيّاً، لطالما عبّرت مفردات اللغة عن الظواهر، باختصار الفائض من الكلام. ولعلّ كلمة «الضهور» في اللهجة اللبنانيّة، والتي تعني الخروج من المنزل، خير دليل على الدور الأساس للحجاب: الظهور به في العامّ. عن فتاة محجّبة كان يقال «مخبّيّة» خلاف كاشفة أو سافرة. ولمّا كان الخباء ملزماً في حقبات ما، كانت عبارة فلانة «انخبت» وفلانة «ما انخبت بعد»، ترد كثيراً على الألسن. اليوم يُقال تحجّبت. والحجاب يحجب عن الأعين، على خلاف السفور و«الضهور». هنا أذكر الحادثة التي جرت لجدّي وكانت في طفولتنا موضوع تندّر. فهو حين «ضهر» أوائل القرن العشرين «بالطقم الإفرنجيّ» في شوارع صور، قوبل سلوكه بالاستنكار.

(١) نشرت الكاتبة بحثاً بعنوان «أزياء الشابّات بين الغواية والستر» في كتاب «باحثات السنويّ» العدد ١٤ المخصّص لثقافة الشباب، الصادر عن «تجمّع الباحثات اللبنانيّات (٢٠١٠)

كيف يشذّ رجل مسلم ومحترم عن القاعدة و«يضهر» أمام الناس بزيّ قليل الحشمة يبرز تفاصيل جسمه، ولا أحد يرتدي مثيله سوى المسيحيّين؟! لن يلبث رجال كثيرون بعد ذلك أن يحذوا حذو جدّي المتمرّد. ولكن، بعد دخول الحلفاء المنطقة ستطوى ذكرى «عصيان» الصوريّ المسلم في دفتر النسيان. بل ستجرؤ بعض النسوة على تحدّي المألوف، مثلما فعلت أمّي وبعض الطليعيّات من جيلها في الأربعينيّات، حين تمرّدن على الزيّ الأسود القديم الذي يقال عنه «تركيّ».

لا نعلم «أتركيّاً» كان بالفعل أم لا؟ في لبنان كان هذا الزيّ، يعرف «بالملاية الزمّ». وكان منتشراً في مدن بلاد الشام وتركيا، واليمن. وعديله العباءة السوداء في العراق، وتلك الأقلّ منها تزمّتاً في مصر، والشادور في إيران. يتميّز «التركيّ» بالتعقيد، فهو يتكوّن من عدّة طبقات، تغطي كلّ واحدة منها طبقة تحتها:

على الوجه منديل ينزل مغطّياً العنق.

على الرأس غطاء تشدّه «قمطة»، ينزل على «كاب» ويغطّي الكتفين والظهر.

تحت «الكاب» «تنّورة زمّ» تلفّ على الخصر برباط، وتصل حتّى الكاحل. وبطبيعة الحال، يغلّف الزيّ الأسود كامل الملابس العاديّة التي ترتديها النساء. هؤلاء، في زيارات بعد الظهر، وإذا

ما اطمَأْنَنَّ إلى خلوّ المكان من الرجال، يخلعن الأسود في المنزل المضيف، ويظهرن بملابس ملوّنة وشعر جميل. بعد انتهاء الزيارة ينهضن ويلبسنه. يتوارين خلفه فتتوحّد في ظلّه التقاسيم.

جدّتي ومثيلاتها كنّ يفتخرن بهذا الزيّ. أو لعلّ الأمر كان أشدّ تعقيداً من الزهو البسيط: كان الزيّ جزءاً من شخصيّة المرأة، و«نزعه» ينزع منها مكنوناً جوهريّاً. تحكي جدّتي باحتجاج وغضب، عن ظلم شاه إيران الأسبق الذي أجبر النساء على كشف وجوههنّ! من لا تلتزم الكشف يتدخّل «حرّاس»، كلّفوا بتلك المهمّة، لإجبارها على ذلك. هي مهمّة «المطوّعين» نفسها التي يحكى عنها اليوم، ولكن لهدف مناقض. تذكر جدّتي حكاية مثيرة، وهي أنّ أحد هؤلاء «الحرّاس» نزع بالقوّة المنديل عن وجه سيّدة في الشارع، ليكتشف أنّها زوجته!

جدّتي تحمد ربّها على الحرّيّة التي تتمتّع بها النساء «عندنا» في ارتداء الزيّ المحتشم، زيّ درجت سيّدات الطبقة العليا والوسطى في المدن على لبسه، وذلك قبل أن يتّسع انتشاره وتلبسه نساء القرى. ثمّ بعدئذٍ، يختفي أو يكاد. يقال إنّ المدن تفرض على نسائها شروط الكشف والستر، كما يفرض الريف شروطه. لا غرباء في الريف، وناسه يعيشون عيشة عائلة متمدّنة، والريفيّات بطبيعة عملهنّ في الحقل كاشفات. لذا فإنّ الزيّ الأسود، وبالنظر إلى كلفته وقلّة عملانيّته، كان يعتبر في الريف رفاهية غير ملائمة. في المدن،

صحيح أنّ المرأة لا تعمل خارج البيت، لكنّها تخرج منه ربّما يوميّاً، وتتجوّل في شوارع هي معبر الغرباء، ومقرّ الحكّام الأجانب وعساكر الغزاة الذين، في ابتعادهم عن زوجاتهم وعائلاتهم، يتوقون إلى رؤية امرأة!

عليها إذاً بزيّ محافظ.

وتذكر جدّتي أنّ مسيحيّات جيلها كنّ، في مدينة صور، محجّبات أيضاً، ولكن بلباس خاصّ هو «الإزار». يغطّيهن كاملاً من الرأس حتّى القدمين. وقلّما كنّ يكشفن وجوههنّ. كان «الإزار» أزرق اللون، على الأرجح، تيمّناً بملابس السيّدة العذراء في الأيقونات. ولفترة طويلة بعد ذلك، كنّ يضعن منديلاً على الرأس، لا سيّما في ذهابهنّ إلى الكنيسة. جدّتي، في تشجيعها لي على لبس «الإشارب» كانت تقول: يا بنتي، الخوري طلب إلى بنات الكنيسة أن يضعن أيقونة أو صليباً، وإلّا فكيف يمكن لعازب مقبل على الزواج أن يعرف ديانة فتاة قابلها وأعجبته؟!

في مذكّراتها «جدّتي، أمّي وأنا»[1] تشير صديقتي «جين سعيد مقدسي» إلى أنّ مسيحيّات فلسطين كنّ في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من العشرين، محجّبات بالزيّ الأسود عينه الذي تلبسه المسلمات. في مدينتها «الناصرة» كثيرات منهنّ، حتّى سنوات الأربعينيّات من القرن العشرين كنّ يلبسنه في «الظهور».

(١) Teta mother and me, Jean Said Makdessi, Dar Al-Saqi, Beirut, 2006.

الزيّ نفسه رأيت السيّدات يرتدينه في مدن اليمن، فيما بعد.

أخبرتني شابّة صنعانيّة متمرّدة، أنّها عثرت على طريقة مبتكرة في التنكّر: الظهور بين الناس بلا هذا الزيّ!

كيف يمكن لغريب لم يرها من قبل كاشفة بملابس عاديّة، أن يتعرّفها؟! تقول إنّها دخلت المحاضرات في الجامعة ورافقت زميلاتها وزملاءها في الملعب... فلم يخطر لأحد أنّها هي نفسها. الأمر الوحيد الذي لم تجرؤ على كشفه، صوتها. هكذا بعد التزامها الصمت ساعات، دخلت الحمّام، لبست زيّها التقليديّ، وعادت إلى البيت.

سنوات بعد ذلك، ستتاح لهذه المتمرّدة فرصة السفر إلى إنكلترا. كان أبوها رجلاً متنوّراً جعل أولويّته تعليم البنات أسوة بالأبناء، فشجّعها على السفر. في لندن نزعت الحجاب. ولمّا عادت إلى صنعاء، أقنعت أباها بأن تستبدل بالزيّ الأسود «الإيشارب»، فوافقها. على أنّها، سنوات بعد ذلك، جاءتني بالزيّ الذي خلعته. قالت: «تصوّري، حين ألبسه أشعر بالحرّيّة والراحة! تحت الزيّ أرتدي الثياب التي أرغب فيها، وأتفرّج على الآخرين من دون أن يتفرّج أحد عليّ. أخيراً وجدت الحلّ العمليّ قالت: المعلوم للمعلوم.

ماذا تقصد؟

«الإيشارب» والملابس الحديثة للعمل. واللثمة (الزيّ الأسود) لبعد الظهر. «في زياراتي السيّدات، وارتيادي مجالس القات،

أفعل كما يفعلن. تحت الأسود، أرتدي ما يحلو لأيّ أنثى ارتداؤه: الملابس الفضفاضة الشفّافة ذات الألوان البديعة، وتحتها تنّورة الدانتيل والحرائر...

جميل أليس كذلك؟

مللت من لبس الجينز ؟

* * *

عصر الخباء كان هو نفسه عصر «الحريم». كلمة قلّما كانت شائعة في لبنان، ولا سيّما في المدن، شيوعها في بلدان عربيّة أخرى. الكلمة، على رغم ندرة استخدامها، كانت تسبّب لي الضيق. كنت أكره كلمة «حريم» وأربطها بكلمة أخرى لا علاقة لها بها سوى لجهة الحروف، «حمير». وأستغرب كيف ترضى النساء بمثل هذه التسمية المهينة! وذات مرّة ضبطتني أختي ألعب «الماريل» وأردّد: «حريم حمير. حمير حريم». نهرتني. ثمّ أفهمتني المغزى المهين للكلمة. «عيب أن تقولي عن الحريم: حمير. حريم تعني نساء. خالاتك وعمّاتك حريم. أمّك حريم. «سكتّ. وفي نفسي قلت: «لأ. أمّي مش حمير».

«حريم»، خارجات عن الأنوثة. سجينات البيوت قبل الظهر، وحين يخرجن بعده، يتراءين لي في سيرهنّ مثل صفّ من الأشجار

تتحرّك مكانها. كلّهنّ عجائز: حليمة التي لم تبلغ العشرين، وصفيّة وزينب اللتان تكبرانها بسنوات قليلة، وعليّة وأمّ رقيّة اللتان جاوزتا الستّين أو حتّى السبعين، كلّهنّ في نظري من جيل واحد، ينتمين إلى الزمن نفسه: زمن الحجاب الأسود.

أذكر أنّي ذات مرّة، سألت أمّي، وكانت تتزيّن بالكحل وتضع أحمر الشفاه والخدود، لم تفعل هذا وهي عجوز؟ وإذ بان ضيق على وجهها، سألتها هل هي بالفعل عجوز؟ وتمتمت أمّي بجواب لم أميّزه. وظلّت صورتها متأرجحة في خاطري. الملامح ملامح شابّة والملابس أيضاً، ولكن، حين تخرج من المنزل تختفي في زيّ عجوز!

لو أفصحت لها آنذاك عن فِكَري لضحكت. كانت أمّي تعتبر نفسها «ثوريّة» قبل أن أبصر أنا النور. فهي «الطليعيّة» التي استبدلت «بالزيّ التركيّ» آخر أقلّ منه تزمّتاً: المعطف. تغيير لازم مجيء الفرنسيّين: معطف من الحرير الخفيف صيفاً، ومن الجوخ السميك شتاء. في مقاييس ذاك العصر كان المعطف يعتبر قليل الحشمة. قصيراً وضيّقاً، قد يبرز «مفاتن» المرأة. كبرى عمّاتي، بحسب الرواية، احتجّت على «التقليعة» الجديدة التي ركبت رأس أمّي. جاءت تنقل احتجاجها إلى والدي. يقال إنّها ضربت ساقها بكفّها، لتجسّد انكشافها، إذا ما صعدت أمّي في السيّارة أو صدرت عنها حركة ما أقوى من المعتاد!

ضحك والدي وقال ممازحاً:

- «تخافين على مريم... أن يخطفها منّي رجل؟» ألا تذكرين كيف أثار «الطقم الإفرنجيّ» الذي لبسه أعمامنا غيظ الآخرين؟ أظنّك أنت أيضاً ستتخلّين يوماً عن زيّك القديم».

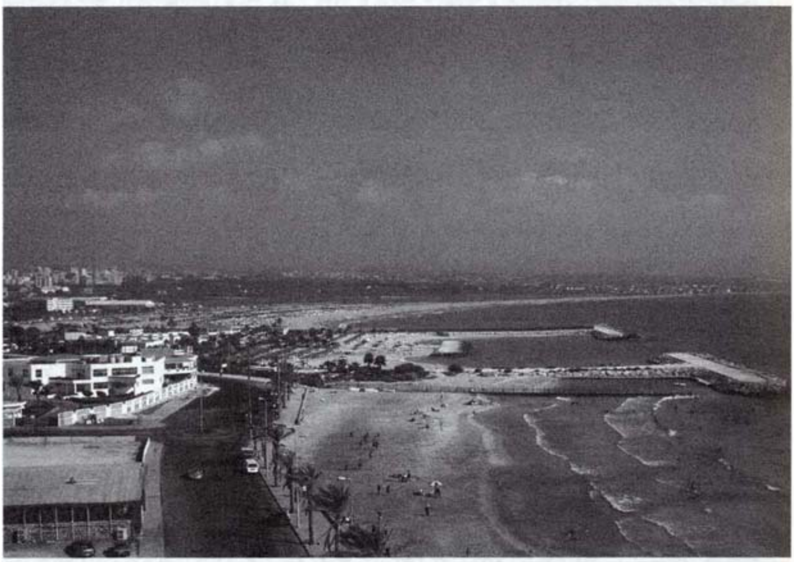
* * *

في خلدي، كانت الأزياء كالأعمار والأدوار، مثبتة على جدار الحياة، وقد خصّتنا الدنيا بأبهاها: «هنّ» عجائز إلى الأبد، ونحن الصغيرات. هنّ أمّهات، جدّات وعمّات، قدرهنّ أن يجلسن قبل الظهر في المنزل. من نصيبهنّ إنكار الذات، ولهنّ طقوس وأزياء يتسلّين بها ريثما تحلّ «الساعة». الساعة الصغرى موعد رجوعهنّ إلى البيت، و«الكبرى» التي لا تستدعي الشرح، في انتظارها يلهجن بالآخرة والجنّة والنار والثواب والعقاب. أمّي، حين يطغى هذا الموضوع على غيره تسكت، أو تبتكر موضوعاً آخر، أكثر جاذبيّة، يخرج هؤلاء الزاهدات من الدائرة المغلقة التي ينعمن فيها. يحلمن بجنّة السماء ونحن في الخارج نرتع في جنّة الأرض، في الحدائق والشوارع، على الشاطئ الذي سنختاره ملعباً ذاك النهار!

بغية الوصول إليه، نركض صوب تلال رملها من تبر! ننبش فيها كنوزاً تركها الأقدمون: أباطرةً، ملوكاً، وأمراء. ثمّ نطلق سيقاننا

للريح. وقد ننزل في الماء، حتّى بملابسنا، ضاربين بعرض الحائط لوم الكبار. كانت خالتي الماهرة في الخياطة، تخيط لنا «مايوهات» على نسق صور من «جورنالات» لفتيات من أعمارنا يلبسن مثيلها. حين نذهب بصحبة أحد الكبار العارفين «بأحوال البحر»، إذّاك ندخله «بالزيّ الرسميّ» الذي خاطته لنا خالتي.

على أنّ جنّة الأرض لم تكن حصريّة لنا، نحن الصغيرات، ولعلّها كانت تُجاوز الشاطئ وتبر الرمال. كان يسعدنا وجود من يقاسمنا النعيم: الشابّات ولا سيّما العازبات منهنّ. فهؤلاء لسن حريماً. والشاهد على ذلك أزياؤهنّ. للحريم الحجاب الرسميّ ولهنّ



الشاطئ الجنوبي لمدينة صور، وامتداده فلسطين

الرمزيّ: غلالة شديدة الرقّة من اللون البنّيّ، الكحليّ أو الأسود، تغطّي الرأس أو تنزل على الوجه. تتلألأ خلفها تقاسيم الأنثى، ولا سيّما أحمر الشفاه «والماسكارا» وكحل العينين، لتبدو أبهى فتنة ممّا لو كان وجهها مكشوفاً. لطالما غبطت الشابّات المسيحيّات زميلاتهنّ المسلمات على هذه الإضافة الخلّابة!

كانت الشابّات، ولا سيّما شقيقاتي، مثلي الأعلى في الأزياء، ولا سيّما في خروجهنّ بعد الظهر بالفساتين «آخر موضة»: التنانير الضيّقة أو الواسعة، الأحزمة التي تحيط بالخصر النحيل، والجوارب النايلون، والأكسسوارات الناعمة والأحذية ذات الكعاب الدقيقة، والحقيبة الصغيرة في طيّ الساعد. كان من شأن ملابسهنّ الجذّابة أن تضع الحدّ في ذهني بين الأزمنة، فيخيّل لي أنّ هؤلاء يحتكرن الصبا والأنوثة والجمال، وقد خلقهنّ الربّ نحيلات الخصر غاويات ورشيقات، حين يمشين على «الكرّوسة»، (الطريق المعبّد، نسبة إلى كاروس) بالكعب العالي الدقيق، يحدثن تكتكة ناعمة لا شأن للعجائز بها. تِك تَك تِك تَك. نغمة تحاكي حركة الجسم الأنثويّ الذي يميل إلى هذه الناحية وتلك.

من دواعي ثقتنا بالمستقبل، التغيّرات الذي حدثت في حياة هؤلاء الشابّات وكنّا شاهدات عليها. عندما ضاقت نفوسهنّ بالحجاب، وصار الرمز موضع تساؤل، بدأن يحلمن بنزعه، خصوصاً بعدما قاد رجل عظيم، يدعى سعد زغلول، في مطلع القرن العشرين،

ثورة لتحرير مصر من حكم الإنكليز. وفي ثورته، دعا النساء إلى خلع الحجاب.

وتحكي أختي ما تقرأه في المجلّات عن تظاهرات قامت بها الشابّات في بعض المدن العربيّة: حلب، حمص والقاهرة. تحكي بحماسة. يقال إنّهنّ سرن في الشارع كاشفات. وتتمنّى أن تنظّم هي وصديقاتها مثيل تلك التظاهرات. يخرجن إلى الشارع ويخترقن السوق التجاريّ، سافرات. «عجباً»، أقول في سرّي! إذا ما كانت تكره الحجاب لهذا الحدّ، ووالدي لا يستسيغ لبسه ، فما الذي يمنعها من أن تحذو حذو صديقتها نادية، أو حتّى حذو شقيقتي الكبرى؟!

كانت تلك قد خلعت الحجاب، ولكن لا في المدينة، كما فعلت نادية، بل على سطح الباخرة التي أقلّتها عروساً إلى ساحل العاج. كانت «طليعيّة» وتضيق بالحجاب كما تضيق، على ما سمعت، «بنون النسوة»! نشرت مقالة في مجلّة «المعهد» تطالب فيها بتحرير المرأة من الحجاب وبحذف هذه «النون». إذا كان الحلم الثاني صعب التحقّق ويتطلّب موافقة «المجمع اللغويّ»، فالأوّل قد بدأ يتحقّق قبل ولادتها.

في مراهقتها، كانت تسأل أبي: «ما رأيك في أن أنزع الحجاب؟ زميلتي في المدرسة، فلانة، ستفعل»!

جواب والدي لم يتغيّر: «أنت قرّرت لبسه بلا استشارتي، وأنت تقرّرين نزعه أو الاستمرار به. افعلي ما ترينه مناسباً لك».

يقول هذا ويحكي عن نساء فاضلات قابلهنّ في هجرته إلى أميركا، لا يغطّين رؤوسهنّ ولا وجوههنّ، ويعملن مثلما الرجال. فلتفعل هي ما تراه مناسباً. القول الذي يحفز شقيقتي لنزع الحجاب،يثنيها في آن معاً عن ذلك! في مثل هذا الموقف ما المناسب لها؟

هكذا استمرّت في الذهاب إلى المدرسة بالغلالة على وجهها، فيما روحها تهجس بنزعها، إلى أن جاءها، من وراء البحار، العريس المرشّح للقبول. وفيما كانت العائلة تتباحث في الموضوع، والقريبات يستفسرن عن المهر والمصاغ والجهاز والعرس، كانت هي منشغلة بنزع الحجاب. شرطها الوحيد على طالب اليد أن يرضى بذلك. وكان المرشّح رجلاً متنوّراً فوافقها على نزعه.

صعدت معه إلى الباخرة. إنطلقت هذه، ومن على سطحها الناس يلوّحون للمودّعين على المرفأ. وبين الفينة والأخرى، تلتفت العروس إلى زوجها لتسأل:

«أنزعه»؟

يضحك!

يضحكه أن تكون مستعجلة لهذا الحدّ!

- «لنفرغ من الوداع على الأقلّ...!

- سيرونني كاشفة على أيّ حال، حين نرجع».

هكذا، على سطح الباخرة، في عرض البحر، كشفت أختي شعرها. كان ذلك أواخر الأربعينيّات.

«كم أنت كريم يا بحر»!

كم أنت كريم، وقد أتحت لفتاة لم تر شوارع مدينتها في الليل سوى مرّات نادرة، ولم تذهب إلى السينما سوى مرّة واحدة مع المدرسة... أن تتجوّل في شوارع مارسيليا في الليل والنهار، وتتعرّف عالماً سمعت به كما في الحكايات، وتراءت لها معالمه كما في المنام.

كم أنت كريم!

على سطح الباخرة «بروفيدانس» ستلاقي غرباء. ومن بين هؤلاء شخصيّات «مميّزة» ستنطبع في خيالها مدّة طويلة من الزمن: رجل شديد الأناقة يخرج بصحبة مرافقين! وشابّتان تخرجان معه بصحبة مرافقات، تجرّ كلّ منهما كلب حراسة.

زوجة الرجل وأخته تخرجان من جناحهما «بريمو أ» إلى سطح الباخرة، فتلقاهما أختي وهي خارجة من غرفتها، من دون لقاء فعليّ.

كان ركّاب الدرجة الأولى بلا (أ) والبريمو (أ) يتقاسمون سطحاً يفصل بين قسميه حاجز غير ثابت، وضع لإبعاد الأمراء عن العامّة. لكنّ عوامل خارجيّة ستتدخّل لإلغاء الحواجز: في اجتياز الباخرة مضيق جبل طارق الذي واكبه موج صاخب، أمسكت الدوخة برؤوس

الركّاب. لكنّ حماسة أختي لأن تشهد المرور في هذا المضيق الذي عبره أبوها منذ ثلاثين عاماً... كانت أكبر من أن تدعها تستسلم للدوخة. خرجت إلى سطح الباخرة في الوقت الذي خرجت فيه إحدى الشابّتين، بلا مرافقات ولا كلاب!

من خلف التقاطع الخشبيّ تبادلت المسافرتان الأحاديث. اللغة عربيّة ولكنّ اللهجة مختلفة!

مصريّة!

أو بالأحرى مزيج من تلك ومن الفرنسيّة.

بين عبارات تقرب من الفهم وأخرى فرنسيّة، فهمت المسافرة اللبنانيّة أنّ الشابّة هذه «كوزين» «الملك فاروق»، أشهر ملوك العرب آنذاك، بالنسبة إلى الشابّات على الأقلّ! فالذاكرة القريبة والصور التي يرينها في المجلّات، تحمل لهنّ مناسبات وحفلات فتّانة:

حفلة عرسه مع الملكة فريدة!

وحفلة تفوقها أهمّيّة: عرس شقيقته فوزيّة في زواجها بملك الملوك: شاه إيران!

إذا ما كان هذا اللقاء «عابراً» بالنسبة إلى «كوزين» الملك، فلم يكن كذلك بالنسبة إلى المسافرة اللبنانيّة. سنوات قليلة، وستقع ثورة (١٩٥٢) ويبحر الملك مع عائلته إلى سويسرا.

ترى ماذا حدث لهاتين المسافرتين؟!

ستتساءل اللبنانيّة طويلاً؛ فإذا كان عقلها قد فرح بالثورة، وإذا كانت تشارك الآخرين في فرحتهم، ففي زاوية ما من نفسها تعطّف لا مراء فيه، على رفيقتين لها في السفر، حادثت إحداهما من وراء «الفاصل الخشبيّ».

* * *

بريدكِ الأمواج

حين أرجع بذاكرتي إلى ذاك الحدّ الفاصل بين الوعي واللاوعي يتراءى لي البحر. له في مدينة صور حضور كثيف، رائع. في زمن ما أكان الرائع هو العاديّ، لكأنّ مشهداً كهذا متاح لكلّ كائن في كلّ مكان.

على أنّ حدس الشعراء يبقى سبّاقاً. هكذا أنشد الشاعر الصوريّ عبّاس بيضون قصيدته الرائعة «صور»، تخليداً للحقبة العذبة السابقة لتدمير أجمل ما صوّر الخالق من بحار و شواطئ.

إحدى تلك، كانت لا تبعد عن منزلنا سوى بضعة أمتار. فسحة من الرمل المرصوص، نجتازها ثمّ نصل إلى الطريق العامّ والرصيف، «وأوب» نغطس في الماء. أينما التفتنا من نوافذ البيت، كان يتراءى لنا البحر. يخيّل لنا أنّ مثل هذا النعيم متاح في كلّ مكان وعصر.

ولمّا بدأت أتنقّل بين شقق بيروت وغرف المدن الجامعيّة في باريس، أدركت حجم الخسارة!

أمّي، كانت تتأفّف من ملوحة البحر. وتتحدّث دائماً بضرورة التجديد. وتدخل في مشاريع من شأنها إصلاح ما أفسده البحر. يزعجها ما يعجب السيّاح: أن تكون المدينة شبه جزيرة!

كنت أحسب تأفّفها من بيّنات طبعها الذي، على شدّة هدوئه، كان عصيّاً على «الإرضاء»! حين كبرت فهمت السبب الموضوعيّ لهذا التأفّف. ملوحة البحر تفتك بالأبواب والشبابيك وطلاء الجدران، وحتّى بالأثاث. وفيما بعد انضمّت الأجهزة الكهربائيّة إلى اللائحة!

كنت أحبّ البحر، ولا سيّما في النهار وفي مواسم الهدوء، وأرهبه في الليل والشتاء. حين تشتدّ العواصف ويلمع البرق وتضرب الرعود جوانب السماء، أغمر رأسي بالغطاء وأغمض عينيّ. لا أنام، وخوفي على أشدّه من أن يكون هناك مركب وصيّاد قد يبتلعهما الموج، أو أن يحدث ما هو أفظع من ذلك! أن يطفو الماء على الشاطئ ويهاجم البيوت والناس، ويغرقهم، كما حدث في طوفان سيّدنا نوح!

كنت في حقيقة الأمر عاتبة على سيّدنا نوح، لأنّه حمّل سفينته بالحيوانات وترك الناس يغرقون. وفكّرت في أنّ سفينتنا نحن، أنا وأخي الذي يصغرني، ستحمل جميع الناس: كلّ الأقارب

والجيران... سكّان المدينة جميعاً سيركبون السفينة التى ستطوف بنا إلى أن ينخفض الماء وننزل إلى الشاطئ!

تحاول جدّتي أن «ترشّد» مشروعي، فتحكي لي الحكاية كما وردت في القرآن الكريم. كنت أفضّل على حكايتها ما ترويه الحاجّة فردوس جدّة صديقتي زينة:

«يا حبيباتي... في كلّ عام تحاول حوريّة من حوريّات الماء الهرب، فيغضب أبوها البحر ويرسل عساكره، العواصف والأمواج، البرق والرعود، لتمنعها من ذلك».

تقول هذا فيما هي تحرّك عينيها الزرقاوين إلى هذه الناحية وتلك:

«حوريّات نصفهنّ الأسفل سمكة، والنصف الأعلى إنسان. شابّات ذوات شعر طويل لا مثيل لجمالهنّ. يهربن ليتفرّجن على دنيانا. لكنّ الحوريّة قد تفعل المستحيل، لتجذب أحداً من أهل اليابسة إلى أعماق البحر! هكذا يغرق المتهوّرون. أمّا هي... فتنجو. ما إن تلمح آدميّاً على الشاطئ، تتمتم بتعويذتها وتفرّ عائدة إلى موطنها المائيّ.

يا سلام! مكان يخلب اللبّ: تلال مرجان وأصداف ولآلئ ذات بريق وألوان، مزروعة في رمال من ذهب، وأسماك مخطّطة، برتقاليّة بنفسجيّة صفراء وخضراء...».

للحاجّة فردوس طريقة في الوصف...!

وللبحر في الخريف والربيع سحر خاصّ! يسعى إلى الشاطئ برفق. ترتمي أمواجه على الرمال بدلال، وينتشر زبد أبيض يُسمع له وشوشة. وش. وش. نحاول الإمساك بالزبد. نجرفه بأكفّنا.

عجباً!

الماء في الكفّ أبيض لا أزرق! كيف يكون الماء أبيض هنا، وأزرق هناك؟!

«البحر مرآة السماء»، تقول جدّتي.

أعجبني القول، واستغربت كيف يكون لجدّتي رأي مميّز، وطريقة في التعبير! حتّى إنّي ذات مرّة في الصفّ، لم أجد صعوبة في الإجابة عن سؤال طرحته المدرّسة:

«لمَ يتغيّر لون البحر» ؟

ـ «البحر مرآة السماء، أجبتها وسط دهشتها ودهشة زميلاتي»!

ثمّ بالحماسة نفسها أضفت:

«ما من شروق يشبه شروقاً آخر».

العبارة هذه أيضاً مسروقة من الجدّة التي كانت تبدأ يومها بمشاهدة الشروق. من على سريرها خلف النافذة تحدّق وتتأمّل. وإذا ما كان الطقس جميلاً صعدت إلى السطح.

ـ «يا جدّتي، ألم تتعبي من مشاهدة الشروق نفسه كلّ يوم؟

ـ «يا ابنتي، ما من شروق مثل آخر».

لجدّتي حجّة الإقناع، وللحاجّة فردوس حكايات الخوارق:

«الحوت العملاق... حين يفقد صوابه، يقفز إلى القمر، يمسكه بأسنانه الضخمة ويلتهم جزءاً منه... فيخسف القمر. ولولا أنّ الأولاد يدورون في الشوارع ويهزجون «إترك قمرنا يا حوت، أحسن ما نفقع ونموت»، لالتهمه تماماً وغلّف الظلام الأرض...

أيّ كارثة أن يختفي القمر من الوجود»؟!

* * *

جدّتي، على ما يبدو، أورثت «عقلانيّتها» لأمّي، حتّى أمسك «المنطق» بعقول أفراد الأسرة من طرفيه الاثنين، إمساكاً لا يترك مجالاً «لترّهات»! ولا مكان فيه لسكب الرصاص والتبصير وكتابة «الكتب» لدى «شيخة الحارة»، أو «شيخ الزيب» القادم بخبراته من فلسطين. ولا تفسيرات مثل أنّ «أمّ عيون» تسبّبت في إتلاف شتلة الدفلى بنظرة منها فقط! الشتلة قتلها الهواء الذي هبّ، باعتراف «نجيّة» نفسها، حين قرّرت أن تسدّ بها الباب لمّا بدأت العاصفة.

أمّي تستخفّ بمعتقدات صديقتها «نجيّة»، كما تستخفّ بالخرزة الزرقاء وفعلها في ردّ الحسد وصدّ قدرات العين الخارقة،

ولا سيّما إن كانت زرقاء اللون. وتسخر من لجوء الأمّهات إلى الحيل ذات المفعول المؤكّد، مثل أن تلبس ابنها ـ أو ابنتها ـ ثياباً بالمقلوب، أو تترك شعرهما منفوشاً بلا تمشيط، وما إلى ذلك من ضروب الخرافات. وعلى رأس تلك تأتي بلا شكّ «رمي الرجوة في البحر»!

فيما هي تحتكم للمنطق، تهتف جارتنا: كم أنت كريم يا بحر!

أمواجك بريد سماويّ يلبّي رجاء النساء .

نعم، إذا ما ألمّ بهنّ اليأس، من مرض استعصى، زوج عصى أو حمل تأخّر، يلجأن إليك كما فعلن عصر ذاك النهار الذي شهدت فيه، طفلةً، على رسائل رمتها «الحريم» في طيّاتك، «رجوةً» لربّ العالمين.

كنّا نسمع بهذا «الطقس» الذي انقرض أو كاد. ولم يخطر لي، أن أغدو يوماً ما جزءاً منه، في ضربة حظّ اخترقت عقلانيّة أمّي: كنت ألهو مع شلّة الصغار على الشاطئ، حين رأيتهنّ مقبلات من البوّابة الغربيّة إلى بحر «الصليب». لفتني أنّ المارّين من الرجال بدأوا ينسحبون. سيحذو الآخرون حذوهم. لا رجل يقتحم خلوة الحريم. سيعرف مَن لم يقترب بعد، أنّ «هذا» العصر للنساء، وأنّ الدافع لقدومهنّ «رمي الرجوة».

انصرفت شلّة الرفقاء على غفلة من الطفلة التي وقفت تتفرّج:

أطياف قادمات بالأسود على شاطئ ذهبيّ يحاذي بحراً أزرق. الهواء يغُلّ بين التنانير فتخفق كما أطراف المناديل. تخشخش! وترفرف «الكابات» على الأكتاف، فيسمع لرفرفتها حفيف. رفعت النساء المناديل عن وجوههنّ، فبدأن مشوارهنّ الساحر. خلعن الأحذية، حملنها، وغطّسن أقدامهنّ في الماء. استدرن يتفرّجن على قرص الشمس وكان يتوهّج باللون البرتقاليّ. ينحدر بتؤدة ويغدو شديد القرب كأنّه سيلامس سطح البحر. قرص الشمس، ذاك المساء كان أشدّ اتّساعاً وقرباً من أيّ مساء آخر.

أقفر الشاطئ فتسمّرت الطفلة في مكانها، مأخوذة بالخوف، ومسحورة بالضوء الفريد. اقتراب النساء، كما الأحاديث التي يتبادلنها سيهدّئ من روعها:

لمجيئهنّ اليوم علاقة بشابّة تدعى «منار»، تزوّجت منذ سنوات ولم تنجب بعد. كلّ منهنّ بدأت تسحب من «صدرها» «الرجوة» التي سترميها! كتابات خُطّت على قصاصات من «ورق» طُويت بعناية، سترمى في البحر. بعضها تطاير وابتعد، وما رُبط منها بحصى سقط وبدأ يغوص! يرمين «الرجوات» فيما يهتفن بالابتهالات. كورس فرديّ جماعيّ يناجي الربّ بأن يمنح «منار» ما تشتهيه كلّ امرأة على وجه الأرض.

على أنّ «منار» نفسها لم تكن بين هؤلاء! لعلّ الابتهال يبلغ مداه الأقصى من دون وجود المعنيّة به! النسوة يرفعن إلى السماء الرؤوس

والأكفّ، يتضرّعن إلى الله عزّ وجلّ، أن يهب عبدته المؤمنة «منار» طفلاً، أن يجعلها تذوق نعمة الأمومة. «يا ربّ العالمين. أنت القادر على كلّ شيء، أرزق ابنتنا الذرّيّة التي تتمنّاها لعبادك الصالحين».

غابت قصاصات الورق. انسحبت النسوة من البحر وابتعدن قليلاً. هناك تحت شجيرات صغيرات، بدأت كلّ منهنّ تخلع زيّها الأسود. الشمس لم تغادر تماماً، ومن الجهة الأخرى من قبّة السماء بدأ القمر في الصعود. في ضوء خافت، ستنزع كلّ منهنّ عصبة رأسها والمنديل و«الكاب» والتنّورة وكلّ ما هو أسود، وتتركه على أغصان الشجر. سيظهرن بفساتين زاهية الألوان، بالأزرق والأخضر، بالأصفر والأحمر، ألوان «باستيل» وأخرى قويّة.

في رواحهنّ ورجوعهنّ بين الشاطئ والبحر، يبدون أشبه بعارضات أو لاعبات أدوار على خشبة مسرح. يتقدّمن ويتراجعن فرادى ومجموعات، مع إيقاع الموج الذي بدأ يمتثل رقّة المساء.

وسيكشفن عن أذرعهنّ: هذه بيضاء وتلك سمراء. هذه شعرها أشقر وتلك بنّيّ أو أسود، شعر مسدل أو مضفور، مزيّن بمناديل الأويا أو بالأمشاط.

ثمّ سيحدث ما لم تكن تتصوّره الصغيرة، ما كان يلزمه عدسة سينمائيّ عبقريّ ليسجّل: من جديد عدن إلى الشاطئ. ها هنّ واقفات من جديد على الشاطئ. كلّ منهنّ ستفكّ رباط شعرها فينسدل على كتفيها. ستفكّ أزرار قميصها وتكشف عن صدرها. سيرفعن صدوراً

عارية نحو السماء، يتضرّعن بكلّ طهر الأمومة التي وهبها لهنّ الرب، وبكلّ الخشوع والشكر لجعلهنّ واسطة استمرار، وجعل أثدائهنّ واسطة حياة... أن يرزق «منار» ما تشتهيه.

الابتهالات تتسارع، والعبارات تتوحّد وتتدفّق، كلّها ترجو العليّ القدير أن يحقّق رجاءها، وينعم عليها بعظيم نعمته: الأمومة.

بين إنشاد وإنشاد، سيأخذن قسطاً من الراحة. توزّعن على الشاطئ. ذلك المساء الباهر، كلّ منهنّ بدت طفلة ترتع، وانشغلت بجمع ما نجمع: أصداف كبيرة أو صغيرة تتموّج ألوانها الزاهية في ضوء القمر. و«ألسنة بحر»، تقول إنّها من خفّان أبيض، ولكنّها، في ضوء القمر، تتوهّج كقطع ماس. سيغرفن من ماء البحر بأوعية أحضرنها خصّيصى لذلك.

بعد قليل ستنتهي النزهة، وترجع كلّ منهنّ إلى خبائها وبيتها، وأنا سأبقى وحدي! على أنّ إحداهنّ، سعدى، التفتت إليّ وأخبرت الحاضرات بأنّها ستصحبني إلى البيت.

أتهيّأ للعودة ممسكة بيدها. كان الوقت ليلاً. التأخّر في العودة لهذا الحدّ... من أكبر الذنوب. قد تضربني أمّي، غير أنّي لا آبه. كنت حزينة منفعلة، وعلى حافة البكاء. غير أنّي، ولأوّل مرّة، لم أكن آبه بعقابها!

من بعيد، وعلى رغم ظلمة الشارع، رأيت أهلي ينتظرون على الشرفة، وقد نزل بعضهم إلى الشارع، للبحث عن الفتاة المفقودة

التي هي أنا! أخي يستعدّ للذهاب إلى الجامع، ليطلب إلى المؤذّن أن يذيع عن فتاة ضائعة اسمها رجا نعمة، ابنة «عبد الحميد» نعمة. لها من العمر ثماني سنوات.

لحسن الحظّ أنّي وصلت قبل ذهابه.

خشية سعدى كانت توازي خشيتي، وهذا ما جعلها «تفبرك» كذبة. «الصغيرة المسكينة... نامت على الشاطئ. ثمّ... لخوفنا عليها أن ترجع في الظلمة وحدها، طلبنا إليها الانتظار.

أمّي التي لا تصدّق الأكاذيب، صدّقت أكذوبة سعدى. تقاسيم وجهها تنضح بالقلق والشفقة. لكنّها سارعت إلى العبوس! قطّبت جبينها وقالت لي وهي تومئ برأسها لأختي «ياللا عالحمّام»! إذ لم يكن يعتمد علينا نحن الصغار، في ما يختصّ «بجودة النظافة» ذات المعايير الصارمة في بيتنا، حتّى قبل ابتكار «الآيزو».

في الحمّام انفجرت بالبكاء.

أمّي ستظنّني أبكي خوفاً من العقاب. لكن لا. سألتني أختي عن سبب بكائي، فقلت لها الحقيقة: إنّي لا أحبّ أمّي، فهي لا ترمي الرجوة ، ولا تهتف للأمواج ولا تلمّ الأصداف ولا لسان البحر، ولا تضع على رأسها منديل الأويا المطرّز... كما سائر النساء!

الأمر الذي يبكيني أضحك أختي. رأيتها تركض إلى الداخل... ثمّ، من زاويتي في الحمّام، سمعت أمّي من الدار تقهقه.

* * *

«هيلين دي طروادة» تخلع حجابها

من صفات القرن العشرين سرعة الإيقاع. ما إن بدأ الحجاب يتوارى في الأوساط الإسلاميّة، حتّى انقلبت الموازين. وبقدوم الستّينيّات انقرض «الإيشارب» أو كاد. صارت الغلالة موضة بائدة أودعتها الأنوثة الجديدة زمن الأمّهات. أمّا الزيّ الأسود، فغدا من صور الأرشيف. وخيّل لنا أنّ ما حدث كان بلا رجعة![1].

لم تعد تلقى في مدينة صور، وحتّى في جوارها الريفيّ، شابّة محجّبة أو نصف محجّبة. ما إن تتزوّج الواحدة يكون شرطها على زوجها، أو شرط زوجها عليها، خلع الحجاب. قريب لي أحبّ فتاة وطالبها بذلك، إذ «لا يعقل لشابّ يساريّ متنوّر أن يسير إلى

(١) خُيّل للأجيال السابقة أنّ نزع «الإيشارب» كان نهائيّاً. بعد عقود سينتشر «الإيشارب» ثانية ملازماً لانخراط النساء في الحياة العامّة وفي النضال السياسيّ، ليغدو في حقبة الثمانينيّات، رمزاً سياسيّاً بامتياز، ولا سيّما في جنوب لبنان.

جانب زوجة تلتزم القديم. ويتساءل ضاحكاً: «ماذا سيقول عنّي الرفقاء»؟!

إستصعبت الفتاة الفكرة، ولكنّ الزواج بطالب اليد فرصة لا تعوّض. وافقته. تقول «أسماء»، إنّها حين خرجت من بيت أهلها بلا «الإيشارب» الذي اعتادته منذ أن كانت في الحادية عشرة من عمرها، كانت تشعر برأسها عارياً، فترفع كفّها بحركة تلقائيّة لتغطّيه. لزم «أسماء» وقت طويل لتعتاد رأسها العاري. لزمها أن تقصّ شعرها كي تعتاد لاحقاً كشفه.

وصارت عبارة «أخلعها» الحجاب، تتردّد كلّما تزوّجت فتاة. وقد تُزفّ في فستان مكشوف الكتفين والظهر، وأحياناً في فندق وحفلة كوكتيل مختلطة. لو غبتَ عن المدينة في تلك الفترة سنوات قلائل، وعدت إليها، لظننت نفسك في مدينة أخرى، استبدلت فيه الشابّات بالإشارب «الميني جوب»، وبالكمّ الطويل «الجابونيز». ما عادت المفاضلة بين سافرة ومحجّبة، بل بين من تلبس بأكمام أو بلا أكمام.

شقيقاتي كنّ سبّاقات إلى نزع الحجاب، والاستمتاع بنتائج ذلك. صرن يصحبن أزواجهنّ، كاشفات، إلى الحفلات الساهرة في مدن الاصطياف وبيروت. حفلات كانت فيما مضى، بالنسبة إلى أهل مدينتنا، وقفاً على رجالها. في نجاحنا بالبكالوريا، دعانا زوج أختي إلى «كازينو المعاملتين» لمشاهدة فرقة راقصة مثيلة التي تعرض

في «المولان روج» في باريس. الصور التذكاريّة تظهر المراهقات الناجحات بفساتين أكمامها «جابونيز» وأختهنّ، صاحبة الدعوة تموّه «الجابونيز» بشال. لن يلبث الشال أن يسقط على المقعد، فلا تهتمّ، ولا أحد يتنبّه لسقوطه.

قصرت التنانير حتّى بدت مثل «الشورت». ذات يوم ضربت صديقتي بابي، وحين فتحته صعقت: «عزيزتي، نسيت ارتداء التنّورة؟

- «لا يا عزيزتي، هذا «روب مانتو». فستان!

* * *

المدينة أيضاً، في تلك الحقبة، بدأت تخلع حجابها. قبل الخمسينيّات، كانت نادرة المنازل التي تخالف التشكيل السائد، وتخرج عن الكتلة الحجريّة الأمّ، إلى الضواحي الفسيحة، شأن المنزل الذي كبرت فيه والذي كان يطلّ على البحر. في الذهاب إلى المدرسة، كان علينا اجتياز الشارع العريض، وصولاً إلى قلب المدينة القديمة.

غريبة كانت علاقة المدينة وأهلها بالبحر. لزمن طويل أدارت له ظهرها، وتكوّرت على نفسها! إنسحبت، وأهلها انسحبوا إلى الداخل مدّة طويلة، بعد انتهاء عصوز الفوضى والقرصنة!

البيوت تتلاصق، يحتمي البيت بالبيت، في دروب ضيّقة يستحيل على السيّارات ولوجها. كانت تلك تقف في الخارج على «البوّابة». لا ريب في أنّ تلك، شأن سائر بوّابات المدن، كانت في الماضي تقفل ليلاً في وجه الغرباء والطامعين! وتفتح نهاراً، ومعها الأسواق التجاريّة، للراغبين في التبادل والشراء..

على رغم ضيق دروبها، لم تكن الأسواق صغيرة مقابلة بحجم المدينة. كانت طويلة لجهة الامتداد، وشديدة التنوّع لجهة البضائع، شأن أسواق المدن التي تؤمّن حاجات الأرياف المحيطة بها. المقاهي القليلة القائمة بين البوّابة والداخل كانت ذكوريّة بامتياز. لن تجد امرأة واحدة تعبر عتبتها. مقاهٍ تمتلئ، ولا سيّما بعد الظهر، بهواة النارجيلة واللعب بالورق. كانت تلك المقاهي ثقيلة الحضور علينا نحن الفتيات، تجعلنا نتهيّب المرور بها، وتحمّل نظرات فضوليّة قد تلاحقنا ريثما نتوارى.

على أنّ الموروث الذي ساد زمناً طويلاً، لن يلبث أن يتغيّر. بدأت المدينة تخرج من قوقعتها، وتخلّى السكّان عن انكماشهم، وبدأوا يغادرون الحارات القديمة. حدثت مصالحة بين البحر والبرّ، وشهدت الشواطئ الثلاثة سلسلة من العمارات والبيوت شيّدت قبالتها، وشرّعت نوافذها و«فيراندات» طويلة عريضة على البحار الرحبة البديعة التي حباها الله بها.

واكب هذه «الهجرة» ازدهارٌ عامّ، وهجرةٌ من الريف، وأسهمت

في تشكيل صورة جديدة للمدينة، تأنّث فيها العامّ، وانتشرت مقاهٍ ومطاعم تختلف عمّا سبقها، مختلطة أقيمت جنباً إلى جنب هي والمقاهي التقليديّة. تغيّرت شبه الجزيرة، وبدأت تسير كما غيرها من مدن لبنان، على خطى العاصمة بيروت. وهذه، للطفرة التي شهدتها، لازدهارها الثقافيّ والاقتصاديّ وانفتاحها، صارت تلقّب بسويسرا الشرق. مقاهي الأرصفة تنتشر قبالة صخرة الروشة، وفي شارع الحمرا الذي غدا أشبه بمدينة غربيّة، فيها يرتاد الناس المقاهي ارتيادهم مقاهي السان ميشيل أو السان جيرمين في باريس. غدت المقاهي جزءاً من الحياة العامّة، للترفيه والتبادل الثقافيّ، ولا سيّما لطلبة الجامعات والمسيّسين منهم. في تلك الآونة نشرت ليلى بعلبكي روايتها الطليعيّة «أنا أحيا» حيث البطلة تتعرّف في المقهى المقابل للجامعة الأمريكيّة، بالرجل الذي ستحبّه.

* * *

وبدأت الإناث بارتياد الشواطئ. بعضهنّ يرتدنه في السرّ بعيداً عن عيون ذويهنّ. يلبسن المايّوه ويمضين ساعات على «البلاج». أخو «سميّة» مرّ بجانبها على الشاطئ فلم يتنبّه لوجودها. كيف له أن يتنبّه وما رآها من قبل بالمايّوه وبنظّارات كبيرة تغطّي نصف وجهها الذي تتكفّل القبّعة الواسعة بتمويه نصفه الآخر؟!

لارتياد الشواطئ مستلزمات تستعدّ لها الشابّات منذ الربيع. لو

ارتَدْتَ «اللونغ بيتش»، «السبورتنغ» الريفييرا أو السان جورج، فستظنّ أنّ مهرجاناً أقيم فيها، غايته، إضافة إلى الاستمتاع بالبحر والشمس، عرض أزياء البحر:

مايّوهات قطعة واحدة، بالمعنى «القديم» للكلمة حتماً! قبل أن تسمح بعض الشواطئ في العالم، أن ترتادها نساء عاريات الصدور، وتظهر تقليعة البكيني أو «الميني» الذي غنّت له داليدا أغنيتها الشهيرة.

قبّعات من قشّ أو من أقمشة ذات ألوان وأزهار تحاكي الورد والأقحوان.

حقائب صمّمت في لبنان أو أوروبّا.

«قباقيب» تختال بها الشابّات، صمّمت من خشب خصّيصى «للبيتش». وإن كانت اليافعات يفضّلن السير حافيات على الباطون أو الرمل، تمهيداً للنزول في الماء.

الشبّان والشابّات يتنافسون على السباحة في عرض البحر، فيما يصعد هواة الغطس إلى «الرادو». يأخذون دوراً لهم على خشبة تعلو أمتاراً، ويقفزون. يغيبون لحظة في عمق الماء قبل أن يطلّوا منه ملوّحين بالأكفّ. الموسيقى والأغنيات ترافق الغطس والعوم والرواح والمجيء، وتؤكّد الإحساس بالانطلاق. صخب وتسامر وجلسات رومانسيّة، أو فرديّة تنشد الاسترخاء. فتيات يلمّعن أجسامهنّ بالزيت

المخصّص لسمرة مغمّسة بلون البرتقال. سمرة طازجة يدخلن بها إلى الحمّامات ليأخذن «الدوش»، ثمّ يخرجن بمناشف ملوّنة. وعلى صوت فيروز العذب تغنّي «هل تحمّمت بعطر، وتنشّفت بنور»، كلّ منهنّ ستعاود الاسترخاء على الكرسيّ الطويل، تاركة شمس الأصيل تجفّف شعرها.

يستسلمن «للعطر والنور» استعداداً لسهرة تنتظرهنّ الليلة، فيما صوت «آدامو» الرخيم يصدح بأغنيته الشهيرة، Tombe la neige، يناجي بها الصقيع! يناجي حبيبة تركته وحيداً ذاك المساء. لن تأتي!

اليأس يحدّثه بذلك، وعصفور شارد على الشجر، مثله يذرف دموعاً بيضاء، ملتاعاً بالعزلة وقد أحكم الثلج الحصار.

Tombe la neige.

* * *

خلعن الحجاب ولكن...

الزمن ليس دائما هو نفسه، لمن يحيا فيه، والروزنامة ليست مرادفة دائماً للعصر، والانقلاب الذي شهده القرن العشرون لن يمرّ على جميع الإناث بلا ألم، شأن الألم الذي كابدته صديقتي زينة، حين قرّرت أمّها أن تسير عكس التيّار وتلبس «الإيشارب».

طيلة عمري، سيظلّ موقف الأمّ من حجاب ابنتها عصيّاً على

الفهم! إذا ما كانت هذه الأمّ تعبد ابنتها وتبالغ في تدليلها، فلمَ تجبرها على ما تمقته نفسها! كان تمرّد زينة أقوى من أن يجعلها تمتثل لقرار أمّها، وتتزيّا بما يجعلها مختلفة عن بنات جيلها اختلافاً لم يكن آنذاك لمصلحتها.

لم يكن «الإيشارب» يشبه زينة، ولا أمّها تشبه اللواتي تمسّكن به لبناتهنّ! أمثال زينة لم يلبسنه بتاتاً، على وجه التقريب. فالسفور كان لا يخلو من معايير. ونادراً في تلك الفترة، ما تحجّبت فتاة مثل زينة. كانت من عائلة ميسورة أخرجت شعراء ومثقّفين، وكانت أمّها متعلّمة، أنهت المرحلة الثانويّة في بيروت، آخر ما كانت تصبو له شابّة في زمنها. تعرف الفرنسيّة، ولديها شغف كبير بالمطالعة. عملت مدرّسة قبل أن تتزوّج وتنجب. ولطالما كانت تحلم بإنشاء مدرسة «نموذجيّة». تنتظر فقط «الرخصة» التي تقف عثرة في طريقها.

منذ أن اتّخذت والدة زينة «قرارها»، بدأت أمقتها. ما يؤلم صديقة طفولتي، كان يسبّب لي الألم. كنّا مثل توأمين ولدتا في أسرتين متغايرتين. حين نخرج معاً تمسك الواحدة منّا بيد الأخرى. وحين تمرض زينة أنام بجانبها، فتنتقل العدوى منها إليّ. هكذا مرضنا معاً «بالحمراء» و«الحصبة الألمانيّة» و«أبو كعب» وحرارة اللقاحات. كنت في السابعة حين جاءت زينة إلى مدرستنا، وما لبثت أواصر الصداقة أن توطّدت بيننا. وزادت تلك بحكاية ذات ملمح



فكاهيّ، فكلّ منّا كانت - في المتخيّل - «مخطوبة» لملك. وكان لتلك الخطبة حكاية:

ذات مرّة وفيما كانت زينة جالسة في حضن أمّها، وهذه «تملّس» شعرها، قالت لها ما سيصيبني بالذهول! أو على الأصحّ بالصدمة. قالت إنّها ستزوّجها بالملك! هو ملك شابّ، نعم، ملك العراق الذي توّج حديثاً: الملك فيصل!

زينة ستجلس على العرش، وتاج الذهب المرصّع بالماس والمجوهرات يكلّل رأسها. وبجانبها يجلس أميرها المتوّج ملكاً!

أسقط في يدي!

إن كانت زينة ستتزوّج الملك، فأنا من سأتزوّج؟!

وعلى رغم حبّي الشديد لها، أصابتني غيرة. أمّي لا تأخذني في

حضنها إلّا في «ملمّات» المرض. ولا تغنّي لخصلات شعري كما تفعل سعاد والدة زينة. ولم تذكر في حياتها، قطّ، أنها ستزوّجني ملكاً!

ولا غيره!

هكذا، ما إن سمعت سعاد تعطي وعدها لزينة، أسرعت في العودة إلى البيت «شاكية باكية» كما يقولون، وأختي من فورها سألتني عمّا بي. وأنا في عجزي عن الإجابة انفجرت بالبكاء. جاء إخوتي على صوت بكائي، فيما كنت أتعثّر في الإجابة:

- «زينة...

- ما بها زينة ؟!

- أمّها ستزوّجها الملك، الملك فيصل، ملك العراق.»

لم يخطر لي أنّ السبب الذي يبكيني سيقهقه له إخوتي. ومداراة لشعوري، قالت أختي بلهجة تُراوح بين الدعابة والجدّ:

- «لا تقلقي يا أختي. نزوّجك ملكاً آخر؟

- ملكاً آخر؟! من هو؟

- ابن عمّ الملك فيصل الذي ستتزوّجه زينة. ابن عمّه بالذات، ملك الأردنّ.

الابتسامة على فم شقيقتي تلوح بالوجه الخرافيّ للمسألة، لكنّ السياق في مجمله يغري بالتصديق!

«ليه لأ»، قال أخي. «لكن هل سيهون عليك تركنا»؟

وخطرت لي فكرة أن آخذ أهلي معي جميعاً، إلى قصر الملك، أهنأ بوجودهم وبوجود زينة. يعجبني أن نصبح هي وأنا قريبتين وتستمرّ صداقتنا مدى الحياة، كلّ منّا أميرة متوّجة، وأهلها وإخوتها شاهدون على ذلك. منذ تلك الحكاية، صرنا حين نلعب «مسرح» ونفصّل تنانير وتيجاناً من ورق، نرفل أنا وزينة، في عالمنا الوهميّ، كما لو أنّنا نتهيّأ للجلوس «عروستين أميرتين» على العرش! ونتحدّث بتفاصيل مستوحاة من الحكاية السحريّة «سندريللا».

«الخطوبة» شدّت أزري. صرت أستخفّ «بمقاهرة» أختي لي وأذكّرها بها، كي تتّخذ الاحتياطات اللازمة في معاملتها لي. كان يحلو لها أن تغيظني حين تأكل «البونبون» فتعمل «طق طق» بأقوى ممّا ينبغي.

ماذا لو فعلت هذا بحضور الملك؟!

وتقول: «نكاية فيك وفي زينة وفي الملك».

أسباب كثيرة كانت في طفولتي تجذبني إلى «عالم» زينة. كانت أمّها، بخلاف أمّي، قويّة المشاعر. غرامها بابنتها وفيض مشاعرها يفتنانني. تغنّجها. تجلسها على ركبتيها، تغمرها بالقبلات، وتغنّي لشعرها الجميل ولعينيها «النجلاوين». تقول فيها قصائد ذات إيقاع، بعضها لشعراء، والبعض الآخر من نظمها هي بالذات.

وكان لجدّة زينة، الحاجّة فردوس، أيضاً، جاذبيّة مفرطة: تبهرنا بالحكايات الخرافيّة التي حفظتها: السندباد والشاطر حسن وعلاء الدين ومغارة علي بابا، وحكايات أخرى مخيفة يجود بها خيالها: حكاية الحصان الطائر الذي حارب خطف زوجات السلطان الأربع، وطار بهنّ، و«الغوليّة» التي تطرح ثدييها على هذا الكتف وذاك، بانتظار أن تلتهم من يخالف أمرها أو يفك غامض «حزازيرها»، وحكاية الأفعى العملاقة التي رأتها هي بأمّ العين، وكانت في مثل عمرنا... «أفعى لها أوّل وليس لها آخر»، كانت تزحف على تراب الخراب، وزحفها استغرق أكثر من ساعة، والأجراس في أعلى رأسها ترنّ رنيناً رهيباً سمّرها، هي، فردوس، في مكانها خلف الحائط، تتمسّك بحجارة الخفّان، تنظر من ثقوبها وترتعش. ظلّت على حالها متسمّرة مكانها، إلى أن دخلت الأفعى أعماق البحر.

ممّا كان يزيد من غرائبيّة حكاياتها، «الديكور» الذي كانت تجلس فيه هذه «الشيخة» الهرمة التي تشبه شخصيّات حكاياها، ولكأنّها واحدة منها: الغرفة كما المنزل شديدة الاتّساع، عالية السقف، فيروزيّة الجدران، مليئة بمختلف أنواع الأمتعة، بعضها رفيع الصنع من الأرابسك الفاخر، والآخر تصحّ تسميته «كراكيب».

وكان لها فراشان، أحدهما تمضي فيه أوقات النهار، وآخر في الناحية المقابلة لا يبعد عنه كثيراً، مخصّص للنوم في الليل. كانت

تكره أن تختلط الأزمنة والفرش، كرهها أن تخيط لها الملابس غير الخيّاطة «رنجس».

وفي سردها فصول الحكايات، وملابسها التي تصلح للعجائز كما للأطفال، وعينيها الزرقاوين وشعرها الأبيض المنفوش كندف الثلج، كانت الحاجّة فردوس تغدو الراوية والبطلة في آن معاً: نظراتها تبرق بالفزع. وحركات كفّيها تحاكي مسار الحدث، صعوداً هبوطاً، إلى هذه الناحية وتلك. حركات تجعلنا نرى ثديي الغوليّة، ونسمع أجراس الأفعى، بل نراهما ذينك الجرسين، حين ترفع فردوس كفّيها إلى أذنيها! نعم، تلك هي «أمّ الأجراس» تنذر سامعيها بمرورها في درب «الخراب».

من ستجرؤ على المرور بتلك الدرب بعد ذلك؟!

حين تتعب من فراشها، تطلب الحاجّة فردوس أن ننقلها إلى الخارج. نناولها عصا العاج التي تحافظ عليها حفاظها على روحها، فهي من إرث أبيها الذي فضّلها بها على إخوتها الرجال... تتعكّز عليها من ناحية، وعلينا من الناحية الأخرى، ونخرج جوقة إلى الدار الرحب حيث نجلسها في الكنبة، كأنّنا لا ننقل امرأة هرمة، بل الهرم الأكبر نفسه.

قابعة في تلك الكنبة، قصّت علينا حكايات كثيرة. كلّها من الخوارق. على أنّ واحدةً منها ستبدو كأنّها حدثٌ من الواقع، قصّته

علينا فيما هي تبكي وتشهق! وختمته بالدعاء للمظلومين في الأرض، والاقتصاص من الظالمين: قصّة أهل فلسطين... وكيف قتل اليهود شبابهم واحتلّوا بلادهم وطردوهم منها.

* * *

لن تلبث الأحلام التي توجّتنا، أنا وزينة أميرتين، أن تذهب مع الريح. نعم، ستُمنى هذه الأحلام بضربة «المراهقة»، المستلزمات التي ستسلب زينة، لا سحر الإمارة وحسب، بل سائر أسباب الغواية التي كنت أغبطها عليها.

أشفقت كثيراً على زينة من حجابها. تبدو لي فيه، لا هي بصغيرة تلعب، ولا بشابّة تتأهّب للزواج. أن تلتزم «بالإيشارب» يعني أن تنخرط في صفوف الجالسات قبل الظهر في البيت، وتنهمك مثلهنّ بأعباء المنزل التي كنت أمقت انهماك الإناث بها! في حجابها، ستنضمّ زينة إلى رعيل هؤلاء. لن تذهب معنا إلى ساحة العيد، ولن تركب المراجيح، خشية أن يطيّر الهواء تنّورتها وتكشف عن سيقانها. ستحرم من الدوّيخات ذات الأحصنة والمقاعد الملوّنة: حصان، مقعد، هذا للصبيان، وذاك للبنات. ولن تصعد في الشقليبات المزيّنة بالرسوم، والتي حين ترتفع يعلو صياحنا نحن البنات، كما تعلو صرخات الصبيان هزءاً من جبننا، فيما في النزول تصدح الحناجر كلّها بالأهازيج. زينة، لن تتفرّج معنا على «عنتر وعبلة» في الرسوم

المتحرّكة « بصندوق الفرجة». سمعتها مرّة تستحلف أمّها بأن تترك لها تلك الفرصة فقط: أن ترى «عنتر وعبلة» في صندوق الفرجة.

على أنّ زينة لم تستسلم تماماً! صحيح أنّها حرمت من تلك المتع، إلّا أنّها واظبت على ارتياد الشاطئ. لابسة «الإيشارب»، ستأتينا إليه. تكتفي بغمس رجليها أو ساقيها في الماء، رافعة تنّورتها كي لا تبتلّ وتكتشف أمّها فعلتها الشنيعة. بين رغبتها في ملازمة الشاطئ وتذكّرها «الممنوع»، يتجهّم وجه زينة، فتبدو مستغرقة في اللعب، فيما الهمّ يلوح على وجهها.

كنت قد دخلت في الماء وبدأت أعوم، وهي تحاول أن تحفظ توازنها عند مدخل البحر. لحظة الموازنة هذه، اجتاحتني شفقة غريبة عليها! كنت أنا ألعب «عن جدّ» وكأنّي لن أكبر أبداً، وهي «تسلّي» أوقاتها، خلسة، ريثما تعود إلى البيت محجّبة! في تسليتها سينزل «الإيشارب» عن رأسها. لن تسوّي وضعه إلّا عندما ينتهي اللعب. إذّاك ستنهض للعودة إلى البيت وقد أحكمت رباطه.

الجمال الذي وهبه الله لزينة، والذي في الطفولة كان يملأ أمّها سعاد زهواً، غدا منذ ترقّبها مراهقة ابنتها يسبّب لها الإرباك، وأحياناً الكدر. في عودتها من الخارج تقابلها أمّها بوجه عبوس. لا تجيب عن الأسئلة التي تحاول زينة ترطيب الجوّ بها. على الأرجح أنّها، في خضمّ تناقضاتها، وجدت الحلّ في «الإيشارب». في خيالها كانت تتمنّى لها أن تحذو حذو «عزيزة» بنت الجيران، وترمي على وجهها

الغلالة البنّيّة الشفّافة التي من شأنها أن تزيد من جمال عينيها، وتفتن فارس الأحلام، كما حدث أن فتنت «عزيزة» «حسّاناً» ابن الشيخ نعمان.

لا تفتأ سعاد تحكي القصّة وتسترجع فصولها: «عزيزة، لم تكن تحلم، ولا في المنام، بعريس مثل حسّان»! لكنّ «النصيب»! حين يقع نصيب الفتاة، لا شيء يقف في دربه. أثناء مرورها في الطريق العامّ، توقّفت عزيزة لتحيّي خالتها. لحظة السلام التي رفعت فيها الغلالة عن وجهها، زامنَها مرور الشابّ. يذكر حسّان أنّه لا ينسى ذاك المشهد. لا ينسى حركة كفّها الصغيرة، ولا كيف، عندما فوجئت بمروره، أسرعت تلقي الغلالة على وجهها بارتباك رقيق. رقّة ما بعدها رقّة... يقول، فيما منديلها يموّه قدر ما يكشف من سحر عينيها وانفعالاتها.

«الفتنة البريئة»، تقول سعاد. «حتّى المسيحيّات يتمنّين أن يرمين المنديل الشفّاف على وجوههنّ!».

بشغف رومانسيّ، متوقّفة بين العبارات، تروي والدة زينة القصّة التي مضى عليها أكثر من عشر سنوات، وكأنّما جرت البارحة. وفي كلّ مرّة تضيف أشياء وتمعن بلاغة في التعبير عن أشياء، بلاغة كلاميّة وأخرى عاطفيّة: كان هو من الأعيان، و«عزيزة» كانت فتاة متواضعة، غير أنّها حلوة الملامح، حسنة السلوك. «حسن السلوك هو لا شكّ أعظم ثروة تملكها فتاة».

والدة زينة تعرف، بالعقل، أنّ زمن «الغلالة» قد ولّى. لكنّ حلمها بأن تحظى ابنتها، ذات الحسن والدلال، بنصيب لم يحدث... يجعلها تلبسها في المتخيّل ما سيكون عنصر جاذبيّة للنصيب! قد يمرّ فتى الأحلام مصادفة في سيّارته، ويقع بصره على هذه الصبيّة التي أدبها يضاهي جمالها، والتي ترمي الغلالة على وجهها في عصر بدأت الفتيات يستهترن فيه بالتقاليد!

ويحدث أن تلهج سعاد لابنتها بمستقبل آخر: أن تنبغ في العلم، فتصبح محامية، طبيبة، أو كاتبة وشاعرة تطير شهرتها في آفاق البلاد التي تقرأ العربيّة. وما أشدّها اتّساعاً... ويتسامع الناس بأدبها الرفيع. ومن يدري؟ لعلّ شهرتها ستبلغ الأمير المشتهى نفسه، فيأتي يخطب ودّ الفتاة التي علمها يضاهي جمالها.

لكن... ماذا لو خرجت الابنة المتمرّدة عن «السراط المستقيم»، ودمّر سلوكها كلّ شيء؟!

الأمّ، بالحاسّة التي يهبها الخالق للإناث، ولا سيّما الهاجسات منهنّ، تحدس بأنّ تمرّد ابنتها قد يودي بها إلى مصير غير مرغوب فيه! صارت، وبكلّ الطاقة التي تولّدها المخاوف، تتصدّى لها. لحظة الوساوس هي في الغالب لحظة الغضب والمباغتة، وكلّ ما عداها ذرائع: غرّة الشعر، وطيّ الأكمام، وتضييق التنانير، والمبالغة في شدّ الحزام، وغير ذلك من المخالفات... وباتت تخرج عن طورها لأتفه الأسباب، فتباغت ابنتها بالصراخ، وقد تهجم عليها لتصفعها. وزينة

تتحفّز لتلقّي الهجوم عاجزة عن التنبّؤ بالعواقب. تتّسع عيناها حتّى تلامس أهدابها حاجبيها، وينضح عن تقاسيمها تعبير يُراوح بين الذعر والتحدّي.

منذ بدء مراهقتها استحكمت عداوة بين شعر البنت وبين الأمّ. تطلب إليها أن تجعله ضفيرة إلى الخلف، أو اثنتين إلى هذه الناحية وتلك. لكنّ زينة، قصّت غرّة وفي الخفاء، تفرد شعرها على كتفيها، وإذا ما تناهى لها قدوم أمّها سارعت إلى ربطه.

في ذهابها إلى المدرسة، لم تعد زينة تمرّ من الدرب القصير المعلوم الذي تمرّ به سائر فتيات المدينة... الدرب الذي يصل البيوت بالسوق التجاريّ، ويفضي من ثمّ إلى الهضبة حيث تقع المدرسة. سرّاً بدأت زينة تمرّ من الدرب الطويل، «درب الخراب». قلّما تعبره فتاة بمفردها. كنت أخاف على زينة من هذا المكان شبه المقفر، خوفي السابق من مصير ليلى في حكايتها مع الذئب الذي لم يكن سببه سوى تغييرها «درب التعليمات».

كان يلزمه «كاميرا» ترقى إلى سحره، ذاك المشهد! المراهقة في عبورها سور المقبرة وإلى يمينها البحر، تسير متمهّلة، رافعة رأسها مستمتعة بطبيعة تشبهها، مستمتعة بشعرها الكستنائيّ اللمّاع نازلاً على كتفيها والهواء يدغدغ خيوطه. تحلم بالمجهول وبأمير يمرّ. عدسة فيللينيّة لتسجيل صورة «أفروديت» وقد أغدق عليها الربّ أجمل ما عرفته بنات العرب: عينا غزال ولكن بلون الشهد، وأهداب طويلة فاحمة تجعل العسليّ، في الضوء، يتراءى لك بلون ورق الخريف.

الربّ أعطى فأدهش، تقول الأمّ!

وزينة تجاهر بكره «الإيشارب»، بكره الكلمة التي تعبّر عنه!

سيبدأ اللغط حول مرور زينة من درب الخراب. يقال: تلاقي ابن الجيران. أصداء تصل لحدس الأمّ، فتفقد السيطرة على نفسها، وتهجم على زينة تشدّها من غرّتها.

صرت أنا أيضاً أضيق بهذه الغرّة التي خلقت الشقاق بين الأمّ والابنة التي تعبد! ومباغتة الأمّ زينة ترمي في قلبي الهلع، فأفكّر في أن أهرع إليها وأحميها من قبضتها الغاضبة. وبدأت أشعر بالذنب من أن تهان صديقة طفولتي أمامي. هكذا صرت أتجنّب الذهاب إليها. وساعدت الأمّ في ابتعادي، حين نهرتني مرّة على ملابسي غير المحتشمة. البنطلون وكمّ الجابونيز. وطلبت إليّ أن لا آتي إليهم بمثل هذه الملابس. صارت زينة تأتي إليّ أو أرافقها بعد الانصراف، بزيّ المدرسة «المحتشم»، لندرس معاً.

لجهة عدد السنوات، كانت زينة تكبرني بعام ونصف. لكن، ولأنّ زمن المشاعر هو غير المكتوب في السجلّات، بدا فارق العمر بيننا كأنّه دهر. التغيّرات التي طرأت على زينة انعكست على علاقتها بي. لم أعد أعني لها ما كنت أعنيه في السابق. أشياء كثيرة لم تعد تعنيها بعد التغيّرات التي كانت لازمتها أغنيات عبدالحليم حافظ.

من ناحيتي، كنت أرى ضديقتي الملتاعة وقد عصفت بروحها

الأهواء، تتقوقع في شرنقة وحدتها، التي تزداد كثافة حين ألقاها. إن كانت «الغرّة» قد غدت رمزاً لضرب العلاقة بينها وبين أمّها، فأغاني عبدالحليم حافظ باتت خلاصة ابتعاد زينة عنّي.

في الصفّ، فيما المدرّس يشرح الدرس، تنشغل هي بصورة عبدالحليم. تخرجها من المحفظة وتتأمّلها تحت الطاولة، وتدمع عيناها. وقد لا تنزل إلى الملعب في استراحة الساعة العاشرة. تقول اتركيني. صداع رهيب يمسك برأسي. تقول هذا فيما تمسح دموعها. وذات مرّة انفجرت بوجهي باكية وقالت: «أنت لا تفهمين شيئاً، أرجو منك أن تتركيني». ولعلّها في تلك الفترة كرهتني. كنت أحيا هناء طفولة ممتدّة، وتكابد هي شقاء مراهقة مبكّرة وعنيفة.

غير أنّها، ذات مرّة، عادت وأبدت رغبة في أن تبوح لي بما يعذّبها: حبّها ابن الجيران. ستهرب معه إلى بيروت. قالت هذا وأجهشت بالبكاء. تلطم خدّيها وتبكي: إن كانت ستشمت بأمّها، فهي تشفق على أبيها الذي قد لا يحتمل مثل هذه الصدمة.

عجباً! إن كانت المسألة تعذّبها لهذا الحدّ، فلم الهرب؟!

«لأنّه يعبدها، وهي تعبده».

- وكيف ستدبّران أمر المعيشة؟

كان مراهقاً هو الآخر، يكبرها بثلاث سنوات.

- سيعمل ونستأجر غرفة.

عبّرت زينة عن مسألة العمل، وحكت لي كيف أنّه سيمسك بيدها ويذهبان إلى الشاطئ. هناك حيث لا أحد يعرفهما، يسيران على الرمل حافيين يركضان. يسبحان فلا يعترضهما أحد.

منذ أن حمّلتني زينة مسؤوليّة سرّها، بات القلق رفيقي. أنتظر وصولها كلّ يوم إلى المدرسة. وإن تأخّرت تذرّعت بالحجج للخروج من الصفّ إلى الملعب. ها هي وصلت! متأخّرة، ولكنّها وصلت! أدخل إلى الصفّ. كان ذلك قبل أن تخطر لي الفكرة التي ستزيح الهمّ عن كتفي: لا، لن تهرب. يستحيل عليها أن تفعل. فالسائق يعرف جميع الناس، وسيتعرّفها ويسألها لم هي ذاهبة إلى بيروت بمفردها؟ سيعيدها إلى أبيها. وهذا سيمسك بيدها ويرجعها إلى البيت. وكما في العادة، سيكلّمها بالهدوء ويقبّل وجنتيها. سيحميها من غضب أمّها سعاد...

لن تنجح في الهرب!

كنت سأنعم بالراحة لولا أنّها ذات مرّة، أجابت وبتحدّ:

- «سننجح. لدينا خطّة».

- ما هي؟

- سأتنكّر.

- تتنكّرين؟

نعم بزيّ جدّتي فردوس. كيف يمكن للسائق، وأنا بذاك الزيّ... والمنديل السميك على وجهي، أن يميّزني من أيّ امرأة أخرى؟!

كان اللغط حول سلوكها قد اشتدّ. وتناهى إلى الأمّ إشاعة الهرب التي همست بها الألسن، فقرّرت إبعاد ابنتها المتمرّدة، كلّيّاً، عن المدينة.هكذا أرسلتها إلى مدرسة داخليّة في بيروت. وعلى رغم ألم الفراق، نعمت أنا براحة البال.

في أوّل إجازة طويلة، إجازة عيد الميلاد، عادت زينة إلينا بهيئة أخرى! عادت «هيلين دي طروادة»! بطلة الفيلم الذي ذاع صيته. في بيروت كانت تقضي يوم الأحد لدى قريبة للعائلة، وقد صحبتها يوماً إلى السينما، وشاهدت «حصار طروادة» فبدا واضحاً أنّها فتنت ببطلته. رجعت إنسانة أخرى ذات كيان خاصّ، ومقبول من أمّها قبولاً لا تزعزعه تسريحات ابنتها المبتكرة، تسريحات متقنة رأتها في الفيلم الذي من المؤكّد أنّها شاهدته أكثر من مرّة، مرّات حتّى لبست روح «هيلين دي طروادة». لو قيّض للتاريخ أن يسجّل هيئة تلك، لكانت زينة أكثر من يحقّ لها القيام بدور البطلة الهاربة. مرّة أراها بتسريحة «شينيون» ومرّة بنصف شينيون، تسريحة جانبيّة تظهر وتخفي... مشابك ترفع جانباً وترخي آخر. موديلات استوحتها من بطلة الفيلم، وفيرة بقدر ما يوفّر الشعر البديع من إمكانيّات.

سعاد، بخلاف الماضي، لا تبدو مستاءة، وما عادت تغضبها

تسريحات ابنتها حتّى ولو أنزلت الغرّة على جبينها. بعيداً عن الألسن ارتاحت سعاد من نظرات الشكّ التي كانت تنهش روحها.

عادت ترحّب بقدومي. وزينة، من ناحيتها، لم تعد تهجس بخلع «الإيشارب»، وكأنّه غدا «أكسسواراً» لا أهمّيّة له، يغلّف تسريحة البطلة الطروادية أثناء عبورها شوارع صور، ريثما ترجع إلى مدرستها في بيروت. هناك لن تضعه. وحين كانت تخرج مع قريبتها، لم تكن تضعه بالتأكيد. وعادت صداقة الطفولة تأخذ مجراها ثانية في دنيا مراهقتنا وإقبالنا على الحياة. في السنة نفسها أيقنت أنّ زينة نسيت ألمها، والشابّ الذي كانت ستهرب معه. إستعادت بهجتها ومرحها. نتباعد. كلّ منّا تروح إلى مدرستها الداخليّة في بيروت، ونلتقي في الإجازات، غالباً في بيتنا، بسبب الفونوغراف الذي أحضره أخي معه من فرنسا. تصل زينة وتنزع «الإيشارب» وتجلس جلستها الرومانسيّة التي صرت أغبطها عليها، بخاصّة بسبب الأزياء المستحدثة التي تبتكرها. ثياب طويلة فضفاضة، تعقص ذيلها إلى خصرها، فتبيّن تنّورتها الداخليّة ذات الأطراف الدانتيل التي صارت تصمّمها خصّيصى للتشبّه بقرينتها اليونانيّة.

بعد الظهر، تخرج أمّي وشقيقاتي، على عادة الإناث في المدينة، وتخلو الدار الواسعة لنا، زينة وأنا. نضع أسطوانات، بعضها مفضّل لديّ وأخرى لديها: «البازا دوبلي»، «التانغو أو الفالس». كنت أفضل «البازا دوبلي» الحيويّة، أو «الفالس» الرشيقة. حين ترقصها زينة، بخطى مبالغ فيها، تكاد تطير، وأحسبها صارت في مكان آخر.

لكن تبقى «التانغو» رقصتها المفضّلة. تقول، لو رقصتِها مع من تحبّينه فستطيرين بالفعل. تعرف أنّ هذا من ضروب المستحيل في الأوساط المحافظة التي نعيش فيها. حتّى في بيروت، لم يكن نمط الحفلات المختلطة قد عمّ هواة الرقص والمرح.

على أنّ هناء صداقتنا لم يدم طويلاً. عادت زينة وفاجأتني باعترافات. فهي تفكّر في الهرب مع شابّ آخر تعرّفت به في بيروت. تحبّه لدرجة العبادة، لدرجة أنّها حين تدخل الحمّام تضرب رأسها بالحائط. تلطم وجهها وتبكي، لأنّها متيقّنة أنّها هذه المرّة ستهرب بالفعل. وهربها المحتمل يعذّبها أشدّ تعذيب، إذ سيسبّب لأبيها الذي تعبد شقاء ما بعده شقاء.

من ناحيتي، لم آخذ اعترافها على محمل الجدّ. بين أسوار المدرسة الداخليّة، لن تجرؤ على تنفيذ ما لم تجرؤ على تنفيذه خارجها. لكن... في سنتها الدراسيّة الثانية في بيروت، حدث ما كانت الأمّ تخشى حدوثه: في أوّل يوم من الإجازة، فرّت زينة مع الرجل الذي تحبّ.

عصر ذاك النهار، ضربت الأمّ باب بيتنا، وحال دخلت أدرك الجميع أنّ كارثة ما وقعت. كنت أوّل من استجوبتهم. تلحّ عليّ بأن أقول شيئاً، فابنتها في خطر! أقول شيئاً، أيّ شيء، قبل أن تختفي ابنتها عن دائرة الممكن، أو عن الأراضي اللبنانيّة. وأهلي، تعطّفاً

عليها، سمحوا لها باستجوابي، فيما بين السؤال والآخر تؤكّد أنّ ابنتها تتعرّض للخطر، وقد يكون أحد خطفها.

«لا لم يخطفها. ولن يلحق بها أيّ أذى. كان سيمسك بيدها ويسيران على شاطئ بيروت، ويركضان حافيي القدمين على الرمل.» وكنت على وشك القول إنّها هناك معه على الشاطئ يركضان...

الظروف ستعفيني من همّ الاعتراف. سيرنّ جرس الهاتف، وتُطلب والدة زينة لتكلّم زوجها بالألغاز وتسارع إلى الخروج. سيخبرها زوجها بأنّه اكتشف رسالة من ابنته تقول، لا فائدة من البحث عنها، فقد هربت «معه».

من هو؟

سائق «الأوتوكار».

كانت، حين سألتها كيف تفلح في مقابلة رجل وهي بين جدران المدرسة، أجابتني: هذا سرّ! أعطيته وعداً. أقسمت بحبّنا الطاهر أن لا أبوح به لأحد.

بمعرفة إدارة المدرسة تمكّنوا من العثور عليهما. فالقانون اللبنانيّ في صفّهم «الشابّ يغرّر بقاصر». لكن، حفاظاً على ماء الوجه تجاه الحلال والحرام، وعلى ما تبقّى من الصورة الاجتماعيّة لها، ستوافق الأسرةُ ابنتَها على زواجها بالخاطف، قبل أن تتمّ القطيعة النهائيّة بين الأمّ وابنتها. وتقول الأمّ: إلى الأبد.

لم تنكث سعاد بقسمها.

ونحن لم نرَ زينة بعد ذلك. ولم نسمع بأخبارها. كان عليّ أن أنتظر عقوداً قبل أن أقف وجهاً لوجه أمام طيفها: توأمها الذي تأخّر قدومه! توأمها في العمر الذي لم يتسنَّ لي أن ألقاها فيه.

كنت جالسة في مكتبي في صنعاء، على موعد بيني وبين آنسة لا أعرفها، ذكرت لي هاتفيّاً أنّها في «مهمّة» مع إحدى المنظّمات الدوليّة، وطلبت مقابلتي. الصوت صوت يافعة، لكن مسؤوليّة عملها تنبئ بشابّة ناضجة. لن تلبث أن تضرب الباب وتدخل، ليصيبني حضورها بما لا يمكنني وصفه. بعد سنوات طويلة من الفراق، وجدتني أقف ثانية أمام زينة!

التقمّص الذي يحكون عنه لا بدّ صحيح!

لحظات من التشوّش وعدم التصديق:

الوجه وجه زينة... العينان العسليّتان هما أنفسهما، والأهداب السوداء والشعر الكستنائيّ اللمّاع المنسدل على كتفيها...

هي نفسها! ولكنّها أطول قامة، كما يمكن لابنة أن تُجاوز أمّها قامة، ولكن بقدر كافٍ للحفاظ على الشبه. وجهها أكثر بيضاويّة، وشعرها أشدّ تموّجاً. ثنيات رقيقة تضفي حيويّة وفرحاً على وجهها. صورة أخرى لأفروديت خرجت عليّ في مكتبي في اليمن، بابتسامة

على ثغرها، واثقة هادئة، غير تلك المرتبكة التي كانت تتراءى على وجه زينة.

الشابّة، التي لاحظت تشوّشي، بادرت إلى الإيضاح:

- أنا «غيداء» ابنة صديقتك زينة. سمعت بك من زملاء العمل، فجئت أتعرّف بك. سيكون ذلك أسعد خبر أحمله لزينة. لا يمرّ يوم لا تأتي فيه على ذكرك.

تقول غيداء إنّ أمّها تزرع «البانسيه» على الشبابيك، وتخصّص واحدة منها لصديقة الطفولة رجا. وحكت لي مقتطفات من حياة أمّها:

عندما وصلت إلى عمان، إلى حيّ أقرب ما يكون شعبيّاً، اكتشفت أنّ النساء في عائلة زوجها كنّ جميعاً محجّبات. وحدها بينهنّ كانت كاشفة. «أبي لم يجبرها على شيء. بقيت على سفورها فترة، ثمّ ومن تلقاء نفسها فضّلت أن تحذو حذو الأخريات وتتحجّب».

وقالت:

- «حدّثيني عن أمّي. كيف كانت في شبابها»؟

- تقصدين في مراهقتها؟

- آه... كيف كانت ؟

لا أدري لمَ، ما إن بدأت: أفلت الأمر من يدي؟! وبدل أن أقول

للشابّة ما يمنحها العزاء، وجدتني أبكي. أبكي والشابة تؤاسيني. تربّت كتفي، وأنا أمسك بكفّها كأنّي أمسك بكفّ زينة. ولمّا تماسكت، ضحكت وقلت:

- «أمّك كانت «هيلين دي طروادة»».

أخبرتني أنّ قطيعة الأمّ، وضعف شخصيّة الأب، جعلا عودة زينة إلى صور مستحيلة:

- مع أبي عاشت حياة مستقرّة. ولعلّها كانت سعيدة. أبي ما زال على عهده يعبد زينة، لكأنّه تزوّجها البارحة. يعمل ما في وسعه لإرضائها. بعد عودته من لبنان، فتح متجر ملابس، وكانت هي تساعده. تيسّرت حياتها ولكن بعيداً عن أحلام الماضي. لا ينقصها شيء ولا تبدو نادمة على ما قامت به،غير أنّها تشتاق كثيراً إلى ذويها. وتشتاق أكثر ما تشتاق إلى أمّها.

«حياة مستقرّة بعيداً عن الأحلام»!

والزوج الذي لم ينجح في تحقيق أمنيات امرأة يعبدها، قد نجح بلا شكّ، في تحقيق ذلك عبر الابنة التي أنجبتها المعبودة له.

- «وأنت ماذا تفعلين؟ سألتُ غيداء.

- أعمل مع جمعيّات فلسطينيّة لدعم من سمّوا باللاجئين.

- وماذا عن نصفك الآخر...اللبنانيّ؟

صمتت برهة ثمّ قالت: يصعب على من كان نصفه فلسطينيّاً أن يناضل من أجل نصفه الآخر.

- وبعيداً عن النضال،ألا تفكّرين في زيارة لبنان؟

- بلى. أحبّ أن أتعرّف بالمرأة الجبروت التي غرزت بصماتها في روح أمّي!

وقالت:

ـ لديّ دعوة لزيارة المخيّمات في لبنان. فرصة مؤاتية لتحقيق الزيارة.

وعدتُ غيداء بأنّي سأسافر قريباً إلى عمان لرؤية زينة؛ فأنا أيضاً أشتاق إليها. سنلتقي. ونمضي أيّاما معاً. نتذكّر «الفالس» و«البازادوبلي» وتسريحات «هيلين دي طروادة». وأغنيات عبدالحليم.

* * *

دخلت غيداء الدار التي لطالما هجست سعاد ببنائها، وحلمت زينة بالعيش فيها: منزل مطلّ على البحر، ذو قناطر عالية وضويّات من زجاج ملون. هي غير الدار التي شهدت فصول طفولتنا وفرار زينة.

الحاجّة فردوس كانت قد ماتت منذ زمن. الجدّة سعاد حافظت على «الكنب» الذي يعود لجهاز فردوس، وكانت تلك تفتخر به.

في دخولها، قابل غيداء «جيش» من الصغار من حفداء سعاد. تحلّقوا حولها مبتهجين لحضورها. يسألونها عن اسمها وعن حال أمّها... نهرتهم الحاجّة سعاد وأمرتهم بأن يلتزموا الهدوء.

- هذه زينة، قالت لهم مؤنّبة. بنتي زينة أجمل بنات صور. هس يا زغار. اسكتوا. اطلعوا لبرّه واتركونا رايقين أنا وهي... لوحدنا. صار لي زمان ما شفتها.

ابتعد الأولاد؛ ثمّ خرجو إلى الحديقة. اقتربت غيداء، وسعاد رحّبت بها، قبّلتها وسألتها: متى رجعت؟

ثمّ، وقبل الاستماع إلى الجواب، سألت:

- أظنّك في حينه تزوّجت الملك؟!

- طبعاً يا ماما.

- برافو. برافو. فكّرتك تزوّجت السائق!

- معقول أن تتزوّج زينة السائق؟! خطيبة الملك؟!

- الله يرضى عليك يا بنتي، يا زينة طول عمرك أميرة الأميرات. إلّا قولي لي عندك ولاد، بنات وصبيان؟

- طبعاً، ضروريّ. لا شيء يربط الرجال مثل الأولاد.

مدّت سعاد كفّها ولامست شعر غيداء وهي تقول: شعرك هيك كتير حلو. أوعا تقصّي «غرّة».

- مش رح قصّها يا ماما!

سعاد تتمشّى بين الأزمنة بلا عناء. تتلاعب بها تلاعب تلك بروحها، فيما غيداء تراوح بين لهجة أمّها اللبنانيّة، ولهجة أبيها التي انتقلت معه من فلسطين إلى عمان.

فجأة قطعت سعاد الحوار الشائق، وسألت غيداء:

«إلّا صحيح يا زينة يا حبيبتي... ليه لهجتك تغيّرت؟! صحيح... تغيّرت يا زينة وصرت تحكي فلسطيني.

غيداء، على حافة البكاء، تجيب:

- في المدرسة عندي صديقة ...

– ما كان بعلمي إنّو بالمدرسة بيحكوا فلسطيني.

– عندي رفيقة بالمدرسة لهجتها...

- رفيقتك رجا نعمة؟ بنت «عبد الحميد» ومريم؟...

- أيوه يا ماما... هي بذاتها!

- برافو... خلّيكن صحاب. بنت كويسة بنت عالم وناس. إي... أمّها كانت أكبر منّي وأصغر من ستّك فردوس. بس كنّا كمان صحاب. خلّيك رفيقتها.

بعد برهة استعادت الجدّة تعبيرها المشوّش، وسألت:

- كأنّي شايفتك عم تمسحي دموعك يا بنتي؟!

-أنا... دموعي. لا يا ماما هيدي شعرة وقعت بعيني.

- إي برافو. فكّرت... يا زينة لا سمح الله مش مبسوطة مع جوزك، ولاّ يكون بيضربك... لا سمح الله؟!

- لا يا ماما كتير مبسوطة. زوجي كتير كويّس الحمدلله.

- لكن ليش عم تبكي؟!

مسحت غيداء دموعها، عانقت جدّتها وهي تقول: علشان اشتقت لك كتير يا ماما... كتير اشتقت لك!

* * *

حدّه «الرفيع»

في السنة الجامعيّة الأولى، والحركات الثوريّة في أوج نهوضها، كان عطشنا إلى المعرفة والاطّلاع أقوى من أن يدعنا خارج ما ينشر وينتشر في لبنان وأوروبّا. كنا ننفق على شراء الكتب ما تنفقه الشابّات «المرتاحات البال» على الملابس والماكياج.

نزلت إلى وسط المدينة، لأشتري من مكتبة أنطوان، وكانت تلك مرجعيّة الفرنكوفونيّين، الكتاب الثاني من ثلاثيّة سيمون دو بوفوار. كنت قرأت «مذكّرات فتاة عاقلة» وتحمّست لاستكمال رحلتي مع تلك الكاتبة التي ذاعت شهرتها في العالم.

اتّجهت إلى مبنى العازاريّة حيث تقع المكتبات. لوسط المدينة جلبة خاصّة. الشوارع تغصّ بالمارّة، بأصحاب التاكسيّات يصيحون بالإعلان عن وجهات سيرهم، بباعة الصحف يعلنون عن

آخر الأحداث، وباعة «البسطات» عن لُعَب الأطفال، الملابس أو الأدوات المنزليّة. عليك أن تبذل جهداً لتجد لك ممرّاً وسط هذه الجموع، وسط مكان عامّ بامتياز، ضروريّ لمرور كلّ شارٍ وبائع، كلّ طالب خدمة أو احتياج، ساحة تغلي بسكّانها وبالوافدين إليها. لهجاتهم تدلّك على المناطق الآتين منها، بحثاً عن عمل، عن طبيب مستشفى أو بحثاً عن مدرسة. لم تكن مؤسّسات التعليم أو الطبابة قد انتشرت بعد في المناطق، بما يلبّي حاجاتها. كانت بيروت هي المركز، وشارع المعرض شريانها الرئيس.

ذاك اليوم، ولفرط استغرابي، لاحظت أنّ هذا المكان الصاخب يسوده الصمت! وجوم! الناس يتجمهرون بلا جلبة، يتحرّكون كما راوح مكانك. ونظراتهم تنبئ بأمر غير عاديّ. تابعت سيري. رجل رصين، قال لي: «لا أنصحك يا ابنتي بالمرور من هنا الآن! وإن كنت بالفعل مضطرّة إلى المرور، فخذي الطريق الخلفيّ».

لم أستفسر من الرجل عن مغزى نصيحته، بل تابعت سيري على حسب المعتاد، ولكن لأشاهد ما لا يرغب إنسان في رؤيته: جثّة امرأة ملقاة على الرصيف المحاذي للمحلّات التجاريّة، مغطّاة بملاءة والدم يسيل منها. وجوم الناس وعبارات الله أكبر، تؤكّد أنّهم شهدوا عمليّة القتل. والملاءة المبلّلة بالدم أقصر من أن تغطّي الجثّة، فيظهر من تحتها حذاء المرأة وشعرها، «سكربينة» حمراء

لمّاعة، وشعر أشقر فاقع بفعل الأوكسجين. ومن جهة الرقبة يتدلّى عقد من الخرز.

في اليوم التالي ذكرت الصحافة الحادث. فتاة، زوجّها أهلها رجلاً لا تحبّه، فهربت منه وعاشت مع رجل آخر بصورة غير شرعيّة، بعيداً عن الأعين. يذكر التقرير أنّه قد وُجد في حقيبة القتيلة، منديل ورق، علبة «فاليوم» وثلاث ليرات.

في الحقبة تلك، لم يخل أسبوع من جريمة شرف(١). فترة الانفتاح هي نفسها فترة «الضحيّة». لا لأنّ الضحايا هنّ أنفسهنّ البنات المتحرّرات من نتاج فكر «الستّينيّات»، بل لأنّهنّ. فتيات مقهورات مغلوبات على أمرهنّ، تعرّضن لأهواء تغيير لا يملكن إزاءه مقوّمات الحماية: معدمات يعشن في ظروف قاسية، تبرق أمامهنّ إغراءات خادعة. وافدات من الأرياف إلى صخب المدينة، خادمات، عاملات. ضحايا من مختلف المذاهب والمناطق. يكفي أن تتوحّد الظروف لتقع الجريمة. يقوم بها أخ،ابن عمّ أو أب. ومن ثمّ تتدخّل «الأسباب المخفّفة» للجريمة باسم القانون، فيمكث المدافع عن الشرف - اليافع غالباً - سنتين في السجن، ثمّ يخرج بطلاً في نظر عشيرته.

---

(١) دراسة أجرتها المحامية «منى شارل جاكوب» بيّنت أنّه خلال تلك الفترة، كان يعلن في لبنان عن جريمتي شرف في الأسبوع على الأقلّ، عدا ما يتمّ السكوت عنها ودفن ضحيّتها بلا تبليغ. (أرشيف الجامعة اليسوعيّة).

على أنّ واحدة من تلك الجرائم فاقت كلّ تصوّر: على أتوستراد الأوزاعي، حيث السيّارات تجتاح «الإسفلت» بسرعة الريح، متّجهة إلى الجبل أو الجنوب، أوقف شابّ، كان يحمل شيئاً غريباً بيده، سيّارة تاكسي، شيئاً، لفظاعته، لم يميّزه السائق!

رأس امرأة.

يحمله الشابّ من شعره!

في التفاتة منه إلى البحر رأى السائق جسد المرأة ملقى على الشاطئ، فأيقن أنّ ما ظنّه كابوساً كان حقيقة. وقبل أن يلوذ بالفرار كان حامل الرأس قد فتح الباب وركب في المقعد الخلفيّ، وأمره بالانطلاق، والرأس، في يده، والسكّين يقطران دماً.

إمتثل السائق لأوامر الجاني، وهذا أمره باتّخاذ طريق الجبل... إلى بلدة معروفة بأنّها واحدة من أجمل بقاع الأرض! اشتهرت بعذوبة طقسها وجمال صنوبرها.

أخيراً وصل!

دفع للتاكسي أكثر ممّا يجب عليه، ونزل. دخل القصر، قصر زعيم عشيرته، ورمى رأس القتيلة عند قدميه!

الزعيم، بالنظر إلى تاريخ البلاد المضطرب، كان يتوقّع أفظع الأمور سوى أن يرى رأس امرأة يرمى عند قدميه! والقاتل الذي يقف أمامه، لا يسأله الاختباء ولا الحماية، بل دخول الحمّام فقط، لغسل

يديه. فما كان من الزعيم إلّا أن أمر رجاله بحجز القاتل في الكاراج، ثمّ أبلغ البوليس[1].

بعد مرور سنوات على تلك الحادثة، رنّ جرس الهاتف، وعرّفني صاحب المكالمة بنفسه: صحافيّ يريد أن يجري مقابلتي ليستطلعني مجموعتي القصصيّة «الصورة في الحلم» التي كانت قد صدرت حديثاً.

زارني في مكتبي وعرّفني بنفسه: يعدّ أطروحة دكتوراه في ألمانيا الشرقيّة، في سوسيولوجيا الأدب حول «أدب المرأة» في لبنان. وهو إنّما اختار سوسيولوجيا الأدب، ليقينه أنّ لهذا دوراً رائداً في تصوير المجتمع وتطويره. واختار من مجموعتي قصّة «المطاردة» لا لجهة فنّيّة الكتابة وحسب، بل لجهة أهمّيّة الظاهرة الاجتماعيّة التي تتناولها.

راح يتكلّم على طبيعة هذه الجرائم كلام متمكّن في علم السوسيولوجيا. «جريمة الشرف ليست فعلاً فرديّاً، بل لعلّها أشبه بالصراع الطائفيّ... الدافع... طاقة القتل جماعيّة، والمنفّذون أفراد».

(١) ستهتزّ الصحافة اللبنانيّة لهذه الجريمة ويكتب عنها كثيرون. من أهمّ ما كتب آنذاك مقال الروائيّ والصحافيّ اللامع «غسّان كنفاني» في مجلّة الحوادث الأسبوعيّة.
- نشرت الكاتبة من وحي الحادثة قصّة «المطاردة»، ضمن مجموعة قصصيّة بعنوان «الصورة في الحلم». رجاء نعمة، دار الآفاق بيروت (١٩٨٠).
- «كظاهرة»، ستنقرض «جرائم الشرف» بعد الحرب اللبنانيّة، وتصبح من الاستثناءات.

ثم ابتسم وقال إنّ أباه، هو أيضاً، ارتكب جريمة شرف.

- قتل أختك؟

- لا، بل زوجته.

- أمّك ؟

- لا. زوجته السابقة لأمّي.

يقولها ببساطة وموضوعيّة، هذا الشابّ المؤدّب الأنيق الذي يتلقّى علومه في ألمانيا، بساطة شديدة، أو لعلّ البساطة مجرّد قناع! ووجدتني، بالموضوعيّة نفسها أسأله: كيف رضي جدّك بأن يزوّج ابنته، أمّك، بقاتل؟

- الأمر خلاف هذا، أجاب.

«كان جدّي، أو أيّ رجل من أمثاله، سيفتخر بذلك أي أن يزوّج ابنته بمن نال شهادة دامغة في الدفاع عن الشرف.. أنت يا سيّدتي لا تعرفين جيّداً أبعاد جريمة الشرف. كان العار سيلحق، لا بالعائلة فقط، بل بالعشيرة... تحت وطأته كان عمودها سيكسر، وجناحها سيخفض ومكانتها ستنهار. كان أخوتها سيطأطئون رؤوسهم مدى الحياة! كان عليهم أن يهجروا القرية، بل الوطن بأسره، هرباً من «التعيير». كي يفلتوا من ألسنة الآخرين، عليهم أن يتركوا أرزاقهم وأموالهم حتّى ولد الولد، ويصبحوا نسياً منسيّاً. إمّا هذا، وإمّا الاستسلام لغريزة «الانتقام»!

خطر لي أن أسأله عن موقفه هو من هذا الفعل، لكنّي لزمت الصمت. وكأنّه قرأ ما يجول في خاطري، فقال:

- في هذه البلاد الشاسعة... لا بدّ أن يساور كلّ فتاة ذاك الخوف... من أن تغدو هي نفسها موضوع جريمة شرف. لكنّ الزمن يتغيّر. من المؤكّد أنّه سيأتي يوم ينسى فيه الناس جرائم الشرف.

قبيل خروجه، سألني بحماسة من نسي سؤالاً مركزيّاً:

- على فكرة، قال، كيف خطرت لك فكرة الكتابة؟!

- لهذا شأن آخر، أجبت، قد أكتب عنه ذات يوم.

* * *

يختلف مفهوم «العار» بين بيئة وأخرى. العار هنا، قد يكون مجرّد عيب بسيط هناك، أو فضيحة. الفقراء هم الأشد ميلاً لغسله بالدم، ولا سيّما في قرى الداخل والجبال. الطبقات الميسورة تحاول أن «تستر» على ابنتها بتزويجها. وإذا ما اشتدّ الذنب فقد تلجأ إلى سجن العاصية في البيت، كما حدث لرفيقة لنا من الطائفة اليهوديّة، حين أحبّت شابّاً من غير دينها. كانت يساريّة مناهضة للصهيونيّة. على أن حسّاسيّات الفوارق الدينيّة كانت - وما تزال - تُجاوز الاتّفاق الإيديولوجيّ بما لا يقاس. فكيف لو كان أهل الفتاة محازبين للصهيونيّة، وهي تناضل لتوعية «أبناء ملّتها» حول خطورة

تلك، وحول الدور الذي تلعبه إسرائيل في تضليل اليهود وجعلهم أدوات حروب وقتل.

سجنت الفتاة المتمرّدة في منزل ذويها القائم في الحيّ اليهوديّ من غرب بيروت، قبل أن تتمكّن من الفرار والزواج بمن تحبّ. يقال إنّ عائلتها أعلنت الحداد اليهوديّ. جلس أفرادها على الأرض وتقبّلوا التعازي كما لو أنّ ابنتهم قد ماتت.

* * *

على هضبة لامارتين

في الجهة المقابلة لبيروت، على هضبة الأشرفيّة ذات التاريخ المسيحيّ العريق، كانت تقع مدرستنا. للمدرسة الداخليّة خصوصيّة لا يعرفها سوى من خبرها. لذكرياتها صدى في النفس يراوح بين الحزن والنوستالجيا. كثيرون من أبناء عائلتي وحفدائها، جرّبوا «الداخليّة»، وغيرهم، يشاطرونني هذا الإحساس.

في تلك المدرسة الداخليّة، كنت أشعر بغربة عميقة. فراغ كبير كان يلفّ حياتي بين جدرانها العالية، لا لفراق أسرتي فقط، بل ولأسباب أخرى، لم أكن قد دخلت سنّ النضج لبلورتها. المراهقة تؤهّلك لطرح التساؤلات أو الرفض، على أنّك قد تنتظر طويلاً أو قصيراً لتعثر على الأجوبة.

كنت قد انتُزعت من مجتمع يغلي بالأفكار، في حقبة كان

الانشغال فيها «بالعامّ» هو الأولويّة لدى الناس. كان الهاجس في المناخ الذي غادرته الاطّلاع، الثقافة، الثورة على التسلّط. كانت حرب الجزائر على قدم وساق، والحرب الثلاثيّة على مصر لم يهدأ نارها بعد.

ولكنْ للمناخ «هنا» شأن آخر: إعجاب بالغرب غير مشروط، خالٍ من التساؤلات، وفتيات خاليات البال. خارج التأفّف من نظام المدرسة والدرس، لا يتأفّفن من شيء... ولا يحلمن بما كنّا نحلم به. لا يمارسن ولا ذووهنّ، أنشطة ذات «جاذبيّة». لا يشاركن في التظاهرات، ولا يحفظن قصائد ثوريّة لسليمان العيسى وعبد الوهّاب البيّاتي والسيّاب، وأخرى كانت تنشرها مجلة ثقافيّة يساريّة «الثقافة الوطنيّة» أو غيرها...

لم تكن المطالعة هوايتهنّ المفضّلة، كما نحن. الهواية التي أورثني إيّاها أخواتي وإخوتي، وجعلتني أقرأ في سنّ مبكرة نجيب محفوظ ويوسف إدريس وكثيرين غيرهما. عندما وصلت إلى الجامعة كنت قرأت كثيراً من الأدب العربيّ والشعر، الحديث منه والقديم.

فتيات المدرسة هذه، كنّ في خلدي، لجهة الثقافة والاطّلاع، يَمْتُتْنَ إلى عصر قديم مملّ لم أصدّق كيف جاوزه الجيل الذي سبقنا إلى الدنيا ومهّد لنا الطريق.

الهواية الوحيدة التي كانت تشغل عقول هؤلاء الفتيات،

الأغنيات، ولا سيّما الفرنسيّة، وأغنيات عبدالحليم وفيروز، واقتناء الأسطوانات وألبومات الصور، والحديث المبطّن أو المعلن عن «الشيري»، حبيب القلب.

«رامونا» بعد الصفعة تقرّبت منّي. تخلّت عن طريقتها الاستفزازيّة وصارت تبدي آراءها بصورة موضوعيّة: أخوها الذي دأب على زيارتها يوم الأحد، وكانت مدرسته (الحكمة) مجاورة لمدرستنا في الأشرفيّة، «مغفّل» شيوعيّ ويحبّ عبد الناصر. لو لم يكن «داخلي» هو الآخر لأمضى وقته في التظاهرات. وهي، بصراحة، لا تحبّ طريقة التظاهر «تلك»، حيث «الناس» يصرخون ويسيرون بغير نظام. «الأجانب» لا يفعلون هذا. بدل الصراخ والفوضى يمشون بأدب وصمت، صفوفاً صفوفاً، تاركين اليافطات وحدها تعلن عن مطاليبهم»!

كلام ينقبض له الصدر.

أشبه بالسير في جنازة عجوز!

وفي أفضل الأحوال، أشبه بدخول بنات المدارس الصفّ!

وتضيف: كلّ هذه «المشاغبات» سببها عبد الناصر. بابا يقول إنّه قبل عبد الناصر لم نكن نسمع بمثلها! وأخي لا يوافقه في الرأي.

صحيح «قبل» ذلك لم يكن...

على أنّ ضحالة المناخ السياسيّ كان يعوّض عنها ثراء في

التعليم، ثقافة المدرّسين، راهبات، أساتذة وأستاذات، بعضهم موسوعيّ المعرفة أو عميق التفكير.

الأخت «ماري كلود» كانت في تدريسنا التاريخ، تركّز كلامها على مَن غيّر وجه أوروبّا، مَن اهتمّ بالثقافة والفنون والآداب ورعى المبدعين: «فرانسوا الأوّل» الذي، في حملته على إيطاليا فُتن بمعمرانها، فأغرى كبار فنّانيها بمرافقته إلى فرنسا، وفي طليعتهم «ليونارد دافنشي»، لترميم القصور والكنائس والمتاحف، وتزيينها باللوحات، وتشييد معالم جديدة تخلّد اسمه. وتسهب في الحديث عن «إليزابيت الأولى» التي احتضنت الشعراء والكتّاب، شكسبير و..

في منتصف المرحلة الإعداديّة، بدأنا دروس الفلسفة والآداب. لم تكن هذه من منهاج المرحلة بالتأكيد، ولم يكن لها حيّز في البرنامج اليوميّ. على أنّ الأخت الرائعة «ماري كزافييه» عثرت على الوقت كما على النهج. ففي الحصّة اليوميّة المخصّصة للتعليم الدينيّ، التي كانت تجمع فيها دارسات الصفوف «المتقدّمة» كانت تخصّص الحيّز الأكبر للفلسفة والآداب، أو تعرض رؤيتها في ربط الدين بمقولات تلك:

«إعرف نفسك بنفسك».

تقولها بالفرنسيّة والعربيّة. وتقولها باليونانيّة والسريانيّة، قولاً يشرق له وجهها المنمنم الصغير.

«لا قيمة للحياة بلا معرفة. وسقراط تجرّع السمّ دفاعاً عنها. ولعلّنا خلقنا على الأرض لنعرف ونسأل. الربّ قد أرسلنا لهذا». مدهشة كانت هذه الراهبة. الثقافة موسوعيّة، والتساؤلات لفيلسوف. الوجه لطفلة، والحياء على الجبين نفسه الذي جاءت به إلى الدير منذ خمسين عاماً.

وتحدّثنا بمعالم مميّزة للمدينة، نمرّ بها ولا نتنبّه. ولكن، «لا بدّ من أن نشعر بشيء ما... فلا شيء يضيع. هنا في مكان قريب أقام الكاتب العظيم «لامارتين». وتشير بالقلم إلى حيث المكان. أدباء كثيرون غيره انجذبوا إلى زيارة مهد الديانات والحضارات. وأقاموا في لبنان أو في فلسطين مهد المسيح. كتبوا مؤلّفات تحدّثوا فيها عن رحلاتهم إلى الشرق». شاتوبريان، نرفال، وحتماً لا مارتين(١). عندما تكبّد مشقّة السفر، حمل معه خمسمئة كتاب ومجلّد. استأجر عشرين جملاً لحملها، وخمسة بيوت متجاورة «هنا» لسكنه وأسرته والعاملين لديه. زار معظم مناطق لبنان، وفي الأرز كتب أجمل القصائد. أنشد للأرز الذي كتب له جبران خليل جبران.

ستكتب على اللوح مقاطع من تلك. نخطّها نحن على الدفتر،

(١) يقول لامارتين: «آنذاك، لم يكن ثمة طرقات، ولا عربات»، ولم يكن من زجاج للنوافذ. «للكتابة شتاءً، كان لا بدّ من غلق المصراعين والاكتفاء بنور الشمعة، أو فتحهما والتعرّض للبرد».

نحفظها. وفي رحلتنا إلى الأرز نهيّئ لها مفاجأة. أستاذ اللغة الفرنسيّة أعطى الإشارة وبدأنا ننشد «أرز» لامارتين[١].

Aigles qui passez sur nos têtes,
Allez dire aux vents déchaînés
Que nous défions leurs tempêtes
Avec nos mâts enracinés.
Qu'ils montent, ces tyrans de l'onde,
Que leur aile s'ameute et gronde
Pour assaillir nos bras nerveux !
Allons ! leurs plus fougueux vertiges
Ne feront que bercer nos tiges
Et que siffler dans nos cheveux !

أستاذ اللغة الفرنسيّة «برسيادو» كان مبدعاً في تدريس المسرح وكتّابه من القرن السابع عشر. أشعار «كورناي» و«موليير» كان

(١) ترجمة قصيدة الأرز لـ لامارتين:
«أيّتها الأرزات.. أيا نسور القمم
إذا دهمتك العواصف الهوجاء
فقولي لها:
إنّنا نتحدّى جبروتك
بجذوع ضاربة في الأرض
فلتأت، فلتزعق جوانبها ولترعد
فلترسل الصواعق العمياء
ما تخاله يشلّ أوصالنا، إنّما يدغدغ براعمنا، يوشوش في خصلات شعرنا.ليس إلّا».

يحوّلها إلى مشاهد تمتّع نفوس طالبات سجينات. كان «برسيادو»، بين الحين والآخر، يدعونا لحضور مثل هذه المسرحيّات التي يقوم بها طلبة مدارس أخرى في بيروت. لاحقاً سنعرف لماذا أُقصي الكاتب العظيم «راسين» من المنهاج المعدّ لفتيات المرحلة الإعداديّة.

سيحتلّ «بريسيادو» مكانة عالية في نفوسنا، ابنة خالتي وأنا. إستدعانا مرّة، «ليرشّد» سلوكنا تجاه زميلات لنا من أصول يهوديّة. لعلّنا، بصورة ما، أسأنا لهنّ التصرّف. أذكر أنّه قال: «يهود لبنان لبنانيّون. ونحن لا نرغب في الذهاب إلى إسرائيل. إسرائيل ليست وطننا. لبنان هو وطننا. وهؤلاء الزميلات، كما أنتما، لبنانيّات منذ أجيال.

كلام «برسيادو» أخجلنا وجعلنا من ثمّ صديقات. درس من الصعب نسيانه! إن لجهة المعرفة أو السلوك! لم يكن «برسيادو» يساريّاً، لكنّ الحجّة التي اعتمدها تنطلق من الرؤية نفسها التي يتبنّاها اليساريّون والقوميّون. في محاوراتهم المهتّمين بقضيّة فلسطين.

* * *

داخل الأسوار الشاهقة، كنّا في المدرسة ثمانين مراهقة وطفلة نعيش في قسم «الداخلي»: أمل السوريّة، وكاتيا العراقيّة، وسامية المصريّة، ورامونا وروز ومازي اللبنانيّات، وغيرهنّ. هند وزينب

وعفاف وكثيرات أخريات جئن مثلي من جنوب لبنان. حين تنصرف بنات «الخارجي» نغدو نحن أخوات بعضنا لبعض، نتشارك في المائدة والملعب والمنامة ودروس المساء. يشفق بعضنا على البعض الآخر إشفاق المجبرات على القبول بهذا الحلّ:

صغيرات هاجر ذووهنّ.

عائلات تنوء بتربية أولادها حين يبلغون سنّ المراهقة، فتودع مسؤوليّتهم للأديرة.

قادمات من بلدان عربيّة لأسباب شتّى...

أو ببساطة، فتاة يبحث لها أهلها عن متابعة التعليم، وقد بلغت مستوى أعلى من ذاك المتاح في بلدها الأصليّ، مثلما كان الحال بالنسبة إليّ في منتصف المرحلة الإعداديّة.

أمّا المراهقة «إسبيرانسا» فكانت في «الداخلي» لسبب آخر: بعد انفصال أبويها، اختارت لها عمّتها تربية مميّزة، في هذا الدير الذي عرف بالحزم في التربية وفي التعليم.

ولجهة الشكل، كانت «إسبيرانسا» مميّزة.

لا أظنّها كانت قد رأت، ولا أيّ منّا نحن التلميذات، علبة «الجيتان» الزرقاء وعلى سطحها رسم الغجريّة تلك. لكأنّها «إسبيرانسا»!

غجريّة، شقراء الشعر، زرقاء العينين، ومثلها، تبدو في الخامسة عشرة من العمر، بالغة الأنوثة. كانت «إسبيرا» بالغة الجمال. حين ترخي شعرها على كتفيها، حتماً في الليل والرقابة نائمة، وتلفّ الشال حول خصرها وترقص، تبدو كأنّها توأم تلك «الجيتان»!

قاعة النوم شديدة الاتّساع. لعلّها، طولاً، تُجاوز الخمسين متراً لتتّسع لعشرات الأسرّة. كان للقسم الداخليّ غرف قليلة وقاعتان كبيرتان، إحداهما التي ننام فيها نحن، ومعنا اثنتان من الراهبات. بعد صلاة العشاء، كانت كلّ منهما تنسحب إلى ما يمكنها تسميته بغرفتها. غرفتان من قماش شديد البياض، قائمتان في طرفي القاعة، تؤكّد خامتهما الصفة العابرة الزائلة للبشر، ولهؤلاء الزاهدات بالدنيا، المتفانيات في خدمة الربّ وعباده.

شابّتان إحداهما «متدرّبة» في العشرين، والأخرى «مرسومة» في الثلاثين. تستبدلان بملبسهما النهاريّ الأسود، آخر أبيض فضفاضاً طويلاً، وتخرجان علينا به، تتمشّيان بين الأسرّة تتلوان الصلاة. ثمّ ترجع كلّ واحدة منهما إلى غرفتها. وبطبيعة الحال، بعد يوم طويل من العمل، تغطّ الواحدة منهما في سبات عميق، فيما الفتيات يحاولن الخلود إلى النوم.

الراهبات كنّ أيضاً محجّبات بالأسود، بزيّ يشبه حجاب سيّدتنا «مريم العذراء»، لكنّه أسود. في هذا الزيّ الذي يغلّف كامل

جسدها، والقماط الذي يشدّ على جانبي وجهها وفوقه «رفراف» مثل «الأكورديون»... يخيّل لك أنّ الواحدة منهنّ، تتحجّب، لا إزاء الآخرين فحسب، بل إزاء نفسها أيضاً. وهذا من شأنه الفصل بين الجسد والفكرة عنه. فوَعْيُهُ هو، الذي أسقط حوّاء وآدم من الجنّة!

على أنّ «إسبيرانسا» كانت تزعم شيئاً آخر: الراهبة تلك تقتني مرآة وتتفرّج على نفسها في الليل!

في الليل، والأخريات مستغرقات في النوم، يحدث أن تنهض «إسبيرانسا» من سريرها، تتسلّل إلى مدخل القاعة الفسيح، وتبدأ ترقص.

أوّل مرّة رأيتها هكذا، وكنت نصف نائمة، ظننت نفسي واهمة! وحين أيقنت واقعيّة المشهد، اعتدلت في السرير وقد استولى عليّ إحساس غريب، في هذا المكان الأبيض، بأسرّته الخمسين ذات الأغطية البيضاء،وغرفتي الراهبتين في طرفي القاعة، والتلميذات النائمات بالأبيض... كانت «إسبيرانسا» وحدها بالشال الكحليّ الذي لفّته حول وسطها في الليل! الكحليّ وهذا البياض الصارخ الغارق في الصمت والنوم، يتقاطعان.

على رؤوس أصابع قدميها بدأت المراهقة «وصلتها». إقتربت من سريري كما لو أنّها تحيّيني. القادمة من بلدة صغيرة في الشمال ترحّب بزميلة لها قادمة من مثيلتها في الجنوب. شعرها الأشقر يلوح على كتفيها، وعيناها الزرقاوان تغدوان، بفعل الظلمة، بلون شالها

الكحليّ. تحرّك ذراعيها وكتفيها كأنّها ستطير، لكنّها لا تطير إلّا على بلاط المنامة الرخاميّ.

كانت بعض النائمات قد أفقن وجلسن في الأسرّة، يصفّقن بلا تصفيق، بحماسة بالغة وأكفّ متباعدة، للراقصة «إسبيرانسا». يهتفن بلا صوت بكلمة «برافو». إحداهنّ، بحسب السيناريو المتّفق عليه، تتولّى «الرقابة»، حتّى إذا ما بدرت حركة من إحدى الغرفتين القماشيّتين، أعطت هي الإشارة. إذّاك تعتدل «إسبيرانسا» في وقفتها، وتتّجه صوب الحمّامات، أو قد ترتمي بخفّة أرضاً، وتندسّ تحت أقرب سرير.

هكذا كانت «إسبيرا» بين الحين والآخر تسلّينا. «أمل» تزعم أنّها تفعل هذا عندما تشتدّ عليها «الكريزة».

«أيّ كريزة؟!»

كريزة «الداخلي». «إسبيرا» تكره الداخلي. ومنذ أن أحبّت ابن عمّتها ازدادت كرهاً لها.

في الأوساط المغلقة، ما أسهل أن تقع مراهقة في حبّ شابّ من محيطها العائليّ، مثلما حدث «لإسبيرا». إبن العمّة هو أيضاً وقع في غرامها. شابّ في العشرين يدرس الطبّ في فرنسا. وعدها، بأنّه في رحلته المقبلة إلى لبنان، سيخبر أهله بحبّهما، ويخطبها رسميّاً، ليرتبط الواحد منهما بالآخر إلى الأبد. وحين يتخرّج، وقبل

التخصّص العالي، تكون هي قد أنهت دراستها الثانويّة، فيتكلّلان وترافقه إلى فرنسا. كان من شأن هذا الحلم أن يخفّف عن المراهقة كآبة «الداخلي». صار رقصها في الليل تعبير فرح لا «كريزة». تبدو كأنّها ستطير وهي تتحدّث عنه. تسبل عينيها، وتزمّ شفتيها بقبل ترسلها له. كانت ستبقى على هذا الحال من الحبور، لولا أنّها بعد سفر محبوبها بقليل، اكتشفت أنّها حامل!

لفرط خجلها لم تخبر عمّتها. جلّ ما في الأمر أنّها حاولت أن تكلّمه بالهاتف، فلم تفلح. كان قد وعدها بأن يعطيها رقمه وعنوانه حين يستقرّ في مكانه الجديد، ولحدّ الآن لم يرسل لها شيئاً! كان ذاك في العام (١٩٥٨) الذي عصفت فيه بلبنان أزمة سياسيّة كانت تنذر بحرب أهليّة طويلة. ولمّا، في شهر يونيو، تبيّن أنّ الأزمة ستطول، بدأت الفتيات بالعودة إلى بلداتهنّ، وعدنا نحن إلى صور. كثيرات لم يرجعن إلى المدرسة إلّا في مطلع السنة الدراسيّة المقبلة، وكانت «اسبيرا» واحدة من هؤلاء.

حين اكتشفت ما اكتشفت، صارت في منزل عمّتها تختلس الفرصة لتفتح دفتر تلك أو خزانتها بحثاً عن العنوان الجديد لمحبوبها، أو عن رقم هاتفه. كلّمته مرّات عبر الرقم القديم، فقيل لها نقل. لكنّه سيمرّ ثانية لأخذ بعض أشيائه. توسّلت «إسبيرانسا» إلى السيّدة التي تلقّت مكالمتها، أن تبلّغه خبراً مهمّاً مستعجلاً: من الضروريّ، وبأسرع وقت، أن يكلّمها.

وخطر لها أن تسافر إليه؛ لكن كيف؟ كانت أصغر سنّاً من

أن تتاح لها الفرصة، ولا تملك المال اللازم للسفر. كانت تفضّل الموت على أن تخبر عمّتها بما تعانيه. صديقة لها وعدتها بأن تدبّر لها المبلغ، أو بالأحرى تتيح لها فرصة سرقته. تركتها تدخل غرفة والدها وتفتح «الكومودينا» التي يخبّئ فيها فلوسه، فيما جلست في الحديقة تنتظر. لن تلبث أن تسمع صوت أبيها يؤنّب «إسبيرا»، وهذه تبكي وتعتذر وتقسم. تحاول أن تبرّر فعلتها، لا فائدة:

«ابنة مدارس سارقة. ابنة مدرسة الراهبات ...»!

لن يلبث الأب أن يخبر العمّة. إحساس المراهقة بذاتها المجروحة على أكثر من صعيد، جعلها تنهار. وفي شرنقة وحدتها أيقنت أنّ ابن عمّتها قد غدر بها وهرب!

في نهاية سبتمبر ونهاية الأحداث، رجعنا، ابنة خالتي وأنا، إلى المدرسة فرحتين مشتاقتين. استقبلتنا الأخت ماري كلود. رافقتنا إلى الطبقة العلويّة لنرتّب أمتعتنا في الخزانات. رحنا نسأل عن الزميلات.

هند؟ رجعت.

زينب؟ سافرت إلى أهلها في ساحل العاج.

عفاف؟ راحت إلى بيت جدّها في الجنوب.

كاتيا؟ لم تغادر الدير، ولم تغادر لبنان، بسبب أحداث العراق.

و«إسبيرانسا»؟

- «إسبيرانسا» ؟!

طأطأت الأخت ماري كلود رأسها.

- صلّي لها يا ابنتي، صلّي لها...

- ماذا؟

- نعم صلّي لها. إنّها الآن في ملكوت السموات.

- ماذا؟

«باسم الآب والابن والروح القدس...»

- كيف حصل؟!

«السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الربّ معك»

- اركعي يا ابنتي وصلّي.

«مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك يسوع المسيح».

- ماتت؟!

- نعم يا ابنتي. إلتبس عليها الأمر، وبدل الزيت وضعت في السلطة «ديمول». غداً يصلّى على جثمانها هنا في كنيسة المدرسة.

في التابوت الذي يليق بنهاية مأساويّة لمراهقة رائعة الجمال، كانت «إسبيرنسا» ممدّدة، وشعرها الأشقر مرسل على جانبي وجهها وخلف رأسها مثل مروحة. مسبلة العينين. نائمة. كلّ منّا كانت تقترب تقبّل التابوت، تصلّي وتغادر. العمّة على حافة الانهيار والكنيسة بأسرها تجهش بالبكاء.

ما يمعن في مأساويّة الحكاية، أنّ الشابّ نفسه، عندما علم انهار. لم يخطر له أن يغدر بابنة خاله. كان يعبدها. كان يتمنّى أن يتزوّجها وأن تنجب منه. كان مستعدّاً لأيّ شيء، لكنّ الخبر الذي تركته له لم يصله.ظروف الدراسة جعلته يترك باريس إلى بوردو، وريثما يرتّب شؤونه حدث ما حدث... اختلط الأمر على «إسبيرا» وبدل الزيت وضعت الديمول!

السمّ الذي ازداد استخدامه في تلك الآونة، من قبل مزارعي التفّاح والفتيات المتهوّرات.

خرجنا من الكنيسة منهكات، نكفكف دموعنا، وتتّكئ الواحدة منّا على كتف الأخرى. صعدنا إلى المنامة.

كان للصلاة هذه الليلة مغزى آخر.

لكلّ «طقس الداخلي» الليلة مغزى آخر. هذه الليلة وما سيليها لن ترقص «إسبيرانسا»، ولن نصفّق لها.

سنصلّي لها. هذا كلّ شيء.

أحاول النوم. وبين الصحو والإغفاءة وجدت نفسي أردّد: سأكتب عن «إسبيرانسا». سأكتب عنها بالتأكيد. كانت تلك المرّة الأولى التي تخطر لي فيها فكرة الكتابة.

* * *

مهاجرون لأيّام

كما الحاجّة فردوس، سيبكي كلّ عربيّ نكبة فسلطين. يقال دار المنادي في الأحياء يستغيث، فيما هو يعلن النبأ المذهل الذي لن يلبث أن يطير على كلّ شفة ولسان. نبأ سيستقرّ في وجدان كلّ عربيّ حتّى آخر العمر: الصهاينة طردوا الفلسطينيّين من فلسطين، ليجلبوا إليها اليهود من أميركا وأوروبّا:

- «يا أهالي صور، يا أخوة العرب، يا أصحاب الشهامة والكرامة، هبّوا لمساعدة أهلنا الهاربين من فلسطين»!

المؤذّنون من على المآذن، أجراس الكنائس، المنادون في الشوارع، ينادون جميعاً بالمأساة: أهالي حيفا ويافا، أهالي المدن والأرياف، أهالي القدس، مسيحيّين ومسلمين، كلّهم طردوا من فلسطين!

خرجت المدينة.

رجالها ونساؤها، عجائزها ومراهقوها، كلّهم خرجوا لاستقبال أخوانهم المنكوبين. بدأ هؤلاء بالوصول. وسائل النقل المحمّلة بالبشر وبعض الأمتعة، تقبل من كلّ صوب. مراكب في البحر، سيّارات، حافلات بطريق البرّ، دوابّ في الدروب الوعرة، كلّها جاءت بالهاربين وبما حمله هؤلاء في لحظات الهلع. من لم يرَ فقد سمع: اليهود يوقفون الشبّان على الجدران ويدرزون أجسادهم برصاص البنادق والرشّاشات. قيل «أنجُ سعد فقد هلك سعيد». الحرب اشتعلت بين العرب واليهود. الجيوش العربيّة تدخّلت لإنقاذ فلسطين. لذا، من الحكمة الهرب. هي بضعة أيّام، وينتهي القتال بالنصر إن شاء الله وترجعون!

المراكب في عرض البحر تقترب. ومن على الشواطئ يصيح المستقبلون الله أكبر. المراكب الكبيرة حطّت في المرفأ، والصغيرة على مقربة من الشواطئ حيث جموع الناس تنتظر. الشبّان ينزلون في الماء، القويّ منهم يحمل العجوز، والمعافى المقعد.

الوفود المشرذمة تصل تباعاً. كثيرون، والهلع على وجوههم، يسألون عن أولاد لهم، أخوة وأقرباء. يخشى أن يكون أحد من هؤلاء، في هوجاء الفزع، قد فُقد. كثيرون سيعثرون على ذويهم في البلاد التي فرّوا إليها: مناطق متعدّدة من لبنان، سوريا، الأردنّ أو حتّى مصر. بعضهم سيلاقي أقرباءه بعد أيّام، شهور أو سنة. وآخر سيمضي

حياته يبحث... كما جرى لأسرة الصغير عبدالله، الذي رمته النكبة بغامض المصير، قبل أن يتمّ الثالثة من عمره.

هي بضعة أسابيع، وأهل المدينة يخرجون لاستقبال من ستسمّيهم هيئة الأمم بعد ذلك باللاجئين. أخي اليافع حمل عجوزاً على ظهره، وأبي رافق عائلات مسيحيّة يعرفها، من فلسطين إلى مقرّ المطرانيّة. وخالي أسكن أسرة في منزله. قاعات الكنائس والجوامع والمدارس أفرغت لاستضافة الهاربين. أسكنوهم في أماكن موقّتة وبيوت كريمة. ولأوّل مرّة منذ رحيل «الأرمن»، فُتحت مساكن هؤلاء: «أعشاش» باطونيّة رماديّة اللون، وطيئة الأسقف. ما كادت، في دورة النزوح، تودّع فوجاً حتّى بدأت تستقبل آخر لم يتأخّر في الوصول[1]..

على أنّ الأفواج القادمة لم تحمل معها الطفل عبد الله. قبل انتشار التلفزيون ومسلسلاته، ستغدو حكايته مسلسلاً ينتظر الناس حلقاته! كلّ منها تكذّب الأخرى، أو تضيف إليها معلومة تزيد من غموض المصير، ويغدو لقب الصغير «عبدالله الضائع».

كان ذووه، في حمّى الذعر وأنباء المجازر، قد التبس عليهم الأمر، فخيّل للأمّ أنّ زوجها قد حمل عبدالله، كما خيّل للأب الاحتمال الآخر: أن يكون الصغير قد ذهب بطبيعة الحال مع أمّه. وهكذا، بين أبوين ركب كلّ منهما المواصلات التي تيسّرت له،

(١) بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية، غادر كثير من الأرمن لبنان إلى أرمينيا، وخلا المخيم الذي كان قد شيّد خصّيصى لاستقبالهم عندما لجؤوا إلى لبنان.

ضاع الطفل. ظلّت العائلة المنكوبة أيّاماً ترابط على الطرقات. كلّما وصل مركب أو حافلة، بحثوا بين ركّابهما، لعلّ طفلهم يكون قد التحق بواحدة من مئات العائلات الهاربة.

بعد اليأس من قدومه، قرّر أهل المدينة أن يفعلوا شيئاً للعثور عليه. تشكّلت لجنة من شبّان صور، ومن فلسطينيّين لهذا الغرض. صاروا يدورون بين المهاجرين، تصحبهم أمّ الطفل مرّة أو أبوه أو أخوه. ولمّا يئسوا راحوا إلى صيدا. راحو إلى بيروت.. وصلوا إلى طرابلس. كان من شأن هذا البحث أن ينجز عملاً مفيداً، لو وظّفته وكالة «غوث اللاجئين» لإحصاء النفوس.

على أمل العودة القريبة إلى «الديار»، بدأت عائلة الصغير الضائع تمنّي نفسها بأمل آخر: أن يكون ابنها قد لجأ إلى أحد الأقارب أو الجيران. سمعته أخته يقول «عمّي مصطفى». لعلّه، اهتدى بنفسه إلى دار عمّه، وقد اعتاد الذهاب إليها مع ذويه. الأب يؤاسي زوجته بالقول: توكّلي على الله يا سليمة. عندما نرجع إلى فلسطين، بعد أسابيع إن شاء الله، سنلقاه.إن شاءالله العودة قريبة.

قالوا أسبوعاً أو أسبوعين. قالوا شهراً أو شهرين وسليمة تندب: ها هم قد دخلوا في الشهر الرابع والخامس... الإشاعات تؤكّد اللاعودة، ووكالة غوث اللاجئين تتصرّف تجاه «الموقّت» كما لو كان سيدوم. وأفراد الأسرة، تارة يذنّبون أنفسهم، وتارة يحلمون. وحين علموا أنّ العمّ مصطفى بقي في البلاد، غمرهم التفاؤل. ثمّ

تناهى إليهم ذاك الخبر... بأنّ مصطفى قد قتل مع من قتل. صاروا يندبونه ويندبون الطفل. لكنّ الأمل لم ينقطع: لا بدّ أن زوجة العمّ قد احتفظت بهذا المسكين. امرأة طيّبة، ولا شكّ في أنّها سترعاه كما ترعى أمّ ولدها.

الحكاية التي يتناقلها الناس مشرذمة، سأسمعها لاحقاً من أخت عبدالله الضائع نفسها، مشرذمة أيضاً. كنت لحين أن جلست هذه بجانبي على مقعد الدراسة، أخالها من ضروب القصص المحزنة، مثلما ليلى التي أكلها الذئب. وحين روتها لي «عليا» وهي تمسح دموعها، أدركت أنّ المأساة هذه من واقع، غدوت طرفاً فيه. أتشوّق إلى سماع ما يبلسم الروح في شأن الطفل الضائع، كما أخشى سماع خلاف ذلك. ظروف الدراسة ما لبثت أن باعدت بيني وبين عليا، لكنّ الصداقة الممهورة بحكاية عبدالله استمرّت. نفترق ونعود نلتقي، فتخبرني آخر ما سمعوا به أو خمّنوا ملابساته. ظللنا على هذا المنوال إلى أن حدثت تلك المفاجأة: العمّ مصطفى، الذي قيل صار بين الموتى، تمكّن بعد سنوات، من عبور الحدود الممنوعة، وجاءهم زائراً!

لو أمكنك أن تصف لقاء الأحياء أحبّاءهم الموتى، فسيمكنك وصف لقاء الأسرة عمّها. لا ريب في أنّ حضور ميت أشدّ استحالة من ظهور مفقود. وها هو الميت قد ظهر!

لعلّ المفقود الآخر - عبدالله - يختبئ وراء الباب، ليفاجئهم بحضوره الرائع!

أقبلوا على عمّهم، أخذوه في الأحضان وغمروه بالقبلات. وجيء له بكرسيّ فجلس. وسأل عن أخيه، فقيل له في السوق، وعن أحوالهم، فقيل لا بأس.

على رغم الترحيب، يشعر العمّ بشيء ناقص! تشوّش من حوله يصيبه بالإرباك! سأل ثانية عن أخيه، فقيل سيصل. وعن فلان وفلانة: عليا وسمير... لكنّ التعبير الملتبس يتراءى له في النظرات.

حكى لهم فصول الواقعة الرهيبة، يوم أوقفوهم على الحائط وأمطروهم بالرصاص. سقطوا جميعاً وهو سقط مع من سقط. ثمّ وبعد فترة، حين تأكّد له أنّه لم يمت مثل سائر الممدّدين قربه... مزّق قميصه، وسدّ منابع النزيف بقماشه، وانتظر قدوم الليل. إنسلّ من بين الموتى وزحف. ظلّ يزحف تحت جنح الظلام، حتّى وصل إلى بيت ابن خاله. وهذا، الذي لم يكن قد تحرّك من منزله، لسماعه همس الجريح فتح الباب و...

حكى لهم هذا، ثمّ نهض وكشف عن ساقه وذراعه، وهم يصغون إليه متلهّفين مذهولين، لا فقط بسبب ما جرى له، بل لغياب ذكر الصبيّ أيضاً عن السرد! لإمكانيّة أن يكون هذا قد قتل أيضاً مع من قتل، والعمّ يتلكّأ في كشف الحقيقة....

«يا سبحان الله» يقول العمّ، من كُتب له العمر لا تقتله شدّة»!

ثمّ التفت وسأل:

«صحيح... تذكّرت كيف حال عبدالله! وينو عبدالله؟!

عبدو كيف حالو؟ إن شاالله بخير؟

ما شاء الله بيكون كبر!

نعم، بالبساطة التي ظهر فيها عليهم كميت حيّ، يسأل عن مفقود كانوا ظنّوه، حتّى اليوم، في رعايته! السؤال الذي هو في ظاهره شديد البساطة كان في تلك اللحظة عين المأساة! العمّ مصطفى ينتظر الجواب مستغرباً تعابير الغمّ على وجوه الحاضرين! ولمّا رأى زوجة أخيه تنوح وتندب عبدالله، بكى. وفي تلك اللحظة فقط ظهرت صورة الطفل إلى شاشة ذاكرته: إبن أخيه يقف على تلّة صغيرة غير بعيد، فزعاً يضرب رأسه ويصرخ. فيما كان هو ينازع إغماءة الإصابة! لا يذكر أنّه حين فتح عينيه رأى عبدالله. كلّما فكر في هرب أخيه وأسرته تراءى له عبدالله مع الهاربين!

عليا، ستمضي حياتها تبحث عن أخيها. ضياعه من الأسرة جعله الأكثر حضوراً بين أفرادها. عليا التي تكبر الضائع بسنتين فقط، تذنّب نفسها كيف أنّها لم تمسك بيده، كما العادة حين يخرجان للّعب؟!

بمرور الوقت، كوّنت عليا تصوّراً خاصّاً لفقدان أخيها: عبدالله لم يبق في فلسطين كما يخيّل لذويه، بل هرب مع من هرب. وبالنظر إلى أنّه ضعيف الكلام، عجز عن أن يشرح للناس ظروفه أو يعرّفهم

بهويّته. عجز، عجزها هي عن ترجمة الفكرة التي باتت أكيدة. لكنّ المشهد لا يفتأ يكرّ في خيالها، وفيه عبدالله هارباً مع الآخرين، راكباً حافلة أو مركباً. يتراءى لها كما لو كانت شاهدة عليه. لا تجرؤ على البوح به. في طفولتها كان خوفها من أبيها يوقف الكلام في حنجرتها. ولمّا كبرت قليلاً لم تشأ أن تدمّر الحلم الذي ارتاح الكبار سنوات على فراشه.

* * *

رسميّاً، دامت الحرب بين الفصائل اليهوديّة، يدعمهم الإنكليز، وبين الجيوش العربيّة، سبعة أيّام. يقال: كانت على الصعيد العسكريّ قد حسمت سلفاً. فاللعبة العسكريّة بين الجيش الإنكليزيّ وزعماء الصهاينة، رتّبت منذ وعد «بلفور» لطرد سكّان البلاد من وطنهم إلى غير رجعة. لوقت طويل، بعد الاحتلال، كان الإعلام الغربيّ يزعم، جهلاً أو استغباء، «أنّ البلاد هذه كانت خالية، إلّا من بعض البدو المقيمين في أطراف الصحارى، والقلّة من الرعاة الذين ما زالوا يتحرّكون مع مواشيهم «آمنين» في الأماكن عينها. لا شيء تغيّر سوى الاسم. بدل فلسطين صار اسمها «إسرائيل».

تكرار لحكاية الصليبيّين واحتلالهم القدس.

ولحكاية الهنود الحمر.

إذا ما كان فاتحو أميركا قد حلّلوا قتل الهنود بمباركة سلطة السلطات آنذاك، الكنسيّة، وتلك لم تتأخّر بحجّة أن ليس لهؤلاء أرواح، فالصهاينة لم يتحسّروا على سلطة تحلّل قتل الفلسطينيّين وطردهم. «التحليل» حاضر. والسلطة حاضرة. السلطة الشكليّة للقوى العظمى: الأمم المتّحدة! ستوافق هذه على الأسطورة! وتغدق على منتحليها ومعتمريها ومنتعليها !

فلسطين: وطن الناجين من المحرقة! حقّهم التاريخيّ!

حقّاً! فغولدا مائير التي ولدت كما أجداد أجدادها في روسيا، وهاجرت منها إلى أميركا... لها «أصول أخرى» في أرض فلسطين! فمنذ أكثر من ألفين وخمسمئة سنة، كان لها خال، «رابان» سباه نبوخذ نصّر الكلدانيّ من أرض كنعان.

لا بدّ لها من ردّ الاعتبار!

تثأر من الفاتح الكلدانيّ ومن بعده الرومانيّ، بقتل «عبدالله» الفلسطينيّ، وسبي شعب فلسطين بأكمله، لتبني على أرضه دولة «إسرائيل». ستأتي بيهود العالم. لهؤلاء أيضاً، تقول الأسطورة، ويؤكّدها مجلس «الأمن» أخوال وأعمام سباهم نبوخذ نصّر .

* * *

ليست الجيوش العربيّة وحدها من مني بالهزيمة، فالنفوس ضُربت في الصميم. وما ظنّه الغرب والصهاينة حدثاً عابراً سيسعون عاجلاً لترميم آثاره عبر «الأونروا»، سيغدو المفصل التاريخيّ الذي ستنهار لانكساره الأنظمة العربيّة، الحدث الذي سيلهب المشاعر في القارّة التي تمتدّ على ملايين الأميال من السودان حتّى تونس، ومن المحيط إلى الخليج. إنفضح الزيف: ما الإغراءات التي قدّمها الحلفاء للعرب، ليقفوا في صفّهم ضدّ الإمبراطوريّة العثمانيّة، سوى خديعة تموّه مؤامرة تعتّم على وعد «بلفور» بجعل فلسطين مستعمرة يأتون إليها بسكّان جدد يهود من أميركا وأوروبّا.

قذارة اللعبة، والنكبة التي نتجت منها، ستهزّ النفوس. ستشعل نار الغضب في الصدور «من المحيط إلى الخليج». ومن الجرح الذي أصاب العرب في الصميم، تدفّقت قوّة نضاليّة كان من المستحيل كبح جماحها. قوّة تحمل ثقلاً تاريخيّاً طويلاً من الإحساس بالظلم. الأجيال الجديدة تطالب «بالثأر» ممّا جرى، أو بتصحيح المسار وإقرار العدل في فلسطين. جيل ينطق لسانه بالثورة على قرون طويلة من الظلم تُوّجت بنكبة فلسطين. وجيل الآباء ملؤه الإعجاب بأن يقوم الأبناء بما عجزوا هم عن القيام به. سريعاً سيتحوّل الغضب إلى عمل، وتنهض حركات وأحزاب قوميّة ويساريّة تطالب بتحرير فلسطين، بل بتحرير البلدان العربيّة بأسرها من الاستعمار. حركات ستكسر جدار الحريم وتدعو الشابّات كما الشبّان للمشاركة.

وغدت «جميلة بو حيرد» نموذجاً، وصارت أغنية «أخي جاوز الظالمون المدى، فحقّ الجهاد وحقّ الفدا» الأشهر للتعبير عن واقع الحال. الحركات الناهضة ربطت مطالبها باسترجاع فلسطين وإعادة الشعب المطرود إلى وطنه:حزب البعث الذي كان مدنيّاً علمانيّاً قبل أن يتسلّم مقاليده العسكر، وتصادره الأنظمة الاستبداديّة، الحزب القوميّ السوريّ، حركة القوميّين العرب، وكان أخي «حسين» أحد مؤسّسيها في صور، وهذا أتاح لي «مشاهدة» أولى الانتخابات في حياتي، وأنا في الثانية عشرة من العمر. فهذه الانتخابات أجريت في دارنا في صور. الدار نفسها، التي قيّض لي أن أدخلها «زائرة»، لأشارك بين الجدران التي شهدت نشأتي لحين الزواج، في أنشطة ذات طابع سياسيّ وثقافيّ، إذ تحوّلت دارنا في الثمانينيّات إلى نادٍ «لمنظّمة العمل الشيوعيّ».

الحزب الشيوعيّ كان سبّاقاً إلى العلمانيّة، وكان قد تأسّس قبل نكبة فلسطين. في مطلع نهضته، قام في جنوب لبنان على أكتاف رجال خرج بعضهم من عباءة ذويهم الشيعة، أو من عباءة التعليم الدينيّ نفسه. فالبعض من طالبي «الاجتهاد» في العراق، ما لبث أن غيّر وجهته، وتبنّى الإيديولوجيّة التي أثّرت في أبناء القرن العشرين: الماركسيّة. وفي صدارة هؤلاء المناضل «حسين مروّة» الذي بدأ حياته شيخاً في النجف، ثمّ انتهى مفكّراً يساريّاً وقياديّاً شيوعيّاً ترك

عدداً من المؤلّفات، قبل أن يلقى حتفه على أيدي مسلّحين، إبّان الحرب الأهليّة في لبنان، وكان عمره يُجاوز الثمانين.

حركات أخرى كثيرة أسهمت في تشكيل وعينا: منظّمات تقف على يساره وتنتقد تبعيّته المفرطة للاتّحاد السوفياتيّ، وعلى رأسها «منظّمة العمل»، وماويّون، تروتسكيّون، جبهات عديدة لتحرير فلسطين: فتح، الحركة الشعبيّة الديموقراطيّة، وما تفرّع عن هذه وتلك. لذا، وفي رؤية استرجاعيّة، تبيّن لي ما لم يكن قد تبلور في ذهني من قبل. ما قد يجيب عن تساؤلات «كاترين»: لست أنا «الثوريّة» الأولى في العائلة، وقد ولدت في مدينة مسيّسة وفي بيت انطلق العمل النضاليّ منه.

في تلك الحقبة المتأجّجة، نادراً ما كان الناس يهجسون بأنّ هذا مسيحيّ وذاك مسلم، هذا من السنّة وذاك من الشيعة. بل هذا يمينيّ وذاك يساريّ. هذا قوميّ وذاك شيوعيّ. هذا ليبراليّ وذاك محافظ. في أوساط النضال، جورج ومحمّد وميشال وأمثالهم... كلّهم ينادون بسقوط إسرائيل والأنظمة المهادنة لها. ستجد في صفوف هذه الأحزاب شبّاناً يهوداً، لبنانيّين، سوريّين أو من أصول أخرى، يعترضون على قيام دولة تتحدّث باسمهم، ويُستغلّ «شعبها» لخدمة القوى الكبرى، بذريعة قوميّة وهميّة لا تعدو كونها صورة للنازيّة تحمل اسماً آخر.

سينخرط الآلاف في صفوف الأحزاب والحركات التي كلّ منها تحمل رايتها، وجميعها تحمل راية فلسطين. دخل العالم العربيّ حقبة التسييس. وتحوّل لبنان إلى تظاهرات لا تنقطع. لن تجد بين الناس من يقول لا يهمّني ما جرى وما سيجري، ولا بين المثقّفين من يقول ليس لديّ ميل «إلى السياسة». قول مثل هذا كان أشبه بمن ينفي عن نفسه المتطلّبات الطبيعيّة للزواج. لن تلقى في صور مثقّفاً شيعيّاً أو غير شيعيّ، أو حتّى شابّاً يرتاد مدرسة ثانويّة لا يميل إلى حزب أو ينتسب إلى آخر.

في الخامسة عشرة من عمري - ولم أكن الفتاة الوحيدة - بدأت أشارك في العمل العامّ وفي التظاهرات. أختي التي تكبرني بسنوات، تلحق بالتظاهرة لتبحث عن المراهقة التي لا بدّ أن ترجعها إلى البيت. لا يمكنها أن تقول لها: دعك من هذا. بل ستقول: إحتفظي بحنجرتك لتظاهرة الغد. ووالدي الذي كانت نظرة واحدة منه تكفي لتجميد الدم في عروقنا، سيسأل، من باب الدعابة بالتأكيد:

- «إن شالله كانت مظاهرة اليوم حامية»؟

* * *

قلّما تمكّن بلد صغير من احتضان الحركات السياسيّة كما لبنان، والقيام بدور ذي شأن في محيط البلدان المجاورة الشاسعة

الامتداد. فقد نجح لبنان في احتضان الثقافة والعلم والصحافة والفنّ والمهرجانات والإيديولوجيّات والترفيه، وتصديرها.

إن كنت من اليسار فوجهتك لبنان.

مضطهداً في وطنك فملاذك بيروت.

تصبو إلى تعليم مميّز فعليك بجامعاته.

صروح تلك المقاهي والمطاعم التي يرتادها طلّابها، تعصّ بالمناضلين، بالمنفيّين أو الهاربين من ظلم الحكّام في المنطقة. يقال، يخطّط في بيروت ما سينفّذ في دمشق وبغداد أو عمّان. في مطعم «فيصل» و«الأنكل سام» وفي «الدولتشي فيتا» وغيرها من أماكن الروشة والحمرا التي طارت شهرتها في الآفاق.

إلى جانب الحركات السياسيّة، كان لازدهار لبنان دور كبير في تشكيلنا الثقافيّ. في مهرجانات الصيف والشتاء، بعلبكّ، بيت مري وبيروت، تسنّى لنا مقابلة شخصيّات ثقافيّة عالميّة أمثال «آراغون» الذي ألقى قصائد بديعة «لإلسا»، و«تروفو» الذي عرض له «ليلة أميركيّة «والعازف «كارايان» الذي يعزف بأوتار العقل والقلب، و«مكسيم رودنسون» متحدّثاً عن معضلة الشرق الأوسط، وأمّ كلثوم التي غناؤها يطرب الروح. وأصغينا إلى كتّاب عرب، يوسف إدريس والطيّب صالح، وكثيرين غيرهم. كانت قاعات «الندوة اللبنانيّة»

والجامعة الأميركيّة والأونسكو وغيرها، تغصّ بالحاضرين. وتتبارى قاعات السينما وأنديتها في إحضار آخر أعمال العمالقة الإيطاليّين: فيلليني، فسكونتي، بازوليني زيفيرللي، الإسبانيّ بونويل. السويديّ إنغمار برغمان، والفرنسيّين ألان، رينيه، تروفو... سنرقص على أنغام «زوربا» اليونانيّ، ونخرج من فيلم «حالة حصار» في تظاهرة ضدّ أيّ «حصار».

لبنان، سويسرا الشرق، صار قطباً جاذباً للثقافة والتمرّد والاحتجاج. صار امتداداً للقاهرة، للجزائر، لبغداد، لدمشق. امتداداً لهانوي، لبودابست، لجنوب أفريقيا...

وصار أرضاً للصراعات.

صراعات تمهّد للحروب المقبلة، الأهليّة منها أو الحروب بيننا وبين «إسرائيل». يزكّيها الجموح الذي تأسّست عليه تلك «الجارة الوديعة» وشعارها «حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل».

ثكنة عسكريّة،

جنودها يهود العالم!

وغايتها ليست إسعادهم، بالتأكيد. وقود لتنفيذ الخطّة التي صرّح بها «بن غوريون» عام التأسيس ١٩٤٨. وبغطرسة من لا ينازعه الشكّ، أوقعته في فخّ الأخطاء التاريخيّة، والوهم أن مسيحيّي لبنان

طوع بنانه، وأنّ البلاد العربيّة ملعب يسرح فيه ويمرح، وأنّ في طوعه الانتقام من كلّ شعوب المنطقة التي جاء إليها ثأراً «لأجداده»! قال:

«يجب أن تقام دولة مسيحيّة في جنوب لبنان، عند حدود نهر الليطانيّ. سنحالفها. وحين سندمّر القوّات العربيّة، ونقصف عمّان، سنقضي أيضاً على الضفّة الغربيّة، عندئذٍ تنهار سوريا. أمّا مصر... فإن كانت لا تزال مهتمّة بالمواجهة، فسنقصف بور سعيد، الإسكندريّة والقاهرة. هكذا نصفّي حسابات أجدادنا بيننا وبين المصريّين، وحفداء الأشوريّين والأراميّين»[١].

سذاجة أقواله لا تَخفى اليوم على سامع. فما مسيحيّو الشرق الذين زيّنت له مخيّلته محالفتهم، سوى حفداء الكنعانيّين والأشوريّين والآراميّين الذين يريد الانتقام منهم! واللغة الآراميّة هي لغة السيّد المسيح، لغة أجدادهم، بل لغة أهل المنطقة بأسرها. وإنّ الآراميّة ظلّت لزمن طويل اللغة الرسميّة للكنيسة في الشرق.

سيتأكّد لمناصري «بن غوريون» أنّ مسار التاريخ ليس لمصلحة الغطرسة، وأنّ استخدام اليهود كوقود يحمل نهايته في طيّاته. فاليهود الأحرار بدؤوا يدركون خطورة «المحرقة» الجديدة التي زُجّوا فيها. وها هو الكاتب اليهوديّ «شلومو زاند» ينشر مؤلّفاً حول «الخرافة

(١) أنظر خطبة بن غوريون في أرشيف مؤسّسة الأهرام، القاهرة.

التي قامت عليها دولة إسرائيل، وضرورة الفصل بين الحجّ إلى القدس وتحقيق هذه الخرافة. «فالسبي» أسطورة. وفكرة القوميّة اليهوديّة التي بنيت على أساسها الصهيونيّة، وأنشئت دولة إسرائيل، هي أيضا أسطورة، اخترعت منذ نحو قرن واحد فقط»(١).

قبل «زاند» بأكثر من سبعين عاماً، كان الصهاينة قد دعوا «أينشتاين» ليرأس «جمهوريّتهم» فرفض. ودعوا «فرويد» لدعم مشروعهم الخرافيّ. فرويد طلب الاطّلاع على «حيثيّات» المسألة. وإذ صارحوه بها أجاب: «وهل كلّما رغب يهوديّ في أن يضرب رأسه بحائط المبكى، وجب علينا أن نطرد شعباً من أرضه»؟!

«زاند» و«فرويد»، «ألفريد ليلنتال» و«تشومسكي» وغيرهم كثيرون، بعدهم سيكون شعار المستقبل:

«يا يهود العالم تحرّروا من الصهيونيّة. يا يهود العالم اتّحدوا في وجه المحرقة التي يضرمها الصهاينة».

(١) ولد شلومو زاند في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٤٦ في أستراليا من عائلة بولونية يهودية نجت من المحرقة. كان لوالديه وجهات نظر شيوعية ومناهضة للإمبريالية ورفضا الحصول على تعويضات من الألمان بسبب معاناتهم في الحرب العالمية الثانية. انتقل مع عائلته إلى يافا عام ١٩٤٨. هو أستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب ومؤلف الكتاب المثير للجدل The Invention of the Jewish People (Verson Books, 2009) اختراع الشعب اليهودي.

معارضون إلى الأبد

في باريس، وكنت لا أزال أدرس التاريخ قبل أن أتحوّل عنه إلى الأدب الحديث، شجّعني أستاذي المستشرق «دومينيك شوفالييه»، على أن أتناول ظاهرة «عاشوراء». لاحظ «شوفالييه» استغرابي اهتمامه بتلك الظاهرة، وقلّة حماستي لاعتمادها أطروحة بحث، فقال:

«لا بدّ، يا آنسة من أن يكون لهذا «الطقس» مغزى بالغٌ في نفوس من يقوم به، مغزى يُجاوز الفلكلور ويستدعي اهتمام الباحثين».

كان انشغال جيلنا بالمفاهيم الثقافيّة الحديثة أشدّ بكثير من أن يدعنا ننشغل بظاهرة أنتروبولوجيّة قائمة منذ أكثر من ألف عام.

* * *

في الصغر، كان يخيّل لي أنّ إحياء طقس «عاشوراء» يقتصر على النساء. هؤلاء، متّشحات بالأسود، يجتمعن في منزل إحداهنّ ويقمن «المجلس». من أكثر تلك المجالس شهرة، المجلس الذي كرّسته خالتي الكبرى «لطيفة» لخدمة «أهل البيت عليهم السلام». لم يكن لديها أولاد. كنّا نحن أولادها، و«أهل البيت» عائلتها. كان صالونها الشرقيّ الواسع يكتظّ كلّ عام، طيلة عشرة أيّام، بالمتحمّسات لإحياء «الذكرى». تسبقها بضعة أيّام من الاستعدادات، وتليها ثلاثة أيّام، توابع حداد، يطلق عليها تعبير «حرق الخيام».

كنّا، نحن الصغار، نترقّب هذه المناسبة لننال نصيبنا من البسكوت الطازج والحلقوم اللذيذ، عن «روح الحسين». أمّا «الهريسة» التي كانت توزّع في اليوم العاشر، والمصنوعة من القمح واللحوم، والتي يحتفل الكبار بقدومها السنويّ، فلم تكن تحظى لدينا بأيّ اهتمام؛ شأنها شأن الطعام الذي كان أهلنا، أيّام العيد، يغروننا به بدل «السندويشات» التي كانت عنوان حرّيّتنا الصغيرة، والتي كنّا نفضّل مذاقها على أيّ مذاق آخر.

ذات مرّة «رابطت» أنا وصديقتي على باب مجلس العزاء، ننتظر «العطيّة» الموعودة. كنت مشدودة الحواسّ لما تقوله المقرئة، وللفصل الذي تؤدّيه. كان وطيس المعركة على أشدّه في الأرض «المقدّسة»، والحسين نزل إلى المعركة التي كنت أعرف خاتمتها.

قبل نهاية المشهد، أوليت ساقيّ للريح، وصديقتي تلحق بي قائلة «يا مجنونة اصبري دقايق وبيعطونا البسكوت والحلقوم»!

نادراً ما كانت أمّي ترتاد مجالس العزاء. وإن فعلت فإرضاء لخالتي، ولوقت قصير، ومستمعةً ليس إلّا. كنت أعتبر ضعف مشاركتها مسألة طبيعيّة ترجع إلى تقاليد يمارسها بعض الشيعة، ولا يمارسها البعض الآخر، مثلما هو طبيعيّ أن تلطم أمّ مصطفى صدرها حتّى يغدو أحمر مثل قلب البطّيخة! سألت أمّي: لمَ تضرب هؤلاء النسوة أنفسهنّ؟! أذكر أنّ وجهها عبّر عمّا سيعبّر عنه لسانها، فهي لا تحبّذ هذا، بل تفضّل طريقة الرجال في إحياء الذكرى. الإصغاء إلى السيرة والتمعّن في مغزاها.

كلام أمّي على طريقة الرجال في إحياء الذكرى، أثار فضولي. في مروري يوماً بنادي «الكلّيّة»، تسلّلت إلى قاعة الندوة. وبالفعل، لفتني نظام جلوسهم المتقن، ملابسهم الرسميّة والكرافتات التي يشدّونها حول رقابهم. ولفتني إصغاؤهم الرصين إلى ما يقوله المقرئ. يتمعنّون بمغزى الكلام ويهزّون رؤوسهم تأثّراً واستحساناً. والقصد الذي شرحته أمّي تجسّد بهذا الاحتفال الرجاليّ الرزين. ما كان يزيده أهمّيّة استثنائيّة التنوّع: رجال من عدّة طوائف يؤكّد حضورهم التعاطف معاً أمام واقعة الاستشهاد: مطارنة، قسس، مشايخ آتون من صيدا، بيروت، بعلبكّ، أو حتّى من طرابلس. أضف إليهم مغتربين

صوريّين وجنوبيّين يأتون إلى بلداتهم في المناسبات، وعلى رأسها بالتأكيد «عاشوراء».

كلّ يوم من أيّام «عاشوراء»، تختار المقرئة فصلاً من فصول المعركة التي دعا فيها أهل الكوفة الحسين لمبايعته خليفة للمسلمين، ضدّ يزيد. وفي ساعة المواجهة على أرض كربلاء، خذلوه. غير أنّهم، حين رأوا ما صار إليه حفيد رسولهم الأعظم وأهل بيته، استفظعوا تخاذلهم. فصاروا يلطمون ويضربون أنفسهم حسرة وندماً. كانت تلك نشأة «طقس العزاء»، وفيه نرى الحسين يتهيّأ هو ومناصروه للسفر. ووجهته كربلاء.

المقرئة تمهّد لذلك بسرد عاديّ يقرب من الرتابة. على أنّ سردها سيتحوّل شيئاً فشيئاً عن الرتابة إلى الحيويّة، ليغدو أشبه بنحيب، كلّما اقترب الشهيد من موقع شهادته.

إنّه ماض في الدرب الذي لا رجعة عنه!

ستنتحب قارئة السيرة بخفوت، والحاضرات ينتحبن بخفوت أيضاً، ليشتدّ نحيبهنّ كلّما اقتربت الواقعة التي يعرفن فصولها. سيعلو بكاؤهنّ. أمّ مصطفى ستضرب صدرها بكفّيها، ومثلها أخريات. يضربن الأكفّ على الصدور في إيقاع منتظم وحادّ يشعرك بانسلاخ الجلد عن اللحم، فالحسين قد وصل! سيلتحم الفريقان ذاك الالتحام الذي لا تنفع معه بطولة الأبطال، فالشهادة تنتظر صاحبها في أرض الدم والعطش. ستقطع الماء كما رؤوس الرجال.

واعطشاه! تصيح النسوة!

سينهضن من جلوسهنّ، بأذرع رفعنها إلى السماء، ويمتلئ الفضاء بالأكمام السوداء، ويضجّ بعبارات التكبير وصرخات «واحسيناه»! إنّها لحظة الحسم، التي يقطع فيها الرأس ويتدحرج، رأس حفيد الرسول عليه السلام، سيّد شهداء الجنّة، الحسين.

«زينب» تنتحب على رأسه! وابنته سكينة على قدميه. هي وعمّتها تتناوبان على رثائه. كلّ منهما في عزائها الأخرى تمعن في إيغال الجرح. لا نعلم فاجعة أيّهما أكبر، وجرح أيّ منهما الأبلغ، مَن فقدت أباها أم مَن فقدت أخاها؟

سيحمى وطيس المعركة. ويتابع المؤمنون المسيرة. السيوف تحزّ الرقاب، تقطع الأجساد. مناصرو «آل البيت»، فتيانهم وحتّى أطفالهم، يتساقطون، الواحد تلو الآخر. وفي اليوم العاشر تحسم المعركة حسماً يكرّس فيه مجد الدنيا والظلم ليزيد، وعرش الآخرة والشهادة للحسين.

لن يكتفي يزيد بالنصر، بل، تشفّياً من معارضيه، سيعمل على محو آثارهم. سيأمر بحرق الخيم التي أقاموا فيها كي لا يبقى لها أثر يحكي.

فلول أهل البيت تغادر المكان.

زينب ستحمل رأس أخيها وتهيم به على وجهها في الصحراء،

وصولاً إلى الشام، حيث تموت ويغدو مقامها مزاراً لشيعة العالم، فيما يؤكّد بعضهم بلوغها مصر، حيث دفن الرأس، وشيّد عليه مسجد الحسين الذي غدا مزاراً يؤمّه المسلمون من كلّ أطراف الدنيا. وليس من ضروب المصادفات أنّ «زينب» قد خُلّدت في مقامين يقع كلّ منهما على أكثر أراضي المدن العربيّة الإسلاميّة بلاغة: الشام والقاهرة.

في طفولتي، كان لكلمة «كربلاء» وقع شديد الالتباس على روحي. فهي تحمل من المقدّس قدر ما تحمل من الشيطانيّ. أن يسعى طالب عدل إلى الاستشهاد على أرض كربلاء، موقناً قدريّة هدفه، ففي هذا قداسة لا ريب فيها. ولكن أن يدعوه أهل الكوفة لتسلّم الأمانة التي تركها له جدّه رسول الله، ثمّ يخذلوه، فهذا من ضروب الشيطان. وتزداد المسألة التباساً حين تصف «المقرئة»، منتحبةً، مرور الحسين بأحد المؤمنين، وسؤاله إيّاه عن أصالة استدعاء أهل الكوفة له، لإعلان الثورة على يزيد. المؤمن يجيب بما من شأنه أن يثني أيّ ثائر عن عزمه، مؤكّداً له المصير المأساويّ الذي سيلقاه.

لكن لا...

لا يتراجع من كان قدره قد رسم لخلاص الآخرين. هكذا يمضي الشهيد إلى أرض الشهادة حيث يلاقي عدوّه اللدود.

سأنتظر سنّ النضج، لأدرك مغزى الاستشهاد، خارج مسألتي

النصر والهزيمة، على أنّه الضرورة التي تضع الحدّ الفاصل، في ذهن المؤمن الشيعيّ، بين الضلال والحقّ. لا همّ كيف تتشكّل الملابسات. كلّها من لحمة المأساة، وتصبّ في جوهر واحد: إقرار العدل في الدنيا لبلوغ النعيم في الآخرة.

تضحية الحسين تختلف جوهريّاً عن تضحية «سبارتاكوس»، «زيباتا» أو «تشي جيفارا». تضحيات مثل هذه تبدأ وتنتهي في حقبة تاريخيّة معيّنة، ولا جزاء لها سوى إرساء حقّ دنيويّ. على أنّ شهادة الحسين مطلقة لأيّ شيعيّ متمثّل لها. وكما أنّ الصلب كنه الديانة المسيحيّة، هكذا الشهادة كنه المعتقد الشيعيّ. وكما يقاوم المسيح الخلاص الآنيّ لبلوغ خلاص آخر، أبديّ كلّي، يخلّص من الغيّ جنس بني البشر، هكذا يصرّ الحسين على المضيّ في طريق الشهادة لإقرار العدل. وما يوضاس، الحاكم الرومانيّ، والصليب، سوى وسطاء، كلّهم من ضرورات الخلاص، مثلما جموح يزيد وسيف «الشمر العنيد» وتعلّق بني أميّة بمجد الدنيا... كلّها وساطات غير مقدّسة لازمة لإحلال المقدّس.

على أنّ «القبول»، بالظلم الدنيويّ شرطاً للخلاص، والذي «قد» يستشفّ من كنه الصلب في المعتقد المسيحيّ، يقابله «الرفض» في المعتقد الشيعيّ: فاستشهاد الحسين أمثولة لرفض المؤمن الظلم على الأرض، رفضاً مطلقاً غير آنيّ. لذا ليس غريباً أن يطلق مناوئو الشيعة عليهم لقب «الرافضة».

ستغدو واقعة كربلاء أسطورة قابلة للديمومة عبر العصور. وانتصار يزيد على «الشهيد»، الذي كانت غايته محو الأثر، صار أمثولة تحتذى عبر الأزمنة. ستغدو كلّ أرض شهادة كربلاء: القدس، بغداد أو جنوب لبنان. وستكرّس فجيعة زينب أمّ الفجائع. ويغدو التشيّع منبراً للمعارضين يلبس لباس العصور، ليستمرّ كذلك عبر أكثر من ألفيّة من الزمن.

أسطورة تتوغّل في المطلق. ما من صدى مثلما للمطلق في الروح. وما من جاذبيّة مثل جاذبيّته. والواقعة التي غدت أسطورة، قد لا تكون مفهومة ممّن هم «خارجها»، إلّا أنّها تبقى بالغة الأثر في نفوس المؤمنين بها. وما يزيدها تأثيراً وصداها استمراريّة، خصوصيّة عناصرها: فالمواجهة ليست بين عبيد ونبلاء، أو بين مستضعفين ومتغطرس... وليس أبطالها متمرّدين موقتين في الأرض، شأن سبارتاكوس، بل هي واقعة فريدة يتساوى في فصولها النبلاء والعامّة، يشكّلون معاً ملحمة الشهادة التي ترتقي بالبشر إلى الخلود.

حركات كثيرة في التاريخ الإسلاميّ تشكّلت على أرض الشهادة هذه، ابتداء من بني العبّاس الذين رفعوا الراية السوداء، مطالبين بإقرار الحقّ ضدّ الأمويّين، مروراً بنهوض الفرق الشيعيّة وعلى رأسها الإثنا عشريّة التي تسود في إيران والعراق ولبنان وعدد من بلدان آسيا.

معارضة ستلبس لباس العصور! كما حدث بعد العام ١٩٨٢ قبل

ذلك، كان غضب «غولدا مائير» من «أفعال» المقاومة الفلسطينيّة، قد بلغ مداه حتّى قالت فيه: «إسرائيل لن تعتمد بعد الآن على البلدان المجاورة للقضاء على المقاومة، بل ستتولّى هي مباشرة تصفيتها»!

لم تكن تكذب. لم تشهد «التصفية». لكنّ من «أحسنت» تربيتهم أفلحوا. ستقوم إسرائيل بغزوها الشهير على لبنان محمّلة بأسلحة تقارب ما استخدم في الحرب العالميّة الثانية. وتخصّ جنوبه، معقل المقاومة، بحصّة الأسد منها.

في اليوم الأوّل لاحتلال صور أجبر الناس جميعاً، نساء رجالاً وأطفالاً، على الخروج إلى الشاطئ[1]، تمهيداً لقصف المدينة والمخيّمات. وخصّص اليوم الثاني للرجال. جميع الرجال من سن الثانية عشرة حتّى الثمانين، خرجوا إلى الشاطئ، أجبروا على الركوع والزحف ركوعاً، تمهيداً لاعتقال من يستنسب الضبّاط اعتقاله منهم.

سيُخرجون المقاومة الفلسطينيّة في تابوت سفينتها من لبنان. سيحتلّ الجيش الإسرائيليّ كامل الجنوب، ويصل إلى بيروت. سيقيم معتقلات الخيام وانصار لمن «يشتبه فيهم» من مقاومين وأنصار مقاومين. هكذا استراحت إسرائيل من المقاومة الفلسطينيّة.

(١) «رجاء نعمة»، رواية «كانت المدن ملوّنة» دار الهلال القاهرة ١٩٩٠- دار الساقي بيروت ٢٠١٠، أنظر فيها الفصل الذي يصوّر الغزو الإسرائيليّ لمدينة صور، وإخراج الناس إلى الشاطئ.
- أنظر فيلم «ناجي العلي» الذي هو الفصل نفسه من الرواية المذكورة. إخراج «عاطف الطيّب» وتمثيل نور الشريف.

ستتحسّر كثيراً على تلك؛ فقد خرجت لها من على الشاطئ الذي أركعت فيه الرجال ذاك النهار... مقاومة أخرى، أشدّ بأسا من سابقتها، أصلب وأكثر تنظيماً. وهذه المرّة جاءتها إسلاميّة.

عاد طقس العزاء إلى البروز بعد عقود من الاضمحلال. عاد أقوى بكثير ممّا كان عليه في السابق. ما عاد يقتصر على مجلس خالتي الذي كان قد انقرض، ولا على جدران تضمّ نساء كبيرات السنّ. ستفتح الدور وتشاد القاعات وتنخرط كل الفئات في إحياء طقوسه. يقيمونه كلّما استشهد شهيد، بل يقيمونه كلّما مات أحد ولو موتاً هانئاً في فراشه. عمّ إحياء «العزاء» وانتشر. وصارت تتولّى ريادته شابّات متعلّمات. وخرج الرجال عن التقليد القديم. وبدل الاكتفاء بالإصغاء إلى «السيرة»، صار جلد النفس ظاهرة ترافق الاحتفاليّة. ما يقام في العراق وإيران، بدأ يقام في جنوب لبنان. وفي المناطق الشيعيّة الأخرى. مئات الآلاف من الرجال سيتجمّعون في عاشوراء لإحياء الذكرى.

وللتذكير...

يحكى أنّ جنود الاحتلال مرّوا بإحدى قرى صور، أمام منزل يقام فيه «مجلس عزاء»، وسمعوا ولولة نساء وصراخاً. ثمّ ما لبثوا أن شاهدوا مجموعة شبّان يلطمون ويجلدون صدورهم وظهورهم، والدم يسيل!

وهل يمكنك أن تمنع أحداً من أن يقتصّ من نفسه؟!

أصيب الجنود بالذهول. إن كانت ولولة النساء في الداخل قابلة للفهم، فسيبقى الجلد عصيّاً عليه! بالنسبة إلى هؤلاء الجنود على الأقلّ. وسيبقى بالغ الأثر بالنسبة إلى الواحد منهم بالذات. إستعجل هذا دخول دكّان قريب لشراء شيء، وسؤاله يسبقه عن مغزى ما يحدث!

- «يندبون شهيداً»، أجابه صاحب الدكّان، وقد فطن للذعر الذي لبس الجنديّ.

تأكّد للإسرائيليّ أنّ المعنيّ بالأمر هو أحد الشبّان الذين قتلوا البارحة على يد زملائه.

أو على يده هو! من يدري؟! حين يطلَق الرصاص عشوائيّاً يُعرف القتيل ويبقى القاتل مجهولاً.

«لعلّه هو القاتل»!

وسبقه لسانه للسؤال:

- يندبون مَن قتل البارحة؟

- نعم. ويندبون شهيداً آخر.

- قتل أوّل أمس؟

- لا بل منذ ألف وخمسمئة سنة، أجاب صاحب الدكّان تمهيداً لتعريف الجنديّ بواقعة استشهاد الحسين. وختم تعريفه بالقول:

- «إنّهم يتدرّبون على الألم لئلّا يتخاذل أيّ منهم. من يتخاذل فمصيره نار جهنّم في الآخرة، والاقتصاص في الدنيا.

- ومن سيقتصّ ممّن؟

- الله يقتصّ من الظالم، ويقتصّ من كلّ متخاذل عن مقاومة الظلم.

- «غريب»!

علّق الاسرائيليّ وقد لبسه الفزع:

«إن كانوا يفعلون هذا بأنفسهم، لسبب مضى عليه ألف وخمسمئة عام، فما بالك بما... انتقاماً لما يجري لهم الآن»؟!

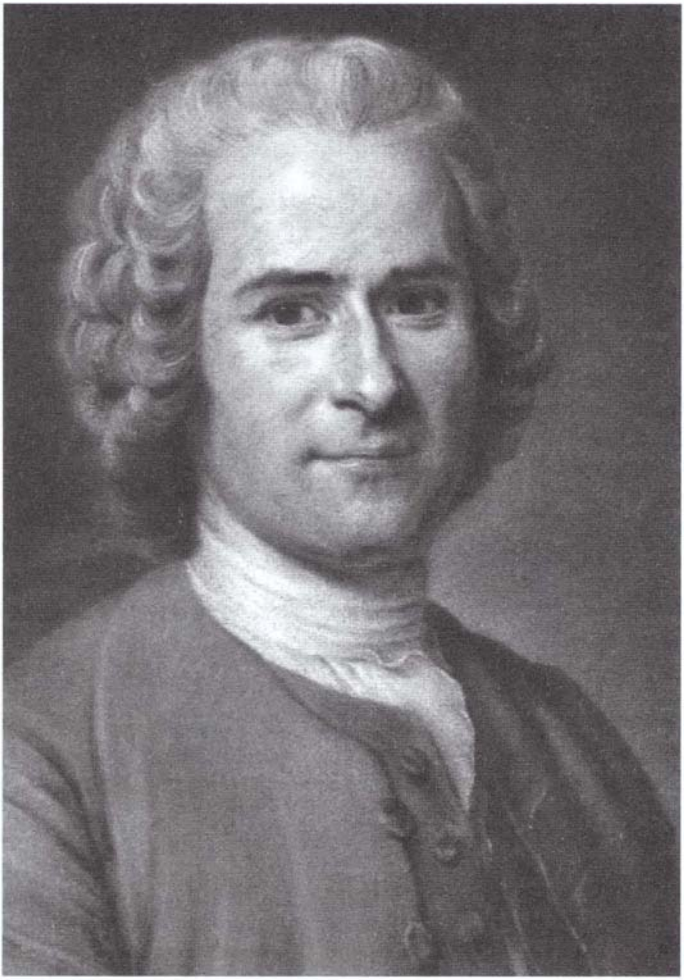
يُحكى أنّ الجنديّ أصابه اكتئاب. ولولا خوفه من أن يتّهم بالتمرّد، لقبع في الثكنة وكفّ عن الخروج. على أنّ لعنته ستلاحقه. في عصر ذاك النهار الذي تناهت إليه فيه ثانية أصوات عزاء، سيحمله زملاؤه متشنّجاً إلى سيّارة «الجيب».

لن يراه أحد بعد ذلك.

حين أذيعت أسماء الجنود المنتحرين، أكّد صاحب الدكّان أنّ اسم هذا العسكريّ كان من بين هؤلاء.

* * *

حكايات من باريس



روسّو، المشرّع الأكبر في العصر الحديث

أن تحلم بلقائها

من غير السهل على من يأتي إلى باريس، أن يلخّص إعجابه بها، أو يعبّر عن فتنته بما أنجزته أيدي مبدعيها، اللمسة التي أضافها كلّ منهم لتتحدّث بمكنونات روحه وروح عصره. ستبحث كثيراً، وقد لا تعثر على عاصمة يرقى سحرها إلى مصافّ باريس. متحف في الهواء الطلق مشغول بالدانتيل، ومعماره من صخر. متحف للحياة يتراءى لك من تفاصيله التاريخ. رقّته تضاهي جلاله. زخارفه تدخلك إلى عالم الأسرار والتأمّل، ويقودك المحسوس فيه إلى أعماق ذاتك. هكذا في سيرورة الفنّ تشكّلت باريس.

كلّ أثر تشاهده مرّة يغريك بالعودة إليه: كنيسة نوتر دام، حواري مونمارت، طرقات الحيّ اللاتينيّ، التماثيل، العملاقة منها حاميات الجسور، والصغيرة مزيّنات الحدائق والقصور، تماثيل لقادة، مفكّرين أو سياسيّين، وأخرى رموز لرجال أو نساء، واقفات هنا،

مستلقيات أو راقدات هناك. قلّما مرّ أحد بباريس ولم يقل: تلك أجمل المدن. مهما عدّدتَ الأسباب يعصى عليك الجوهر. لعلّه ليس في المفردات، بل في الكثافة، حيث الزمان وأهله ومكانه أبدعوا في نسيج المعمار.

أو لعلّ الجوهر ينبع من الحلم:

مكان غريب يوحي بأنّه وطنك، إذا ما كان لبني البشر أوطان سابقة عليهم. مدينتك بالاختيار، تسير في شوارعها مفتوناً، وملء نفسك الحبور. فكيف بك لو جئتها، كما كثيرون، وهي في أوج تألّقها وبهائها؟! في حقبة بلغ فيها الوعد الحضاريّ ذروته، وغدت هي مدينة الإنسان، ولك فيها مرقد فَسَحَت لك فيه أحلام الستّينيّات؟! وطن في الممكن لشعوب الأرض، بات مرجعاً، ملاذاً لمعارضي السلطات والهاربين من الاضطهاد أو الراغبين في الانطلاق. إن كنت تنشد الإبداع وكنت ممّن حبتهم الدنيا، فوجهتك باريس. على أرضها ستلقى شعوباً وبلداناً عرفتها بالسماع، جاؤوا من كلّ حدب وصوب ليروا باريس.

الظروف التي تفصّل غالباً على مشتهى أصحابها، لعلّها قادتني إلى باريس، في تلك الفترة من الزمن، التي كان الاغتراب فيها تواصلاً. زمن، في معرض تأكيد الأصول، ينسيك أنّ «كانط» ألمانيّ وفرويد نمساويّ وتشيخوف روسيّ. ينسيك أنّ بابلو نيرودا من حفداء الهنود الحمر، وأنّ «فرانتز فانون» من جزر المارتينيك،

لكنّه يتحدّث باسم «معذّبي الأرض» كافّة. كلّ مبدع، في باريس، عالميّ من نسيج حضارة الإنسان، وينطق باسمه.

مهما طالت إقامتك في باريس، يبقى إعجابك «بها» طازجاً. لا غرابة، فالمولودون على أرضها هم أيضاً معجبون. ولدوا في قلب أحيائها، ودهشتهم بها توازي دهشتك. كيف لا، وفي عبورهم شوارعها وأزقّتها يرافقون العمالقة. أنت في أروقة البانتيون، تتمشّى مع عظيم العظماء، «روسّو». ترافق مونتسكيو، راسين، فولتير، هوجو، ألكسندر دوما، مدام كوري ومبتكر أبجديّة المكفوفين لويس براي. هنا مرقد عظماء توجّتهم فرنسا ملوكاً على حضارتها، وأنت تمرّ بهم، طالباً، فينتقل الشموخ منهم إليك، وتطأطئ رأسك.

منذ مطلع شبابنا وحلم أيّ منّا السفر إلى باريس، لقاء سارتر أو سيمون دو بوفوار، أو تعرّف أماكن وشوارع دأبا على ارتيادها. والدنيا التي اختارتني لاستثناءاتها، لم تبخل عليّ. زيارتي الأولى إلى باريس كانت العام ١٩٧٠ بغرض السياحة: أن أتفرّج على المدينة التي عشتها في الفكر والخيال، أشاهد ما قرأنا عنه في الكتب، ورأيناه في الأفلام، أن أجلس في مقاهي السان جرمان، دو ماغو، فلور، التي شهدت إبداع الزوجين الشهيرين.. كان سارتر على موعد بينه وبين أختها، لتعيد له كتاباً استعارته. كانت هذه قد وجدته ثقيل الظلّ، فأرسلت سيمون بدلاً منها.

هكذا نشأت علاقة العمر!

في رحلتي الأولى إلى باريس، أوصتني صديقة لي أن أحضر لها أعداداً ناقصة لديها من مجلّة «الأزمنة الحديثة». وكنت في حقيقة الأمر توّاقة إلى رؤية المكان! من يدري؟ لعلّ الحظّ يحالفني...

استغربت مسؤولة المكتبة أن تحرص سيّدة عربيّة على اقتناء مجموعات تصدر في باريس، كاملة بلا نقصان. شكرتها ورحت إلى الصندوق. في اللحظة عينها، فتح باب، وسمعت حواراً بين سيّدتين إحداهما تقول: «إلى اللقاء يا سيمون. لا تقلقي».

خفق قلبي، ثمّ ضحكت في سرّي: آلاف النساء في فرنسا يحملن اسم سيمون، ولا يعني أنّ المقصودة هي «دو بوفوار».

تابعت السيّدة كلامها: «سأنقل إليهم وجهة نظرك».

التفتُّ. كانت هي دو بوفوار. هي التي نرى صورها على أغلفة كتبها. ووجدتني أتّجه نحوها بلا قرار، وأبادر إلى مصافحتها: أخبرتها أنّي، أنا وزملائي، قرأنا كتبها. وإذ سألتني عمّا أفضل من تلك، لم أكذب: الثلاثيّة بالتأكيد.

لا أدري إلى أيّ مدى يرضي جواب مثل هذا كاتبة اجتهدت كثيراً في الفنّ الروائيّ. لكن، بين «مذكّرات فتاة عاقلة» و«قوّة الأشياء» ستقرأ لا حياة امرأة، بل عصراً بكامله! سترافق مسيرة كاتبة بدأت تكتب في ثلاثينيّاته. عايشت تقلّباته ونهوضه وآلامه، وغدت من صانعيه. عصر، كان من شأن إيقاعه وتناقضاته أن يدهس امرأة

لا تتمتّع بالصلابة والعزيمة، حتّى لو تمتّعت بالرؤية، أمثال «زازا» صديقة «دو بوفوار» منذ الطفولة. أفردت لها حيّزاً في الكتاب الأوّل من ثلاثيّتها. سنرى أنّ إيشارب «زازا» كان القبّعة التي أغفلت وضعها، ومؤشّراً لمأساتها. في الثلاثينيّات، كان في فرنسا كشف الرأس للنساء من دلالات «اللوثة»، لوثة المعاصرة التي قيل: ضربت عقل اليافعة، وأودت بها إلى مصيرها البائس[1].

* * *

(١) سيمون دو بوفوار. «مذكّرات فتاة عاقلة» الفصل الأخير.

أمّ كلثوم تغنّي لمارغريت دوراس

ما يبدّد إحساسك بالغربة، أوّل قدومك إلى فرنسا، ديموقراطيّة التعليم. أبواب الجامعات كلّها تفتح لك، مجّاناً. رزنامة الدروس تعلّق في الممرّات، تحمل لك أسماء الأساتذة وعناوين الموضوعات التي سيتباحثون فيها خلال الموسم. تهديك إلى ما تبحث عنه أو ما لم تسمع به بعد. ما عليك سوى دخول الصفّ والجلوس في المكان المتاح. لا أحد يسألك عن اسمك ومبتغاك أو عن شرعيّة انتسابك. في تلك الحقبة، كان كلّ طالب علم في فرنسا شرعيّاً، وارتياد الصفوف حقّ مكتسب له.

رسميّاً كانت «السوربون» جامعتي. لكنّي دأبت على ارتياد جامعة «جوسيو»: مبنى حديث من الزجاج والحديد هي لا تتمتّع بأبّهة الجامعة الأمّ، ولا بالكوليج دو فرانس. ولكن بهيبة أخرى: شهرة أساتذتها في علوم «الدلالات» و«التحليل النفسيّ للأدب»،

التي اخترت التخصّص فيها. إن كنت تصبو إلى أحدث ما وصلت إليه «مطارحات» النقد الحديث، فعليك بجامعة جوسيو. وهذه غدت محطّتي. وقد يسّرت لي ديموقراطيّة التعليم أن أتتلمذ على كبارها: كريستيفا، سوريانو، ماريني، أوبرزفيلد وغيرهم.

قبل ذلك بسنوات، في مرحلة «الليسانس» في بيروت، كنت قد وقعت على مؤلَّف للناقد «عبّاس محمود العقّاد» تناول فيه قصائد الشاعر العبّاسيّ «أبي نواس» من زاوية التحليل النفسيّ، متحدّثاً عن ظاهرتين في شخصيّة ذاك الشاعر: «التوثين الذاتيّ» و«الاشتهاء الذاتيّ». أعجبت بالمؤلَّف، وقرأته مرّات. المؤلَّف قديم وسابق لانتشار مفاهيم المدرسة النقديّة الحديثة التي تأسّست في فرنسا في نهاية الأربعينيّات. على الأرجح أنّ العقّاد قد تأثّر بفرويد، فكان سبّاقاً على كثير من الأوروبيّين، ورائداً في هذا الميدان.

في حينه، لم يخطر لي أنّ تخصّصاً مستقلّاً كان قد نشأ، وصارت المؤلّفات والمحاضرات في شأنه على قدم وساق. في السوربون، «الكوليج دو فرانس»، و«المدرسة العليا للدراسات التطبيقيّة» وفي «جوسيو« التي، في هذا المضمار، جاوزت شهرتها سائر الجامعات.

لكن... ما إن تنعم بهبات الديموقراطيّة، حتّى يتراءى لك وجهها الآخر: «الأتوقراطيّ». هذا سينغّص عليك افتتانك الأوّل. إن كنت من ذوي الطموح في الاختيار، أو الجموح في المعرفة، فسيغدو سعيك لبلوغ الهدف من ضروب الأشغال الشاقّة. «أتوقراطيّة» التعليم في فرنسا تقبض على الروح، يعانيها الوافد والمواطن على

حدّ سواء. فنظام التعليم في فرنسا نخبويّ، وقد نشأنا على مثيل نخبويّته في لبنان، أورثنا إيّاه الفرنسيّون بعد أن جعلوه شبه حصريّ غير تاركين للنظم الأخرى (الأميركيّة أو البريطانيّة) سوى حيّز ضئيل وغير مرغوب فيه من جيلنا «الفرنكفونيّ» ولا سيّما بالنسبة إلى فروع العلوم الإنسانيّة والآداب. تلك تعني أنّ «الوجهة» فرنسا.

ما كان يعزّز «النخبويّة» الفرنسيّة نهج «التصفية» في الامتحانات. فهذا يكشف «ضعف» غير القادرين على التنافس. منذ السنة الجامعيّة الأولى كان علينا العودة إلى أمّهات المراجع، والاطّلاع على المفاهيم والنظريّات مباشرة من أصحابها وروّادها. ولم تكن نخبويّة النظام الفرنسيّ تقف عند حدود «الموسوعيّة». ما لم يتمكّن الطالب من مهارات التحليل والتوليف، الربط والاستنتاج، لا يحظى بالرتبة المميّزة. في اختيارك النظام الفرنسيّ في الآداب والعلوم الإنسانيّة، تختار الالتحاق «بالصفوة». واختيارك علوم الدلالات أو التحليل النفسيّ للأدب، في باريس، يدعوك للتتلمذ على صفوة الصفوة. تدخل الصفوف وملؤك الحبور، لتدرك بعد ذلك مشقّة الاختيار. بعد أن فزت بمكانك في الجنّة، سيلوح لك خطر «الحرمان»، أو التهديد بعدم الاعتراف بك «مجتهداً». النقد الحديث الذي بات مشتهى كلّ دارس أدب، هو في طور النشوء. لم توضع قواميسه بعد. والمتاحة منها لا تلحظ مفرداته ومصطلحاته. كثيرون تركوا الدراسة بإحساس صعب بالتقصير. ستلازمهم طويلاً آثار «العصيان» على المستحدث من «المفاهيم». أمّا من رضي

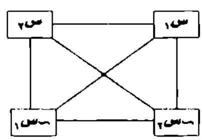
بالتحدّي، مثلما حدث لي، فعليه دخول المشرحة التي يقرّر فيها الشارحون هل أنت جدير بهذا التخصّص الرفيع!

أستاذك، في حمّى التنافس على امتلاك المكانة في سدّة «الدلالات»، إلى جانب المعلّم الأكبر «غريماس»، سيترفّع عن التبسيط! «آفة» ليست من «ثقافته»، فكيف والمضمون علوم «السيميائيّات»! و«مثاله» الأسمى «المربّع الدلاليّ» الذي أرسى ركائزه «غريماس»[1]. إخلاصاً للمفهوم، يتحذلق الأستاذ في الشرح. يفرك كفّيه مبتسماً، مشبعاً بالرضى عن نفسه، فيما هو يلقي محاضرة يضاهي فيها المبنى معناه، فنلتقط منها شذرات غير قابلة للتراكم،

---

(١) غريماس: غريماس، مفهوم المربّع السيميائي: «يسمح المربّع السيميائي، انطلاقًا من تضادّ معيّن لمفهومين س١ وس٢، بالحصول أولاً على مفهومين آخرين، هما ~س١ و~س٢، فتصبح العلاقات الكائنة بين المفاهيم الأربعة الحاصلة، كالآتي:

يسمح المربّع السيميائي أيضًا، في حركة ثانية، بالحصول على عدد معيّن من المفاهيم المتبدّلة، التي تتكوّن انطلاقًا من المفاهيم الأربعة الأولى.



المربّع السيميائي

- س١ وس٢: محور التضادّ
- الخطوط القطريّة (المائلة) س١ و~س١، س٢ و~س٢: محاور المتناقضات
- س١ و~س٢: تضمّن (المرجع الإيجابي)
- س٢ و~س١: تضمّن (المرجع السلبي)
- ~س٢ و~س١: محور المحايدة (لا هذا ولا ذاك)

ليرتقي بأذهاننا إلى قمّة التجريد. وللمزيد من الوضوح يقوم برسم مربّع على اللوح مع معدّلات دلاليّة.

أنزل إلى مكتبة «جوسيو»، أفتح مؤلّفات «كريستينا»، وهي شابّة تكبرنا بسنوات قليلة، تُوّجت «وليّة عهد» على عرش السيمائيّة. في معرض تفكيري في الانتقال رسميّاً من السوربون إلى جوسيو، انتحى بي الأستاذ الكبير «سوريانو» وأسرّ لي بالجملة التي توحي لي بالتراجع عن قرار «متهوّر» مثل هذا! بلهجة أبويّة همس: «أهلاً بك في جوسيو، ولكن عليك أن تعرفي شيئاً. لا يتخرّج فيها من لم يحظَ برضى «كريستينا».

سأمضي وقتاً لأفهم قصد هذا البروفسور الجليل الذي جاوزته كريستينا «أهمّيّة»، وهي من عمر تلامذته. لا لشيء، سوى أنّ للمصطلحات والإفراط في التجريد، غواية تهمّش من لم يقع في حبائلها! من لا يتبارى في الابتكار. والمنافس الحقّ من «يسجّل» باسمه مصطلحاً أو مفهوماً. بعضها يحيلك على جذور معروفة، والآخر على ما لم يعرف بعد. يبنون المستجدّ على الجديد، وصاحب المجد من يباري العمالقة: أوبرسفيلد، مورون، ورولان بارت. أمّا بالنسبة إلى العلاقة الهندسيّة في بنية النصوص، فلا أحد يباري «غريماس». وكذلك الأمر بالنسبة إلى المدرسة الجديدة في التحليل النفسيّ، فلا أحد يباري «لاكان». كبير الحظّ من سبق أن تتلمذ على هذا أو ذاك. من جيلنا أو دفعتنا لا أذكر أنّ أحداً قد حظي بذلك !

الغموض في خدمة الاحتكار! محكّ يتبارى على حدّه طلّاب المدرسة الفرنسيّة، والغالبيّة العظمى من جهابذتها. وتغدو المحاضرات مطارحات يتبادل فنونها المختصّون فيما بينهم، من فوق رؤوس الطلبة، فيما غوايتها تلهب الحماسة وتؤجّج، الإحساس بالتقصير. آفة تحمل الإرث الكنسيّ من القرون الوسطى، في وضع الحدّ بين «العامّة» وأرباب الكهنوت، حاملي «المفاتيح». في واقع الحال، كنت أوّل دارسة عربيّة تعدّ دكتوراه في «التحليل النفسيّ للأدب». وكان موضوعي أعمال المبدع «الطيّب صالح». مركزيّة التعليم في فرنسا تطلب إلى الدارس أن يعالج النصّ الأدبيّ، شعراً كان أم نثراً، لا بلغة النصّ الذي يدرس، بل بلغة «المركز»: الفرنسيّة.

الأدب الصينيّ، العربيّ أو الفارسيّ، أبو نواس، عمر الخيّام، ابن المقفّع، نجيب محفوظ أو الطيّب صالح. «الشحّاذ» في شوارع القاهرة القديمة، الزين في عرسه، ونداهة يوسف إدريس الآتية من عمق أعماق الريف، كلّهم «سيغرّدون» بالفرنسيّة، لا الكلاسيكيّة منها،أو الحديثة، بل بمصطلحات ما «بعد الحداثة»! جميعاً سيتقولبون في «مربّع سيميائيّ»، «مثلّث لاكاني» أو حتّى معادلات رياضيّة. أحد المشرفين اشترط لقبولي أن أكون ضليعة في الرياضيّات. فلا دراسات نقديّة إلّا والرياضيّات قرينتها، على حسب قوله!

يقال إنّ آفة الغموض و«الحذلقة» متأصّلة في فرنسا أكثر ممّا هي في غيرها.

صحيح! وإلّا لما بلغ فرويد النمساويّ يسراً في التعبير، أنف منه الوريث الفرنسيّ الذي آثر الغموض! كلّما أبحرت في المراجع الحديثة أدركت عظمة فرويد، وعظمة مجلّده النادر «تفسير الأحلام» الذي كتب بلغة شعريّة قلّما قاربها عالم! لا تُجاوز شعريّتها سوى الترجمة العربيّة التي قام بها العالم المصريّ مصطفى صفوان. في هذا المؤلّف، كما في غالبيّة كتابات فرويد، يكفيك أن تؤالف بعض المفاتيح والمصطلحات، لتتيسّر لك المعاني كما نهر متدفّق. قرأت فرويد، وكثيرون مثلي، بمبادرة ذاتيّة بلا أساتذة، لا شارحين ولا مشرّحين، وكنت طالبة في الكلّيّة أدرس التاريخ. وفهمت مقولاته بلا مساعدة سوى مساعدة فرويد نفسه. وقد قُبلت في مجال «التحليل النفسيّ «للأدب»، بناء على الخلفيّة الصلبة تلك. وحين تقدّمت بأطروحة الدكتوراه، استغرب أستاذ التحليل النفسيّ أن أكون مطّلعة على مفاهيم هذا العملاق، وعلى أبحاث، بعضها لم ينشر إلّا في مجلّات متخصّصة. وسألني عن «مرجعي» الرئيس و«مدرستي» فقلت إنّه فرويد. كتبه منشورة في سلسلات «الجيب» ولغته متاحة لكلّ باحث.

* * *

كان الانهيار السياسيّ والأمنيّ الذي عصف بلبنان، قد عصف بنفوسنا جميعاً. جيلنا، الذي اصطفته الدنيا ليعيش أبهى فترات

الازدهار الثقافيّ والعلميّ والسياسيّ، مني بالهزيمة. تزعزعت الأرض وسحب بساط الأمان والرفاه من تحت رجليه. وصار على كلّ منّا أن يواجه وحيداً، المخاوف والويلات والخيبات والأفق المسدود. الرحلة الرائعة التي بدأها هذا الجيل، صارت غربة تنتقل معه أينما ذهب. غربة تحوّلت فيها باريس إلى مدينة موحشة.

الحرب في لبنان على قدم وساق. وجاء مقتل زعيم المعارضة، كمال جنبلاط، إنذاراً بفترة ظلاميّة نعرف أنّها بدأت، ولا أحد يتكهّن متى ستنتهي. كان هذا السياسيّ الفذّ الذي تمكّن من جمع الأطراف والنقائض، متصوّفاً أصيلاً صلباً، ورجل سياسة لا يقلّ عن الآخر صلابة. كان يقتدي بغاندي. لو كان لبنان هو الهند، لتابع دور معلّمه الجليل في نشر السلام في العالم. ولكن، على رغم عبقريّته السياسيّة، لم يخطر له أنّه سيقتل لعدم الامتثال. السلطات ذات الشأن في المنطقة، قرّرت التخلّص منه. وبعد مقتله بدأت الحرب الأهليّة تطحن أبناءها بلا رحمة. معارك بين الدروز والمسيحيّين. بين مسلمين ومسيحيّين. بين مسيحيّين ومسيحيّين. بين مسلمين ومسلمين. معارك في كل مكان. المدافع تنصب في الأحياء وعلى الشرفات. مسلّحو الميليشيات يعبثون بالأمن.الاغتيالات على قدم وساق. وضربات إسرائيليّة على جنوب لبنان. الصواريخ تنهمر .يكتفي «الخبراء» بضغط الأزرار لتتساقط هذه على المدنيّين، وتصيب كثيرين، ومن بين هؤلاء أبناء الجيران في صور. طفلان ومراهق قضوا في

الحديقة الملاصقة لحديقة بيتنا، والتي، حماية منّا للآخر، كنّا نترك بابها الفاصل مفتوحاً. يحاول الناس الفرار إلى مناطق أكثر أماناً، لكنّ تكنولوجيا الحروب تتعقّب خطاهم. الطيران يقطع الطرقات، ويلاحق السيّارات، ويصطاد من يتمكّن من اصطياده.

بعد سماع الأخبار وقراءة الصحف، أسرع في النزول من البيت. آخذ المترو أو الحافلة. هدير محرّكات، صرير عجلات وحديد وفرامل... تتوقّف الحافلات في المحطّة، ويتدافع الناس للحصول على مقعد. أنزل في محطة جوسيو. أركض إلى المبنى وأتّجه إلى الطبقة الثانية وأدخل من ثمّ إلى الصفّ. أودع الهواجس والمخاوف والصخب في صندوق، وألج عالم الأدب الحديث:

هس، هدوء.

هدوء تام.

أكاد أقول عبث!

هس. «كريستينا» بصوتها الهامس تتحدّث عن علاقة المشبّه والمشبّه به وعناصر الاستعارة والكناية، كصورة موازية لعلاقة «الأوديب».

ماذا تقصد؟!

لا بأس! سأعيد الاستماع إلى مقولاتها عبر «الكاسيت» المخصّصة لتسجيل محاضراتها. هناك كاسيت أخرى لمحاضرات

«مرسيل ماريني»، الطريقة التي اعتمدتها التلميذة المجتهدة في التحصيل. والآن عليّ الإسراع لآخذ مكاناً لي في صفّ ماريني. كانت هذه قد بدأت المحاضرة. إنّها الآن في طور «التفكيك». تفكّك الكلام لربط عناصره بجذورها الخفيّة القابلة للتحليل: «نيكول»، اسم امرأة، مبنيّ من جزأين: «ني» للنفي. وكول «للصق». هكذا الأسماء الفرنسيّة تحمل ثقل التاريخ، حيث النساء في الذاكرة الجماعيّة ملحقات، منكرات ومنفيّات.

بين محاضرة وأخرى، خرجت إلى البهو وفتحت صحيفة النهار: مدينة صور مستهدفة بالقصف من إسرائيل. وأهلي حتماً محاصرون. خطوط الهاتف مقطوعة. دبّابة إسرائيليّة تدهس سيّارة بركّابها في جبل الشيخ.

عليّ أن أغلق الصحيفة وأرجع إلى الصفّ. اختلست النظرة الأخيرة، فطالعتني صورة صديقنا «طلال رحمة»، في صفحة الوفيات! استندت إلى الحائط.

كيف حدث ذلك؟!

أيكون قد قتل؟

في مسكني الذي أعرته إيّاه؟!

أم أثناء أدائه الصحافيّ، وكان يهوى التصوير؟!

أحاول صعود درجات السلّم متّكئة، وعلى حافة الانهيار، وصورة

طلال في «النهار» وكلمات قالها عن ضرورة الكفاح المسلّح تلاحقني. دخلت الصفّ وجلست في مقعد خالٍ في الصفّ الأوّل، قبالة ماريني. بدأت هذه تتلو بصوت خافت ونبرة محايدة، فقرات من رواية «لول في شتاين» لعملاقة أدب ما بعد الحرب العالميّة الثانية، «مارغريت دوراس». «دوراس» ترسم عالم بطلتها: موحش مغلق، وعزلة «لول» تبلغ قصوى حالاتها. العزلة نفسها تتكرّر في جميع أعمال «دوراس»، صورة لغربة ابنة المستعمرات الفرنسيّة في الهند الصينيّة، من عائلة تحتقر الشعب الذي استعمرت، احتقاراً لن يستثني الرجل الصينيّ الذي يعبد مارغريت أو بديلتها. وعلى رغم ذلك تقبل وعائلتها دعوته للعشاء. يتناولون الطعام اللذيذ الطعم، الباهظ الثمن، فيما هم يراقبون صامتين «الإنديجين» الثريّ الذي سيدفع الفاتورة(١).

القذائف تتساقط على بيوت المدنيّين في صور. وصورة طلال رحمة تظهره في كامل شبابه وحماسته، كأنّها تؤكّد استحالة أن يكون قد مات ميتة طبيعيّة! وها هي «لول»، في قراءة ماريني، تلازم مكانها على التلّة. تراقب رجلاً تعشقه يطارح امرأة غيرها الغرام. وتبلغ العزلة إذّاك أقصى مدى، ويغدو الانغلاق كلّيّاً، ونحن جزء منه. ووجدت نفسي أهمس:

(١) مارغريت دوراس «العشيق» باريس: رواية ألقت الضوء على حالة «العزلة» التي تعيشها شخصيّات دوراس في رواياتها السابقة.

«هذا عبث» !

التباين بين ما يجري في «مغلقات» الصفّ وما يدور في العالم، يفاقم من العزلة وعبثيّة المناخ.

فكّرت في الخروج لقراءة الصحيفة ثانية، لعلّ أحداً ما كتب عن طلال، فهو صحافيّ مرموق على رغم حداثة سنّه، ولا يمكن لموته أو مقتله أن يمرّ مرور الكرام. هممت بالنهوض، فألقت عليّ الأستاذة نظرة لوم! كنت سأقاطع تلاوتها، و«لول» من منفاها فوق الهضبة، تعيش أقصى حالات العزلة، والغيرة تنهش أعماقها. نظرة ماريني أعادتني إلى رشدي وإلى الجلوس. أخرجت المسجّل الصغير والشريط المخصّص لمحاضرتها، وضغطت الزرّ لأسجّل.

ضغطت!

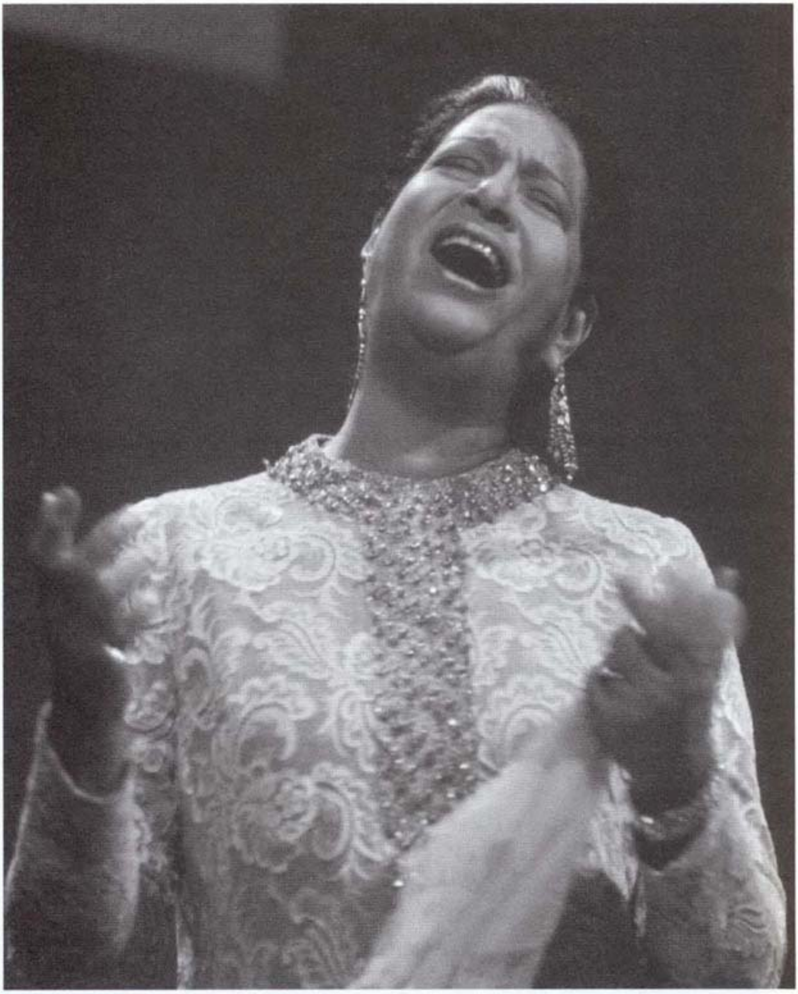
ولكن ليحدث ما لم أكن أتوقّع: صوت أم كلثوم يصدح «بالأطلال»! بالشوق والحبّ المستحيل. «يا فؤادي لا تسل أين الهوى...كان صرحاً من خيال فهوى...».

أسارع إلى خفض الصوت، ولكنّه يزداد تحليقاً! ملعلعاً فاقداً جماليّته الأصليّة.

أنظار الطلّاب والطالبات تتّجه إليّ!

وقع لمفاجأة غير مستحبّة على وجه ماريني!

وسمعتها تتمتم. «أبسورد». عبث.



أم كلثوم تصدح بالغناء

«أبسورد».

تردّد وهي تلقي عليّ نظرة احتجاج!

وضربت فكرة برأسي في تلك اللحظة القاسية:

أن أهبّ من مكاني وأصرخ وسط الصفّ:

وجدته!! يا أستاذة ماريني،

المغزى وجدته!

أهتف فيما المسجّل يصدح «بالأطلال»، بعبثيّة العالم ومقتل طلال!

* * *

على صخرة أينشتاين

لو فكّرنا في كلمة تلخّص ما أنجزته الحضارات، فلعلّنا نختار «المعرفة». هذه التي كانت بدء الخليقة، أنزلت حوّاء وآدم من النعيم السماويّ إلى الأرض. وكانت أمثولتها، رمزيّاً، «الوعي» بالعري.

لكنّ درب المعرفة، غير مطّرد على الدوام. لطالما عرف محطّات استراح فيها «المحاربون» من عناء البحث، بل عرف حقبات ظلاميّة أثّرت طويلاً في تقدّم البشر. على أنّ الإنسان لا يعطّل تفكيره عمداً، بل يأخذه «السهو»، فيتّكئ على «أرضيّة» ما، إيديولوجيّة، أو قناعة، ويستريح. أرضيّات كثيرة استرحنا إليها ردحاً طويلاً أو قصيراً من الزمن. ومن بين تلك إيديولوجيّات ورثناها، أو تبنّينا طوعاً مقولاتها، وأغوتنا «لغتها» ومصطلحاتها غواية أراحتنا من مشقّة التساؤل.

يدرك بعض المفكّرين خطورة «التقديس» ومغبّة الاستراحات. ماركس حذّر من ذلك بالقول إنّه ليس «ماركسيّاً»؛ وفرويد، قبيل وفاته، صرّح بأنّه يحتاج إلى حياة أخرى من أجل تطوير نظريّته. لكنّنا قبلنا «الماركسيّة» قبولاً غير مشروط، وقبل أن تدخل بلادنا مرحلة التصنيع. في مدينة صور مثلاً، لقي الفكر الشيوعيّ، في بدء نشأته، بعض الرواج. على أنّ الواقع كان يحتاج إلى رؤية ذات خصوصيّة؛ فالعمّال كما الفلّاحون (بالأجر) كانوا يعدّون على الأصابع، لخلو المنطقة من المصانع، وغياب شبه كامل للإقطاع والملكيّات الكبيرة. أرباب العمل هم غالباً أصحابه، يعاونهم قلّة من الشغّيلة لن يلبثوا أن يصبحوا هم بدورهم «معلّمين» أو أصحاب متاجر. البحّارة، على سبيل المثال، لم يكن لهم «أرباب» سوى الخالق عزّ وجلّ، ومن بعده البحر والأسماك. إحتياجات المجتمع لم تكن ثورة على «أرباب الاقتصاد»، بل تنمية هذا الاقتصاد حتّى يصبح له أرباب وعمّال يطالِبون ويطالَبون. إنشغلنا نحن اليساريّين بقراءات وتفاصيل دقيقة تتعلّق بالثورة البلشفيّة وخلافات أطرافها... أمضينا سهرات طويلة نتناقش ونتساءل: أيّ من الأطراف من هؤلاء كان على حقّ؟ ونتباحث «بالقيمة الفضلى» وحيثيّاتها... حتّى أغفلنا البحث تماماً عن كيفيّة تطوير مجتمعاتنا وتقديم رؤية خاصّة ولو بسيطة، لفهم مشكلاتها وإيجاد الحلول لها. ولعلّ مفاهيم «الأمم المتّحدة» التنمويّة جاءت أقرب إلى إصلاح الحال من ثورة ماركسيّة تفتقد أطرافها الأساسيّين.

على أنّ للنظريّات بريقاً ساطعاً يجعلها «مرجعيّة». ونحن الذين كنّا ننتقد المرجعيّات، استرحنا طويلاً تحت مظلّتها.

* * *

صخرات كثيرة «يتحطّم» عليها التفكير. و بما أنّ الشيء بالشيء يُذكر، تعاودني هنا حكايتي مع «صخرة أينشتاين».

لقد بدأت هذه بعيداً عن تقديس الثوابت، حين «تجرّأ» أحد الفيزيائيّين، وأعاد التفكير في نظريّة «أينشتاين» المتعلّقة بالنسبيّة[1]. ونشر مؤلّفين يتعلّق أحدهما «بأسرار الذرّة» والقنبلة التي نتجت منها والتي لا يشكّك في صحّتها... وخصّص الثاني «للنسبيّة» المشكوك في أمرها.

من ناحيتي، كباحثة في حقل العلوم الإنسانيّة، أثار اهتمامي أن توضع «ثابتة» من الثوابت ضجّت بها القارّات، موضع الاستفهام،

(١) A. Souhail Nehme; «Relativistic Mythology»; Booksurge (filiale of AMAZON), 7290 B Investment Drive, Charleston South Carolina www.booksurge.com 2009.

«سهيل نعمة»، «نظريّة النسبيّة بين الحقائق والأوهام»، الدار العربيّة للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧ (انظر موقع النيل والفرات)

- Souhail Nehme; «La Mythologie Relativiste»; Al-Dar Al-Arabia Lil Ouloum, Beirut, 2008

«سهيل نعمة»، «أسرار الذرة»، الدار العربيّة للعلوم، بيروت ٢٠٠٧ (انظر موقع النيل والفرات).

من متخصّص رصين التفكير عرف بين أقرانه وأساتذته في الجامعات التي درس فيها ودرّس، بذكاء خاصّ وجرأة في التفكير. وأخذتني الحماسة لتوزيع المؤلّفين على المهتمّين، ولا سيّما أصحاب الاختصاص منهم، حماسة أسعدت الناشر نفسه على رغم شبكاته الواسعة يدويّاً و إلكترونيّاً في هذا المضمار.

حاول المؤلّف ترشيد اندفاعي، مؤكّداً الصعوبات التي ستواجهني من أصحاب الاختصاص أنفسهم: فمَن أمضى حياته يلهج «بالنسبيّة» وبنى عليها اسما ومجداً، لن يكون من السهل عليه أن يتخلّى.

- «والأمانة العلميّة»؟!

سيتركها «أمانة» لمن سيأتي. حاليّاً، لا يأمل أن تتغلّب هذه على الانحياز. وهو إنّما كتب ونشر، حفاظاً على الرؤية التي يحاول منذ سنوات إثباتها. سيكون من دواعي سروره أن يقرأها الناس ويقتنعوا بها حتّى بعد وفاته.

لجهة عدم التفاؤل، كان المؤلّف على حقّ.

فالصعوبات التي واجهتني في «التوزيع»، وعلى رغم تحذيرات المؤلّف، أصابتني بالصدمة إيّاها التي لا تفتأ تضرب سذاجتي! إذ بدا لي التعصّب «للنسبيّة» أشبه بتعصّب المتديّنين لدياناتهم! حيث الرفض المسبق لأيّ تساؤل حول الموضوع، يسبق التفكير، بل، وببساطة، يعطّله.

«الصدمة»، دفعتني لاستشارة صديق لطالما عُرف بالجرأة الفكريّة وإعادة النظر بالثوابت من المقولات. هاتفته وشرحت له القصد، فلم يدعني أكمل... وبلهجة مؤنّبة سأل: «كيف يتجرّأ هذا الفيزيائيّ على معارضة أينشتاين»؟!

إعتذرت إليه عن «وقاحة» المؤلّف. لكنّ حماستي لم تخبُ، وتابعت اتّصالاتي.

بروفّسور مرموق قال: «هذه، يا سيّدتي، من الثوابت كما كرويّة الأرض. مثلاً... كما لو كان المؤلّف يزعم أنّ الأرض مسطّحة»!

قال هذا وجلجلت ضحكته عبر خطّ الهاتف!

أستاذ آخر هزّ رأسه استخفافاً، وراح يسألني عن نفسي:

«يا مدام... يا «حجّة»... أنت... لا مؤاخذة... ماذا تفعلين؟ أقصد... هل لديك... عمل ما؟ تعليم؟..تخصّص؟.. أقصد هل أنت يا حجّة...!»

قوبل المؤلّف بالرفض المسبق قبل قراءته، كما لو كان يدعو بالفعل للاعتقاد «بسطحيّة» الأرض. والشكّ الذي يستحيل أن يطاول أينشتاين، صار يدور حول شخصيّة المؤلّف، والمهتمّة بالتوزيع، بل بلغ الشخصيّة العربيّة نفسها:

- «يا سيّدتي، مشكلتنا نحن العرب، وخصوصاً اللبنانيّين، أنّنا نشطح... الكلّ يريد أن يكون عبقريّاً، ويحلو له مناطحة العظماء».

أخيراً قابلت من أدخل التفاؤل إلى نفسي. فيزيائيّ شابّ استمع وأصغى. إستقبل الموضوع بلا تشنّج ولا أحكام مسبقة. أخذ المؤلّف، قرأه، على حدّ ما أخبرني، ووزّعه، كما اتّفقنا، على زملائه؛ ودوّن ملاحظات عديدة في شأنه، ووعدني بإرسالها إليّ، بل وعدني بأكثر من ذلك: أن نقيم ندوة خاصّة بالموضوع يتولّى هو إدارتها لجهة المضمون، أو حتّى ندوتين، قال: إحداهما في بيروت والأخرى في القاهرة!

عظيم! أخيراً!

ولكنّ الشابّ، بعد ذلك، توارى عن الشاشة.

صار يرفض أن يردّ على مكالماتي، وعلى رسائلي الإلكترونيّة، وعلى رسائل أودعتها له مع مقرّبين. أيكون تواريه دلالة خجل من اكتشافه حقائق كان قد استغرق في التبحّر في نقيضها، حين أعدّ شهادة الدكتوراه في «النسبيّة»؟ أم يكون قد بدأ رحلة جديدة، انطلاقاً من اكتشافه الجديد، وقد فضّل لانطلاقته أن تبدأ من «الصفر»؟

البطريرك يقول كلمته

لا يمكنني استذكار إقامتي في باريس، من دون التوقّف أمام «الكوليج دي فرانس» وسيمينير جاك بيرك، سيمينير كان يضمّ، إلى جانب العرب، تنوّعاً فريداً من الطلبة. على مقاعد صفّه، ستجد الأرمنيّ يجالس التركيّ، وهذا يحاور الكرديّ، والإيرانيّ يبادل العراقيّ الودّ، والمغربيّ الفرنسيّ، واللبنانيّون بعضهم بعضاً.

كان سيمينير جاك بيرك شديد الثراء، وكان هو، كمستشرق موسوعيّ المعرفة، نجح في استقطاب غالبيّة الباحثين من البلاد التي تخصّص في مجتمعاتها، وكتب عنها. وفي طليعة هذه البلاد، المغرب ومصر. كنت أعدّ «أطروحة» تتعلّق بظاهرة «الهجرة من الريف إلى المدينة» في أدب « يوسف إدريس - النداهة نموذجاً». الموضوع أعجب «بيرك»، وقبل ترشّحي للتلمذة عليه. غالبيّة طلبته لم يكونوا تلامذة عاديّين. كانت مدرّجات صفّه تغصّ بمفكّرين

وكتّاب وصحافيّين وسياسيّين. كثير منهم كانوا هاربين من سجون بلادهم وأنظمتها القمعيّة: سجون شاه إيران أو السادات أو آل البكر، قبيلة صدّام حسين، قبل أن يتربّع هذا على سدّة دجلة، وتطير شهرته في آفاق الكرة الأرضيّة. كثيرون من زملاء الدراسة في «الكوليج دي فرانس» سيؤولون إلى مصائر، بعضها يثير البهجة، والبعض الآخر الأسى. مصائر يمكنك أن تتحدّث بها كثيراً أو قليلاً، ولكنّك لن تنعتها أبداً بالعاديّة.

كان لجاك بيرك جاذبيّة خاصّة لدى المثقّفين العرب، ترجع إلى موقفه المؤيّد مع العرب والقضيّة الفلسطينيّة، ولا سيّما بعد حرب ١٩٦٧. كان إلى جانب مكسيم رودنسون قد شكّلا تيّاراً انشقّ عن مجموعة تضمّ سارتر الذي كان وفيّاً لإسرائيل[١].

كان «بيرك» شديد الذكاء. لا يعيق ذكاءه سوى الاعتداد بنفسه

(١) جاك بيرك: التحق بالجيش الفرنسي، وانتُدبَ ليعمل في المغرب بصفته موظفاً مدنيّاً من العام ١٩٣٤ حتى العام ١٩٤٤. حيث شارك هناك كمهندس زراعي في الجهود المبذولة لتحسين نوعية الزراعة المغربيّة وحياة الفلاّحين. لاحقاً، أصبح قيّماً على قبيلة سيكساوا، في إمنتانوت بجبال الأطلس الكبير. عايش أفراد القبيلة خمس سنوات أسفرت عن ولادة كتابه «التراكيب الاجتماعية في الأطلس الكبير» (١٩٥٥) الذي أرسى سمعته كعلاّمة.

- عَرَفَ وَسَط المفكّرين الذين نشرت دار ماسبيرو أعمالهم، انشقاقاً على أثر نكسة حزيران (حرب الأيام الستة، ١٩٦٧)، فتحلّقوا في تيّارين، الأوّل حول جان بول سارتر، الذي يناصر إسرائيل، والثاني حول مكسيم رودنسون وجاك بيرك، الذي يناصر الفلسطينيين.

اعتداداً لا يعمل على إخفائه. في دخوله الصفّ، نقف له تحيّة إجلالاً. ويتمهّل هو في ردّ التحيّة. يستعرضنا واحداً واحداً؛ وكبير الحظّ، من يسأل عنه البروفسور إذا ما تغيّب. ثمّ، بإشارة من كفّه، كان يأذن لنا بالجلوس. وحين ينتهي الدرس يصفّق له الحضور. كان التعالي بالنسبة إلى جيلنا قد غدا «موضة» بائدة. كنت أتحسّر على أيّام الجامعة التي لم نقف فيها مرّة لأيّ من أساتذتنا، وكانوا في غالبيّتهم من العمالقة. في رؤية استرجاعيّة، أدرك أنّه قلّما تيسّر لجيل من الطلّاب، أن يدرس على أيدي كبار ضليعين في ميادين علومهم كما تيسّر لنا. إن كانت تجربة بيرك على درجة عالية من التنوّع، ومعلوماته موسوعيّة، إلّا أنّه لم يكن أعمق في التفكير أو أبلغ في التعبير، من أساتذتنا في الجامعة اللبنانيّة. لكن... أن تلقي محاضرتك تحت قبّة الكوليج دو فرانس المهيبة، غير أن تلقيها في جامعة تأسّست حديثاً، غالبيّة كلّيّاتها، ما عدا مقرّ اليونسكو، أقيمت في مبانٍ عاديّة موقّتة تفتقر إلى الأبّهة. كان على أساتذتنا، والجامعة اللبنانيّة تغلي بالإيديولوجيّات، والأفكار، أن يبذلوا قصارى الجهد في تقديم مقولاتهم لطلبة مسيّسين متمرّدين ومتمرّسين في الجدل! على رغم مراسنا، كان هؤلاء الأساتذة يفحموننا، لفرط ما كان كلامهم ذكيّاً واطّلاعهم موسوعيّاً. كان في طليعة هؤلاء، الدكتور الشيخ صبحي الصالح، المؤرّخ أسد رستم والفيلسوف كمال الحاجّ وعالم الآثار «المير» موريس شهاب والشاعر سعيد عقل والمؤرّخ محمّد

علي مكّي وعملاق النقد الأدبيّ الفذّ جورج كرم، وغيرهم كثيرون، فرنسيّون ولبنانيّون جاؤوا من الجامعات الفرنسيّة والأميركيّة للإسهام في إنهاض الجامعة الوطنيّة الناشئة. في تلك الآونة كان المير موريس شهاب يرأس الفريق المسؤول عن ترميم الملعب الرومانيّ في مدينة صور، وإخراجه إلى حيّز الحاضر، الملعب الذي غدا بفضله مقصداً لسيّاح آتين من أقطار العالم، ومعلماً تقام في رحابه مهرجانات فنّيّة وثقافيّة. لطالما شجّعني على زيارة موقع العمل. حين يلاحظ قلّة حماستي، يذكر لي المثل الشائع: «الكنيسة القريبة لا تشفي؟ نسافر إلى أصقاع الدنيا لمشاهدة آثار نملك ما يوازيها روعة، ولا نكلّف أنفسنا مشقّة زيارتها».

* * *

في تقاليد «الكوليج دو فرانس»، يجري افتتاح العام الدراسيّ كما خاتمة الفصول، في المدرج الكبير (الأمفي تياتر) المخصّص للمناسبات ذات الأهمّيّة: محاضرات ذات شأن أو مناظرة بين كبيرين من الأساتذة، تليها نقاشات يسهم فيها الحاضرون. في واقع الأمر كنّا نتحمّس لمثل تلك المناظرات، ونحاول ألّا نفوّت على أنفسنا منها شيئاً. ولطالما كنّا نسترجع المطارحات التي تبادلها الكبار فيها. كلّ ما حضرنا من مناظرات كان مثمراً وجديداً. على أنّ واحدة من تلك سيكون من الصعب نسيانها:

في خاتمة ذلك العام الدراسيّ، ١٩٧٨، أبكرنا في الذهاب إلى الكوليج دو فرانس، وعلى عادتنا في كثير من الأحيان، جلسنا في مقهى «السوربون» الذي لم يكن يبعد عن الكوليج سوى دقائق سيراً على الأقدام. لقاءات ما قبل المحاضرات كانت مساحة مثاقفة وتبادل بين الوافدين من مختلف البلدان. يتحدّثون عن مسار دراساتهم وصعوبات تواجه إعداد أطروحاتهم، ويعرّجون على مشكلات بلدانهم. إلى جوار طاولتنا، يجلس الطلّاب الإيرانيّون. من بين هؤلاء شخص لطالما سمعنا عنه هو «أبو الحسن بني صدر». إيرانيّ، منفيّ من نظام الشاه، كان قد تتلمذ على جاك بيرك وأنهى دراسته منذ سنوات، من دون أن ينقطع عن حضور أنشطة «الكوليج». يومذاك سمعنا زميلاً له يدعوه لحضور السيمينير الذي يختم فيه بيرك العام الدراسيّ، وبني صدر يعتذر، والآخر يلحّ عليه، وبني صدر يقول: كلّما ناقشت جاك بيرك احتدم النقاش وتحوّل إلى مجادلة عقيمة.

أخيراً تمكّن الزميل من إقناع زميله، وسرنا جميعاً باتّجاه الكوليج دو فرانس.

جلس جاك بيرك على المنبر العالي يقرأ فصلاً من مجلّة تصدرها جامعة الأزهر في القاهرة، يتحدّث بتاريخ مصر الحديث. انتهت المحاضرة وبدأ النقاش، وطلب بني صدر الكلام. جاك بيرك أعطاه الفرصة.

قال بني صدر ما أثار استغراب الحاضرين واستياء المعلّم: «النظام السياسيّ في إيران على حافة الانهيار. وسيتغيّر على يد التيّار الإسلاميّ... و..».

قاطعه البطريرك المتخصّص بأحوال بلاد الشرق من المغرب حتّى إيران... وسرعان ما استبدل باستيائه سخريّةً وسؤالاً من شأن نبرته أن يهزم الآخر:

- تزعم إذاً أنّ إيران غير سائر البلدان المسلمة»؟!

بثقة غير قابلة للهزيمة، وهدوء، أجاب بني صدر:

- «نعم. أنا لا أزعم هذا، ولكنّ الواقع يشير إلى أنّ إيران، في الحقبة الراهنة على الأقلّ، هي غير البلدان الأخرى و...».

قبل أن يكمل جملته، أشار إليه بيرك «من علٍ» وبحركة من كفّه بأن يسكت. وبالأشارة نفسها طلب إليه الجلوس. ثمّ التفت إلى الناحية الأخرى من «الأمفي تياتر» وأعطى الكلام لشخص آخر، فيما كان يتمتم بعبارة لم نسمعها، وإن كنّا قد ميّزنا على وجه التأكيد مغزاها.

ذاك اليوم، لم يخطر لأيّ من الحاضرين أنّه بعد مرور أقلّ من سنة سيصبح المتّهم «بجهل أحوال بلاده»، أوّل رئيس، لأوّل جمهوريّة إسلاميّة في العصر الحديث.

* * *

بعد واقعة أمّ كلثوم... كان عليّ أن أبدأ من الصفر. في تلك الفترة خلوت إلى نفسي أبحث عن بارقة أمل.

ولا أدري كيف قادني الحدس إلى مسألة ابتكار «الأبجديّة»:

إن كانت عظمتها قد ترجمت باستبدال الرمز المجرّد بالشكل الحسّيّ، فلا بدّ أن يكون الدرب العكسيّ هو المفتاح لفهم مغالق النظريّات الأدبيّة التي أرادها الكبار شديدة «التجريد».

موقّتاً، سأستبعد ما يعرقل «قراءتي» الخاصّة التحليليّة «لموسم الهجرة إلى الشمال»، وأعمال الطيّب صالح، موضوع دراستي. سأعيد قراءتها خارج المربّعات والمثلّثات و«المسدّسات»، وخارج المقولات السابقة التي حاصرت الكاتب في دائرة الصراع بين «الشرق والغرب». ما إن تذكر الشرق والغرب، سيقال لك «الطيّب صالح» وإن ذكرت هذا فسيقال «الشرق شرق و الغرب غرب»! فلأطلق العنان لإمكانيّة تعرّف مغزى آخر لهذا العمل الثريّ، لبناء رؤية تنبع من كامله لا من أجزائه، أو من تصوّر أسقطه بعض النقّاد عليه، وحذا حذوهم آخرون، لا لشيء، بل ليسقط عليه رؤية تبتسره بدل أن تغتني به!

لم يكن الأمر بذاك اليسر. على أنّ بساطة المدخل سلّطت على تفكيري نوراً قادني إلى إنجاز أطروحة نالت صدى طيّباً في أوساط

النقد الحديث، وحين نشر الجزء الأكبر منها، اعتمدت مرجعاً في أكثر من جامعة خاصّة في البلاد التي ينتشر فيها التعليم الفرنكوفونيّ[1].

(١) - رجاء نعمة «صراع المقهور مع السلطة» دراسة في التحليل النفسيّ الدلاليّ لأدب الطيّب صالح، انطلاقاً من رواية «موسم الهجرة إلى الشمال». تختلف الرؤية في هذه الدراسة عن غيرها، لكونها نقلت مركزيّة الصراع من الدائرة التقليديّة شرق/غرب، إلى أزمة أشمل تعيشها، كلّ بطريقتها، غالبيّة شخصيّات الرواية، مع مختلف أشكال السلطة. لإعادتها الاعتبار لشخصيّة رئيسة لطالما أهملها النقّاد الذين سبق أن تناولوا «موسم الهجرة» وهي شخصيّة الراوي نفسه.
تكنو - برس، بيروت ١٩٨٦
(توزيع المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت).
- أنظر عرضاً لدراسة «صراع المقهور مع السلطة» في مؤلّف «جورج طرابيشي» حول التحليل النفسيّ والمثقّفين العرب.

موعد للعشاء

أحياناً، لا تخلو المعاناة من ملمح فكاهيّ. فبعض فصولها التي سبّبت لي همّاً آنذاك تضحكني كثيراً اليوم. كان ممّا زاد في صعوبات إعدادي شهادة الدكتوراه، استقالة أستاذنا بن شيخ من السوربون. من أصعب الأمور في النظام الفرنسيّ - ولعلّ ذلك ينطبق على كلّ النظم - أن تفقد المشرف على أطروحتك. هكذا بدأت معاناة أكثر من عشرين طالباً كانوا يعدّون أطروحاتهم مع بن شيخ.

كنت ماضية في بحثي عن أستاذ مشرف بديل ضليع في الميادين الثلاثة التي ورّطت نفسي فيها: علم الدلالات وعلوم السرد، التحليل النفسيّ النظريّ، ومتضلّع بطبيعة الحال، من اللغة العربيّة، بطبيعة الحال من اللغة العربيّة، كي لا أزعم مثلاً أنّ اسمي (رجاء) عنوان لليأس، وأنّ اسم عائلتي (نعمة) مرادف لإنكار ما وهبه الله.

لكن، ماذا لو تعذّر العثور على مشرف واحد ثلاثيّ الكفاءة؟

إذّاك يكون الحلّ في إشراف أستاذين اثنين. كان ذلك مدخلاً للموعد الذي «فزت» به من إحدى الأستاذات الذائعات الصيت. كلّ طالب كان يمنّي النفس بأن ترضى بالإشراف على أطروحته. الموعد يقترب. عليّ الإبكار في الرحلة، فالأستاذة تسكن خارج باريس، وفي منطقة لا يصلها المترو. على قاصدها ركوب الحافلة. ها هو يدور ويتوقّف، ويتيسّر لي مقعد خالٍ لأبدأ أدور معه، في ضاحية راقية هادئة تبشّرك بأنّها، قبيل الغروب، ستخلو من المارّة. الشمس تنحدر، وبانحدارها تزداد الأبنية المتشابهة تشابهاً، قد يمنعني من تمييز أرقامها. بدأت أركّز في تلك، والحافلة تعبرها، حتّى دنونا من الرقم المطلوب. وأسقط بيدي! الرقم وحده لا يكفي والعمارات مقسّمة إلى وحدات يميّز بعضها من الآخر بحرف أبجدي «أ: «ب» «ت» «ث».. ألقيت نظرة على الورقة التي دوّنت فيها العنوان، فوجدتها خالية من حرف أبجدي.

في أيّ من هذه العمارات تسكن الأستاذة؟

لا أدري.

يا إلهي، في غمرة حماستي للموعد نسيت جزءاً من العنوان. لا بدّ من مكالمة الأستاذة لمعرفة رقم «البلوك». لا مقاهي «تاباك» في تلك الضاحية! بعض المطاعم خافتة الأضواء، من خلف زجاجها

المغشّى تتراءى أطياف الجالسين والجالسات المفرطين في الأناقة. لو سألت إجراء مكالمة في هذا المكان المميّز، لطردوني بالتأكيد.

ما العمل؟!

لا حلّ سوى الحلّ: أن أدور على البلوكات جميعها للبحث عن اسم الأستاذة!

بلوك (أ)

أخمّن أنّها تسكن في الطبقة الثالثة منه. طلبت المصعد، فوصل وفتحت فلقتان من فولاذ، من ذاك النمط «الفضائيّ». تقول: تابوت من معدن سيحكم إغلاقه عليك.

ماذا لو توقّف وأنت في داخله؟ قلبك إذّاك سيتوقّف! قبل أن يأتي أحد لإنقاذك. هل أنت وراء الباطون أم خلف الباب؟ صعوداً على قدميّ، بدأت أدور على شقق الطبقة الثالثة. الاسم الذي أبحث عنه غير موجود.

لعلّه في الثانية.

نزلت على السلّم.

غير موجود.أيكون في الرابعة؟

من غير المعقول أن تختلط عليّ الرابعة والثالثة، فاللفظ - بحسب علم النفس - يسهّل الاستذكار. غادرت المبنى. لعلّها تسكن في البلوك (ب). على الأرجح أنّها كذلك. سرت في الشارع.

ولعلّهم، لو فعلت، سيأتون لك برجال البوليس! تماماً على خلاف ما كان يجري عندنا. ما إن يقابل أحد أحداً مع صغيره، يأخذه في الحضن ويقبّل وجنتيه ويدغدغ خاصرتيه حتّى يزهق روحه. لكن من المؤكّد أنّه سيطرد أيّ حيوان يمرّ بقربه، أو يرميه بحجر.

من ناحيتي، إن كان من السهل عليّ إخفاء قرفي من روث الكلاب، فمن المستحيل تمويه خوفي منها. ما إن أراها أنتقل إلى الرصيف المقابل. وإذا ما باغتني أحدها وقفز على كتفي صرخت. أعرف أنّ صاحبه سيطمئنني بالقول، يا سيّدتي إنّه كلب لطيف.... أو يؤنّبني على سوء معاملتي لهذا الكائن شبه الملائكيّ.

ذات مرّة كنّا في زيارة لمدينة صغيرة في ضاحية «براد» في منطقة البيرينيه. كنّا قد أمضينا مع مجموعة من السكّان يوماً رائعاً، بين زيارة مغارة تشبه مغارة جعيتا، وحضور كونسرتو في كنيسة المدينة، تأكّد على إثرها لجميع المشاركين، أنّ انسجاماً كبيراً يسود بين الشعوب. لكنّ الدعوة للعشاء، في بيت إحدى المشاركات، جاءت لتكذب ذلك بصورة قاطعة. بعد أن تسامرنا، وضعت المائدة وجلسنا إليها، وإذا بكلب ضخم مثل أسد يقترب. لا أدري لماذا يقع اختيارها دائماً عليّ! إقترب منّي ومدّ رأسه الكبير، وراح يشمّ الصحن الذي سأتناول فيه عشائي. وخيّل لي وهو يسعل أنّ رذاذ لعابه ينتشر ويلامس خدّي. وفكّرت أن أنهض إلى الحمّام وأغسل وجهي بالماء والصابون، ضاربة عرض الحائط بماكياج السهرة. لم

- «أرجو منك أن تنتظرني، قلت له، سأعود في حال كنت أخطأت العنوان».

- «إسألي الحارس»، قال الرجل بأدب حذر.

لا حارس في العمارة. ولا يافطة تشير إلى وجود من يحرس. أبواب الطبقة الأرضيّة كلّها مغلقة، متشابهة، ولا نأمة تدلّ على وجود ابن آدم في داخلها.

إحساسي بالقلق انتقل إلى السائق، فنزل من سيّارته وبدأ يبحث معي عن بوّاب. حسناً فعل إذ لم يكن في إمكاني الصعود بمفردي في تابوت المصعد، وأنا على هذا المدى من الخوف! بمعيّة الرجل درت على شقق البلوك (ب) كلّها.

لا فائدة! الوقت يتقدّم، وأزداد تأخّراً عن موعدي بأستاذة لم تعرف بكرمها في إعطاء المواعيد.

أمامنا البلوكان (التاء والثاء)

حاولت إعطاء السائق مبلغاً مقدّماً من باب التشجيع. بأدب بالغ رفض. لا تيأسي يا سيّدتي، سأبقى معك إلى أن تعثري على العنوان. وإن أردت أن أعيدك إلى محطّة المترو، فأنا حاضر.

أخيراً في البلوك الثالث، وبين الأسماء، طالعني الاسم! شكرت السائق ودفعت ما يستحقّ، فانصرف ووقفت ألتقط أنفاسي قبل أن

أضرب الجرس. فتح الباب وأطلّت سيدة هي بلا شكّ الأستاذة التي أقصدها. الصورة التي على كتابها الذي أحمل تؤكّد ذلك.

- «بونسوار»، مدام. قلت، أنا فلانة، لديّ موعد...

- نعم...وقد جئت متأخّرة يا آنسة نصف ساعة.

قالت هذا وأغلقت الباب في وجهي!

ندمت على أنّي صرفت السائق.

متعبة منكفئة، جلست على عتبة السلّم أستعيد أنفاسي استعداداً لرحلة العودة. وإذا بالباب يفتح ثانية، وتطلّ منه الأستاذة. نهضت. «إسمعي يا آنسة، قالت، يمكنك الدخول، ولكن عليك الانتظار. فالآن موعد عشاء القطّة.»

سمحت لي بالدخول فيما هي تسألني عن «صديقي» الذي لمحته معي. أخبرتها أنّه السائق.

«آه... فتاة بورجوازيّة ذات طموح علميّ يرافقها سائق!»

إحترت في الإجابة.هل أعترف بأنّي أضعت نصف العنوان، فتصفني بعدم الجدّيّة؟ أم أحدّثها بفوبيا الارتفاع وما إلى ذلك؟!

الإنهاك أعفاني من الجواب، وأشارت لي الأستاذة بالجلوس إلى الطاولة الصغيرة التي تجلس القطّة في منتصفها، تأكل بهناء عشاءها اللذيذ. ومن هذه الناحية وتلك، جلست طالبة العلم وأستاذتها. كسباً للوقت أذنت لي الأستاذة بعرض موضوع أطروحتي.

عرضته فيما القطّة تلعق طعامها، وبين الحين والآخر تتوقّف عنه، تنظر إليّ وتموء.. الأستاذة تداعب رأسها وظهرها وتهدّئ خاطرها لوجودنا الثقيل على مائدة عشائها.

أخيراً انتهت الزيارة، ووقفت الأستاذة تودّعني قائلة إنّها ستكتب لي خطّيّاً ما ستقوله الآن: تبدي استعدادها لقبولي، شرط أن أعثر على أستاذ متضلّع في العربيّة، ولديه إلمام بعلم الدلالات. وبروح الدعابة الساخرة أضافت، لا يمكنها حتماً دراسة العربيّة لتفهم النصّ. ليس في الوقت الحاضر على الأقلّ.

* * *

كلب إفلين الطاهر

إن كنت مسلماً ونشأت على التمييز القاطع «للطاهر» من «النجس» فستواجهك مشاكل كثيرة، ولا سيّما في بلدان لا يفرّق أهلها، كما يفعل المسلمون، بين الطاهر والنظيف.

مهما كان نظيفاً، على المسلم، ولا سيّما في استعداده للصلاة، أن يتطهّر، خمس مرّات يوميّاً. ومن غير السهل تعريف الطهارة. من يتشرّب ثقافة الطهارة تغدُ تلك تلقائيّة بلا شرح. فكما يحكي الإنسان لغته من دون معرفة نظريّة بقواعدها، هكذا تغدو «الطهارة» سلوكاً عفويّاً لدى من تمرّس بأصولها. مثل هذه «العفويّة» تتولّى إدارة سلوك الإنسان، من دون الحاجة إلى الإثبات، إلّا في حالات الشكّ.

ليس كلّ ما هو نظيف طاهراً، يجوز استخدامه أو التعامل بينك وبينه. يمكنك مثلاً أن تغسل قميصاً في الماء النقيّ، ثمّ تمسكه بيد

نظيفة، وعلى رغم ذلك قد تنجّسه. كان عليك أن «تطهّر» يدك قبل تناولك القميص المبلول مباشرة، أي أن تغسلها بالماء النقيّ الجاري، مباشرة قبل إمساك القميص. ذلك أنّ أيّ فارق زمنيّ قد يعرّضك سهواً لملامسة شيء غير طاهر، مثل مسكة باب سبق لشخص غير طاهر أن أمسكها. إذّاك تنتقل النجاسة من يده إلى يدك فإلى قطعة الملابس، ولا سيّما إن كانت هذه مبلولة. فالمبلول أكثر قابليّة للنجاسة من الجافّ. والمياه الراكدة تعتبر وسيلة تنظيف غير مأمونة، إن لجهة الوضوء أم لجهة الشرب. وحده الماء الجاري طاهر. لذا لا يجوز تسكير الحنفيّة قبل أن تنتشل الصحن من تحت مائها. تقضي الأصول بانتشاله ومن ثمّ غسل الحنفيّة والأيدي التي ستسكّرها. تسلسل العمليّات الذي يغدو تلقائيّاً ويتمّ بلا رقابة خارجيّة، مهمّ لتتأكّد لنا طهارة الأشياء.

كنت أراهنّ «يطهّرن» الحنفيّة بالماء قبل فتحها وبعده. يخطفن اللحظة ليقفلن الحنفيّة من دون «تنجيس»، أو يقرأن آيات معيّنة عند غسل الملابس والصحون. كنت ذات مرّة أغسل قمصاني الحرير، فلاحظت أنّ جدّتي تقف بجانبي، تقول: لا تسكّري حنفيّة الماء. ليس الآن... وساورني شكّ في أنّها، ضماناً لطهارة قمصاني، كانت تقرأ آيات نيابة عنّي.

لا أدري هل الشيعة أكثر من غيرهم من المسلمين يلهجون «بالطهارة»؟! أبي، لم يكن يأبه بالمسألة التي تلتزمها أمّي التزاماً

صارماً. هي وأمّها ونساء سلالتها، كنّ يلهجن بالنجاسة والطهارة. وفي معرض تشريبي ثقافة الطهارة، أفهمتني جدّتي أنّ النساء، أكثر من الرجال، معنيّات بها. «يا ابنتي عليك أن تتدرّبي على الطهارة منذ الآن، حتّى إذا كبرت إن شاء الله، أصبحت قادرة على التمييز». وجدت صعوبة في إدراك مغزى المسألة، وأجّلتها لوقت الكبر الذي كان يقلقني. ولعلّي كنت أرغب في أن لا أكبر أبداً. فإن حدث هذا فقد لا أكون قادرة على أداء واجبات الكبيرات من زواج وطبخ وفهم مسألة الطهارة.

صدقت أمنيّة جدّتي، تلقائيّاً وبلا قرار مسبق، صرت بدوري أغسل الحنفيّات «قبل وبعد». وانعكس السلوك الخاصّ على المكان العامّ، فصرت أغسل حنفيّات المطاعم والمقاهي والمطارات، لينزل الماء طاهراً نقيّاً على يديّ. ومن ثمّ، حين أنهي غسلهما، ثانية، لأتركها طاهرة لمن سيأتي من بعدي، أغسلها لا بالماء فقط، بل بالصابون أيضاً، من دون قناعة منّي بضرورة ذلك. لكنّ الغلبة في السلوك تكون للمراس، وهذا يؤكّد مقولة «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

ذات مرّة، في مطار أمستردام، وكنت أنهيت فرك الحنفيّة بالصابون، وشرعت بغسلها بالماء... إقتربت منّي سيّدة، شكرتني على حسن أدائي، ودسّت في يدي شيئاً!

قطعة نقود!

للوهلة الأولى لم أفهم مغزى سلوكها. ثمّ أدركت الالتباس! السيّدة ظنّتني عاملة الحمّام! صحيح أنّي في السفر أرتدي سبور «كاجويل» كما يقال، لكن لا لدرجة أن يخيّل للمسافرة أنّي عاملة حمّام! مش مهمّ... ألقيت قطعة المعدن على جانب الحوض، واضطررت بالطبع إلى غسل يدي بعد لمسها. ولمّا تكرّرت الظاهرة، وأحسنت عليّ أكثر من سيّدة، بنقود من بلدها، صرت أكثر حذراً في ممارسة هوايتي. سرّاً، حين يخلو الحمّام أخطف اللحظة التي تنشغل فيها السيّدات بترميم آثار السفر، وتجديد الماكياج، وأستعجل غسل الحنفيّة.

على حسب هذه المعتقدات، يميّز المسلمون ما بين الحيوانات. هناك النجس منها وغير النجس. القطط غير نجسة في حدّ ذاتها، فهي تنظّف نفسها، لذا لا تفسد الوضوء، وإن كانت معرّضة طبعاً للنجاسة مثل جميع الأشياء والكائنات. أمّا الكلب، فهو نجس ويفسد الوضوء. ولا يفوقه نجاسة سوى الخنزير! في خروجها من البيت كانت أمّي تخاف من أن يقترب منها كلب، فيفسد وضوءها وينجّس ثيابها، فيضطرّها إلى غسلها. يقال سبع مرّات! فما بالك لو كانت الملابس من ذاك النوع الذي يستدعي التنظيف «على الناشف» قبل انتشار «الناشف»؟ الشمس كانت هي المطهّر. تعرض في أشعّتها الأشياء والملابس «المشكوك» في أمرها أيّاماً، ثمّ تكوى بالمكوى، لتكتسب شهادة «الطهارة». مسألة أخرى كانت تؤرقني في طفولتي: الكلاب. لا خوفاً من نجاستها بل من أنيابها:

أن يهاجمني كلب ويعضّني وأموت بمرض الكلب الذي نسمع به، والذي يُضطرّ «البلديّة» بين الحين والآخر، لإرسال رجالها، يجمعون الكلاب من الشارع، تمهيداً للقضاء عليها.

كان الرهاب من الكلاب يشلّ أوصالي. في طفولتي، كان من منغّصات حياتي أنّ عند بيت خالتي كلباً، «ليمو»، وأنّ عبور حديقتهم باتّجاه البيت يضطرّني إلى المرور به. كانت ابنة خالتي سلوى تنتظرني عند مدخل البيت، ترافقني في اجتياز ممرّ الخطر، أو تطلب إلى «ليمو» أن ينصرف فيفعل. كنت أستغرب كيف يمتثل للهجتها الهادئة الصبورة. لم يكن يزعجها ولا يلحق بها أو يقفز ليشمّ فستانها. لا أظنّ أنّها كانت، بشكل خاصّ، تحبّ «ليمو» أو تكرهه. لم يكن «ليمو» مدلّلا شأن الكلاب الآن، ولا سيّما في أوروبّا. كان يعيش حياة عاديّة تلقائيّة بلا ترتيبات ولا فذلكة. أقصد كان يحيا حياة الكلاب، حارساً أميناً ليس إلّا. وكنت أشفق عليه على رغم رهابي منه. ولما جئت إلى باريس عاد المنغّص السابق يلاحقني.

ظاهرتان تستوقفانك أوّل قدومك إلى باريس: جمال المدينة ودلال كلابها. المارّ مع كلبه في الطريق لن يتوانى عن تركه يقفز على كتفيك - إن كان من النوع الكبير - أو يشمّ أطراف ملابسك إن كان «كانيش» أو ما شابه. وأنت عليك بالتأكيد أن تلاطف الكلب المدلّل، تحيّيه، تناغيه وتدغدغ رأسه! ولا جُناح عليك إن أخذته بين ذراعيك وقبّلت رأسه. ختماً لا يدعونك تفعل هذا لأطفالهم...

ولعلّهم، لو فعلت، سيأتون لك برجال البوليس! تماماً على خلاف ما كان يجري عندنا. ما إن يقابل أحد أحداً مع صغيره، يأخذه في الحضن ويقبّل وجنتيه ويدغدغ خاصرتيه حتّى يزهق روحه. لكن من المؤكّد أنّه سيطرد أيّ حيوان يمرّ بقربه، أو يرميه بحجر.

من ناحيتي، إن كان من السهل عليّ إخفاء قرفي من روث الكلاب، فمن المستحيل تمويه خوفي منها. ما إن أراها أنتقل إلى الرصيف المقابل. وإذا ما باغتني أحدها وقفز على كتفي صرخت. أعرف أنّ صاحبه سيطمئنني بالقول، يا سيّدتي إنّه كلب لطيف.... أو يؤنّبني على سوء معاملتي لهذا الكائن شبه الملائكيّ.

ذات مرّة كنّا في زيارة لمدينة صغيرة في ضاحية «براد» في منطقة البيرينيه. كنّا قد أمضينا مع مجموعة من السكّان يوماً رائعاً، بين زيارة مغارة تشبه مغارة جعيتا، وحضور كونسرتو في كنيسة المدينة، تأكّد على إثرها لجميع المشاركين، أنّ انسجاماً كبيراً يسود بين الشعوب. لكنّ الدعوة للعشاء، في بيت إحدى المشاركات، جاءت لتكذب ذلك بصورة قاطعة. بعد أن تسامرنا، وضعت المائدة وجلسنا إليها، وإذا بكلب ضخم مثل أسد يقترب. لا أدري لماذا يقع اختيارها دائماً عليّ! إقترب منّي ومدّ رأسه الكبير، وراح يشمّ الصحن الذي سأتناول فيه عشائي. وخيّل لي وهو يسعل أنّ رذاذ لعابه ينتشر ويلامس خدّي. وفكّرت أن أنهض إلى الحمّام وأغسل وجهي بالماء والصابون، ضاربة عرض الحائط بماكياج السهرة. لم

تكن الغرفة واسعة بما يكفي كي يتنقّل الكلب بحرّية بين الضيوف، أو كي أنسحب من مكاني إلى الحمّام من دون إزعاج الجالسين. جارتي في المائدة لاطفت الكلب، فيما هو يحفّ خاصرته بثيابي.

أنهضني الفزع! فيما سيّدة البيت تؤكّد لي أنّه كلب وديع، وأنّ خوفي سيصيبه بالهلع، وقد يغدو عدوانيّاً. كلامها ورهابي الذي يُجاوز التفسيرات ومحاولات الطمأنة، جعلاني أفرّ من مكاني، وأرجع إلى الوراء وأصدم الحائط، قبل أن انسحب بصعوبة بالغة إلى الصالون، والكلب الوديع يلاحقني ويشمّ ثيابي، وأنا أكاد يغمى عليّ!

سلوكي غير «المتحضّر» أغضب صاحبة البيت. صارت تعنّفني بالقول إنّ «هذا الكلب الوديع يحبّ أن يشعر بالعاطفة، ويبحث عن الأنس الذي ترفضين إعطاءه إيّاه».

ووجدت نفسي أبحث عن سبب تخفيفيّ لسلوكي... وكدت أقول إنّ الرهاب أقوى من المصاب به، وإلّا لما سمّي رهاباً. لكن، لا أدري ما الذي جعلني أقول غير ذلك، وأقدّم العذر الذي لم يقنعني طيلة حياتي: «يا سيّدتي، في ثقافتنا تجنّب أساسيّ للكلاب، يرجع إلى مسألتي الطاهر وغير الطاهر».

قلت هذا وختمت القول البليغ بطلب تغيير الطبق.

يا لهول ما تلفّظت به!

لو سألتها أن تستبدل بالعلم الفرنسيّ العلم الفلسطينيّ أو بنشيد «المارسيلييز» النشيد الموريتانيَّ، لما أغضبتها قدر ما أغضبتها عبارتي! وزوجها، حرصاً منه على عدم «اندلاع المعركة» قام وأخذ الكلب، ربّما إلى غرفته أو «الكراج»، لا أدري، ورجع. ورأيت الدمع يطفر من عينيها وهي تردّد: «أسمع صوته يبكي. يا للكلب المسكين»!

أبديت أسفاً شديداً، ورجوت من السيّدة أن تغفر لي سلوكاً لا أقصد أن أؤذي به أحداً. وتمنّيت عليها أن تسمح لي بالمغادرة. صمتها يشير إلى القبول، لكنّ زوجها اعترض منتصراً لتقاليد الضيافة! صديقة العائلة، إفلين، احتجّت. خبطت الطاولة بقبضتها وهي تعنّفني وتهزأ من مسألة النجاسة والطهارة. وأنا لم يعد في وسعي أن أتراجع وأعترف أنّ الرهاب والقرف من اللعاب، لا النجاسة، هما سبب سلوكي. «نجاسة قال نجاسة... تردّد. ما هذه المعتقدات؟! يا سيّدتي هذه الكلبة التي يسجنونها الآن بسببك، هي أنظف منّا جميعاً. كانت تريد أن تقول «أنظف منك»...

إنتحيت جانباً بصاحبة البيت، وتأسّفت مجدّداً، وأصررت على رغبتي في الانصراف. قالت. «في هذه المنطقة، وهذا الوقت لن تجدي تاكسي». قلت: لعلّي أطلبه بالهاتف. أخيراً، تمكّن الزوج المضياف من تهدئة المرأة وتلطيف الجوّ. وأطبق الصمت وشرعنا نأكل. والكلبة المسجونة تنوح في الداخل. والكلّ ينظر إليّ بغضب،

باستثناء ضيف وزوجته. كانا يلقيان عليّ نظرة تعطّف. قلت لعلّ أحدهما يعاني ما أعانيه منه ولا يجرؤ على المجاهرة به.

بعد العشاء وصل التاكسي. وفيما كنت خارجة سمعت إحداهنّ تقول: «أيّ سخف. نجاسة قال. النجاسة هي المعتقدات. هذه الشعوب يلزمها مسافة أكبر مع الحيوانات، لتتمكّن من الرأفة بها»!

وفاقاً لأصول الضيافة، رافقنا صاحبا البيت إلى الخارج. ولا أدري لمَ لحقت بهما إفلين، وكانت تغلي بالغضب؟! كان سائق التاكسي ينتظر أمام الباب، يحدّق إلى المدخل، ليعرف من منّا سيركب سيّارته. على ما يبدو أفلت الأمر من يد إفلين، فرأيتها تتوجّه إلى السائق بالقول: وأنت يا مسيو، أنت أيضاً مثل هذه السيّدة تحتقر الكلاب؟! لا شكّ أنّك مثل هذه السيّدة - وتشير إليّ - تحتقر الكلاب وتعتبرها نجسة. أيوه أجب أنت أيضاً.. إعترف بأنّك تعتبر الكلاب نجسة...

أسقط في يد الرجل الذي لم يفهم من الموقف شيئاً. وعلى رغم ذلك، بدا وكأنّه قد فهم كلّ شيء! نظر إلى السيّدة بعينين تنضحان بالغضب، وبلهجته المغربيّة قال: مجنونة هذه السيّدة أليس كذلك؟! مجنونة... وكفّه إلى صدغه تؤكّد ذلك .

Elle est dingue cette dame, vraiment dingue,

n'est-ce pas?

أنهى جملته وانطلق، وتركنا في شارع خالٍ من التاكسيات والمواصلات بعد منتصف الليل.

* * *

«قرينة» دو بوفوار

كانت هي أيضاً تدعى»سيمون». قالت لي صديقتي هيني التي عرّفتني بها: «هذه امرأة رائعة قد تصبح ذات يوم سيمون دو بوفوار أخرى.!»

لطالما عرّفتني هيني[1] بأشخاص مميّزين، ولا سيّما أنّها بدأت تشقّ دربها في عالم السينما بصورة موازية لدراستها الأنتروبولوجيا لدى أستاذها المستشرق الشهير «مكسيم رودنسون». كانت حين سمعت به في لبنان، بدأت تقرأ له، وفكّرت أن تتلمذ على يده. مفكّر يهوديّ الديانة مثلها، علمانيّ الرؤية، ماركسيّ. كانت تتنسّم فيه الأب الروحيّ، بديل الصهاينة المحيطين بها. صحيح أنّها غير متديّنة، ولعلّها ليست مؤمنة بالمعنى التقليديّ، إلّا أنّها لم تكن تتنكّر على

(١) هيني سرور، أخرجت عدداً من الأفلام منها «ساعة التحرير دقّت» و«ليلى والذئاب» وآخر عن «الفيتنام» وكان فيلمها الأخير عن «الشيخ إمام».

الإطلاق ليهوديّتها. كانت مناهضة لكلّ أشكال الاستغلال والتسلّط، مناهضتها للصهيونيّة. وحين جاء رودنسون إلى لبنان لإلقاء محاضرة، قابلناه معاً تمهيداً لتتلمذها عليه. فتننا ببساطة سلوكه. كان عائداً من نزهة على كورنيش البحر. في مروره ببائع عربة جوّال اشترى «كعكة بصعتر». فيما نحن ننتظره في بهو فندق «البريستول»، متهيّبين، أقبل علينا حاملاً الكعكة. وما كدنا نسلّم عليه حتّى دعانا لمشاطرته إيّاها.

كنّا، هيني وأنا، مثل أختين ولدت كلّ منهما في بيئة مغايرة: هي من بيئة يهوديّة من رأس بيروت، وأنا من بيئة شيعيّة هي صور. التقارب بيننا جعلها مقرّبة من أهلي، كما جعلني مقرّبة من أهلها. ذهابي إلى باريس كانت محطّته بيت أخي، على أنّي كنت أمضي غالبيّة الأوقات برفقتها.

كان صديق فرنسيّ قد أعار هيني منزله في باريس خلال الصيف. كنت أمرّ بها في ذاك المبنى من الطراز القديم. نمضي وقتنا في المطبخ الكبير الذي كان في الوقت عينه غرفة طعام وجلوس. ولعلّ لمثل هذا النظام علاقة بالطقس وبصعوبة تدفئة منزل بأكمله. المطبخ هو الغرفة «الشتويّة» المؤهّلة لاستيعاب جميع الأنشطة.

على سعته، كانت تحرّكاتنا في هذا البيت محسوبة. ذلك أنّ هيني لم تكن تسكن بمفردها فيه. المالك الكريم الذي اكتسب

عادات أفريقيّة، يعيره في الصيف للأصدقاء. وهذه المرّة، إضافة إلى هيني، أسكن فيه السيّدة التي عرّفتني بها: «سيمون». كانت امرأة لافتة. لعلّها في منتصف الأربعين، طويلة، ناهضة القامة، معتدلة الوقفة، ذات حضور مفرط، يمعن في قوّته «البرونزاج» البرتقاليّ الذي انتشرت تقليعته في تلك الفترة. ويزيد من قوّة حضورها، طريقة ملبسها: بنطلون كاكي «غولف» وجزمة «كافالييه» كأنّها لصيّاد الغابة، حين تسير بها على أرض البيت المصنوعة من خشب، تحدث جلبة لا تحرص سيمون على التخفيف من حدّتها.

أنوثة مفرطة تتدفّق من هذه المرأة التي وهبها الله جمالاً ذكريّاً: قامة تقرب من قامات الرجال. عينان سوداوان كبيرتان...

هيني تقول عنها: إمرأة مثقّفة، تتهيّأ لتغدو معالجة نفسيّة، ما إن تفرغ من تحليل نفسها، بحسب الطريقة اللكانيّة. وهي، في الوقت نفسه، تنهي دراسة نف - اجتماعيّة عن أوضاع النساء في السنغال. وتضيف هيني: امرأة سيكون لها بلا شكّ شأن مهمّ.

لسبب ما، كان يلفتني شيء غريب في شخصيّة سيمون. هل لأنّها كانت تنظر إلينا، أنا وهيني، نظرة غريبة... لعلّها نظرة امرأة ناضجة إلى شابّتين في منتصف العشرين؟

سألت هيني صراحة عن السبب، فأجابتني:

«ياعزيزتي، هذه المرأة الشجاعة تعيش في دكار، تدرّس في

جامعتها، وتأتي إلى باريس مرّات في السنة، لتتابع «التحليل» الذي سيؤهّلها لما تصبو إليه».

وإذ تلاحظ أنّ جوابها لا يفي بالتساؤلات التي تدور في رأسي حول سيمون، تقول هيني بلهجة تأنيب:

«لديك فِكَرٌ وتساؤلات غريبة عن الآخرين! أنت يا رجا فتاة ريفيّة تتنقّل بأحكامها في العالم المعاصر. عليك أن تعالجي تناقضاتك. حرّيّة التفكير عمل دؤوب قد يستغرق حياة بأكملها».

لعلّ هيني كانت على حقّ! فالسيّدة في واقع الأمر صارت محلّ تساؤلات شابّة آتية من الشرق، ترى فيها نموذجاً مختلفاً لا تتمكّن من وضعه في سياق مفهوم.

سأكتشف أنّ سيمون لم تكن تعيش بمفردها في البيت. من غرفة جلوسنا في المطبخ، كنّا نلمح طيف رجل داخلاً. يعبر المسافة بين المدخل والغرفة، ولا نعود نشعر بوجوده. ولمّا لم أكن أسمح لنفسي بدخول الجهة الأخرى من المنزل، وصرت حذرة في إلقاء الأسئلة على هيني، لم أتمكّن من معرفة حقيقة هذا الشخص، وعلّة وجوده في البيت! يأتي ولا نراه، وكذلك يخرج. ذات مرّة لمحتهما صاعدين معاً: زوجان من العمالقة يضاهي الواحد منهما رفيقه طولاً، هيبة ووسامة!

هيني، تلاحظ فضولي فتكرّر على مسمعي كلاماً عن رفضي

الداخليّ أن يكون الناس مختلفين عنّي. هذه سيّدة ذات شأن مهمّ... وهذا الرجل، صديقها أو زوجها، لا أدري. لا يهمّني الأمر. كلّ ما أعرفه أنّ الرجل يدعى «هنري» وأنّ لديهما طفلاً.

أدهشني ذلك، والفارق بيني وبينهما يقارب العشرين عاماً! كان يخيّل لي آنذاك أنّ كل الأمّهات شابّات. لم يكن مجرّد تخمين! فنحن من جيل تولّى إدارة حياته باكراً. وفي مسار الدراسة الجامعيّة والنضال، تزوّجنا وأنجبنا. جميع الصديقات أو الرفيقات فعلن ذلك على وجه التقريب.

منذ أن قلت لسيمون، لديّ معارف كثيرة في داكار، عائلات لبنانيّة تعيش هناك... صارت أكثر حذراً منّا وأشدّ فضولاً أيضاً. يبدو أنّها لا تكنّ للبنانيّين في السنغال إعجاباً. سألتها مرّة عن حياة اللبنانيّات هناك، فابتسمت وأجابت:

«مرتاحات البال! لا همّ لهنّ سوى الملبس الجميل ودعوات العشاء. لكنّ الحقّ يقال، إنّ الطعام اللبنانيّ لذيذ: تبّولة وحمّص وأطباق شهيّة. المازة، كما يقولون».

- «وماذا عن الجيل الجديد؟»

- «خاضعات للأب، للعائلة ثمّ الزوج. من النادر أن تسعى فتاة لبناء مستقبل مميّز لنفسها».

بمرور الوقت، تأكّد لي أنّ الفضول الذي يعتمل في داخلي

حيال «سيمون» كان يعتمل مثيله في داخلها حيالنا نحن الاثنتين. ولكن، وعلى رغم فضولها، تلقي علينا أسئلة عابرة لا يبدو أنّها متحمّسة لسماع أجوبتها. أسئلة تتجلّى في تفحّصها وجهينا وملابسنا وسلوكنا. من المؤكّد أنّ استغراباً ما يراود خاطرها حيال هاتين الشابّتين القادمتين من لبنان.

وذات مرّة قلت لهيني:

- «المرأة هذه تبدو اليوم حزينة، وأظنّها كانت تبكي.

- «تبكي؟!

- نعم! رأيتها تمسح دموعها.

- أنت يا صديقتي واهمة؛ هذه امرأة ناضجة وليست في العشرينيّات من العمر. قويّة وتعرف ما تريد. لعلّها كانت تمسح الغبار من عينها. لطالما ذكرت أنّ لديها حسّاسيّة من غبار الصيف. على فكرة، غداً سأدعو الشغّالة لتنظّف الباركيه. الخشب في الصيف مزعج، ولا سيّما القديم منه.

نجحت هيني في قمع فِكَر الفتاة الريفيّة ذات الأحكام المسبقة. وصرت ألوم نفسي على جعل المرأة «علّاقة» لِفِكَري، وبدأتُ بدوري أمتدح هذه «السيّدة الشجاعة التي ستغدو محلّلة نفسيّة عمّا قريب»!

لعلّها ستكون خليفة آن فرويد!

من يدري؟ لعلّها ستساعدنا في المستقبل على فهم ذواتنا واستخراج الأفضل منها للنضج والنموّ.

أمتدح... وهيني تثني على مديحي!

ولكن، هذا المساء بالذات... كنا نتسامر هيني وأنا في المطبخ، فيما السيّدة وزوجها في الداخل... كأنّي كنت أسمع بكاء. ما من امرأة غيرها! من هي التي تبكي إذاً؟!

أصغيت معقودة اللسان، بين الشكّ واليقين، وبكاء المرأة أو تخيّلي له يصلني! لا مراء في هذا!

عجباً! هيني لا تعلّق بشيء!

- لعلّها تبكي، قلت لهيني

- من هي؟

- سيمون

بلعت هيني ريقها، ولوت رأسها وهي تقول:

- هذا يا عزيزتي من أوهامك!

ما كادت هيني تنهي جملتها، حتّى ارتفع صراخ المرأة من الداخل تطلب النجدة: «أو سكور... أو سكور»!

ثمّ سمعتها تشتم الرجل؛ وهذا يشتمها ويكرّر: «عاهرة».

صراخ وجلبة وتكسير زجاج على الأرض! لعلّ أحدهما رشق الثاني بشيء! ماذا لو لجأا إلى عنف أكبر! الغرف مليئة بزجاجات العطور ،والمطبخ بزجاجات النبيذ والسكاكين!

بالنسبة إلى شابّة «محافظة» لم تسمع في حياتها أحداً يستغيث (كان ذلك قبل الحرب الأهليّة) وتفاجأ بأنّ قتالا عنيفاً يحدث بين زوجين... كان من شأن هذه المفاجأة أن تدبّ الرعب في أوصالها، كما يقال! هكذا وجدت نفسي، من دون سابق قرار، أهبّ راكضة إلى المدخل. أفتح باب الشقّة وأنزل سلالم الطبقات الثلاث هرولة. وفي مدخل العمارة وقفت ألهث. وفكّرت في الخروج إلى الشارع لأنادي تاكسي أو... حتّى البوليس!

كدت أفعل شيئاً من هذا القبيل، لولا... أنّي تذكّرت هيني. وتولّاني خوف عليها، من أن يحمى وطيس المعركة. وتولّاني خجل شديد من نفسي، أن أتركها بمفردها في معمعة لم تشهد من قبل مثيلتها، بالتأكيد.

عدت أدراجي بخطى متوجّسة.

في المدخل أصخت السمع!

ليس سوى السكون. دخلت ودلفت إلى الممرّ الذي يؤدّي إلى الغرف. هذه غرفة مغلقة، وأخرى شبه مغلقة، وثالثة... ما إن أطللت عليها، تأكّد لي أنّها الغرفة التي تشهد المعركة. صديقتي هيني تقف

وسط المرأة وزوجها وقفة من يحاول ردعهما عن الاقتتال. تمدّ يداً إلى هذه الناحية وأخرى إلى تلك، لتباعد ما بين عملاقين هائجين. تقول لهما:

«S’il vous plait!»

روائح عطور حادّة تكتم النفس، زجاجاتها مهشّمة، وماؤها يلطّخ الباركيه وملابس الزوجين. عين المرأة مطبقة وجفنها أزرق مورّم، وشعرها منفوش. وكذلك شعر الرجل الذي اكتسب وجهه الأحمر لون البنفسج. ياقة قميصه الممزوقة تكشف عن صدره المدبوغ بالضربات. ثوران هائجان يتبادلان من فوق رأس المسكينة هيني اللكمات والشتائم. وهذه تقف بينهما وقفة طفلة فزعة، وخدّاها مورّدان يبرقان، كما عيناها، بالانفعال والفزع.

لا أذكر كيف أصبحت أنا في الدائرة.

أو على مقربة منها!

لعلّي تدخّلت لحماية هيني.

العتمة التي تلقي ظلالها الثقيلة على الغرفة، يقطعها ضوء اللمبة الصارخ، فيزيد من حدّة الموقف وشراسة الزوجين. إقتربت وملئي الرعب، أنظر إلى هذه وذاك. كنّا أنا وهيني أشبه ببنتين صغيرتين حجماً وخبرة، تحاولان فضّ خصام لا يبدو أنّه ابن ساعته، أو أنّنا نملك القدرة عليه.

التفتت إليّ هيني وسألتني، بالعربيّة، أن أساعدها...

طبعاً أساعدها... لكن كيف؟!

قولي شيئاً!

أيّ شيء. رجاءً قولي!

في تلك اللحظة، كلّ اللغة الفرنسيّة تبخّرت من رأسي، بل على الأرجح كلّ اللغات: العربيّة، الفرنسيّة، الإنكليزيّة. لا شيء.

وهيني تلحّ وتكرّر، ودماغي كأنّه غسل بالحليب.

شاشة بيضاء!

استجابة لطلب هيني، بذلت مجهوداً جبّاراً...وجدتني ألتفت إلى الرجل وأقول له بالفرنسيّة:

Monsieur, vous êtes très gentil!

- «مسيو... أنت لطيف جدّاً..

Madame, vous êtes très gentille, Madame!

«سيّدتي أنت لطيفة جدّاً.. سيّدتي!

لسماعهما التقريظ ازداد الزوجان عنفاً، وكذلك الضربات التي يتبادلانها! وأنا من طرف الحلبة أكرّر:

S’il vous plait vous êtes très gentils.

ولمّا لم يمتثلا، وجدتني أقول لهيني بالعربيّة:

«لا بدّ من استدعاء البوليس».

لا أذكر، ولا هي تذكر هل لفظت الكلمة بالعربيّة؟ لا فرق، فهذه في كلّ اللغات واحدة، ولا تعدو كونها الكلمة الفرنسيّة منطوقة لبنانيّاً، والمعنيّ بها سيفهمها بلا جهد.

وقد فهماها بالتأكيد!

نزلت عليهما كما سهم الملائكة! توقّفا عن التضارب.

وبدأ هو يعتذر: أعذريني يا حبيبتي سيمون. يا حبّي. كانت تلك لحظة غضب. إهدئي.

وهي، استجابة لاعتذاره، هدأت وسكتت.

وراح يكيل لها الثناء، وهي تستجيب لملاطفته. وحلّ الهدوء. وبدل الشتائم صار الزوجان يتبادلان المشاعر!

«حبيبتي سيمون... تعرفين كم أحبّك...»

«وأنا أعبدك يا هنري... يا حبيبي... إنّك لتعرف هذا!»

كانا قد تعانقا حين سمعنا من الغرفة المجاورة نداء الصغير أبويه:

Maman! Papa!

هرع الزوجان إلى غرفته وهما يناديان. «هنري، حبيبي هنري...»

الصبيّ يحمل اسم أبيه!

وهذا يقول «أحبّك يا حبيبي. نم يا حبّي، أنا أعبدك».

وأمّه تكرّر: أعبدك يا هنري الصغير، حبيبي..».

في مناخ الوئام العائليّ، أشارت إليّ هيني بأن ننسحب، وأنا امتثلت لإشارتها. رحنا إلى مطبخنا، وملئي الإشفاق على هذا الطفل الذي في خيالي يشبه ابني: رقيق، دقيق المعالم والبنية، فائق الحسّاسيّة.

نام الصغير على ما يبدو، وعاد الزوجان إلى غرفتهما. هيني تبتسم ابتسامة ذات مغزى! لا نجرؤ على أن ننطق بحرف كي لا نعكّر الهناء الذي يحلّ في الداخل.

«هس» أقول لهيني، بالحركات لا بالصوت.

وهي تجيب «هس».

وهمست: «ما رأيك في أن نخرج؟».

«نخرج حتماً، إلى أيّ مكان».

وكدت أقول: حتّى إلى جهنّم!

أمنية وحيدة كانت تراودني في تلك اللحظة، وحيدة لا غير، كنت على استعداد لأن أدفع ثمنها كلّ ما أملك: أن أغطس في ماء

البحر، بحر صور قبالة بيتنا، أغطس في العمق وأسبح تحت الموج، ولا أخرج منه إلّا لأخذ النفس، ثمّ أعود بعده إلى جوف الماء.

كان الوقت متأخّراً، وكنّا متعبتين، وفكرة الخروج تغرينا لنبتعد عن الدائرة التي أربكتنا. نهضنا بلا نأمة، وعلى رؤوس أصابع قدمينا بدأنا نتّجه نحو الباب.

لكن...

أقدام قويّة تضرب أرض الباركية، تركض. تهزّ الأرض وتلحق بها أقدام أخرى.

هرعنا إلى المدخل. الرجل بلباس رسميّ يلوذ بالهرب.

المرأة عارية تلحق به منادية: هنري. هنري.

بصورة تلقائيّة خرجنا بدورنا إلى رأس السلّم، ننادي مثلها هنري هنري ليرجع.

لكنّه لم يرجع.

تسلّلت سيمون إلى الحمّام الملاصق للمطبخ. سمعنا صوت «الدوش». خرجت من الحمّام عارية مبلّلة بالماء، حمراء مثل الجزرة، بفعل الماء الساخن والبرونزاج، مشطورة الوجه، مدبوغة الجفنين. قبعت في االمطبخ على الكنبة.

جاءت هيني بغطاء ولفّتها به.

تكوّمت سيمون على نفسها. غمرت جسمها بالغطاء وطفقت تبكي. بدت وهي تشهق وترتعش، كتلة من العظام.

وبين البكاء والبكاء، راحت تحكي:

«تعرّفت به في داكار. وهو من أصل مختلط. لبنانيّ الأم، فرنسيّ الأب. أمّه لفرط عذابها مع أبيه انتحرت. وهنري على خطى أبيه، يتنقّل بين النساء كما بين محطّات المترو. يترك زوجة ليتزوّج بأخرى. ثمّ يتخلّى عنهما ليعيش مع عشيقات بين باريس وداكار. وهي، سيمون، بين عملها وتدرّبها تلحق به. في «الويك إند»، ترعى أولاده من زوجاته الأخريات. تنفق عليه المال.. وعليهم أيضاً...

ووجدت نفسي أسألها:

«سيّدتي، ما الذي يضطرّك إلى قبول هذا؟!»

نظرت إليّ تلك النظرة! النظرة نفسها التي كانت تلقيها علينا، وكانت تستوقفني ولا تستوقف هيني.

مسحت دموعها وهزّت رأسها وقالت:

- «لا أدري».

في اليوم التالي، أفاقت سيمون من النوم وآثار المعركة بادية على وجهها. جاءت إلى المطبخ بلباسها المعتاد: بنطلون كافالييه وجزمة تصل إلى الركبة. أعدّت قهوتها وجلست إلى الطاولة تطالع بريدها، وتفضّ أغلفة الرسائل.

الصبيّ «الطفل» خرج.

عملاق مثل أبويه، كبير الرأس، مكتنز الجسم. حذاؤه لا يدلّ على أنّه قد اشتُري من محلّ للأطفال. يضرب به الأرض بما يؤكّد اعتزازه بالجلبة التي تصدر عنه.

فهمنا، من الحديث المختصر الذي تبادله هو وأمّه، أنّه يتهيّأ للذهاب إلى «كولوني».

أمّه حرّرت شيكاً وناولته إيّاه.

لكنّ الصبيّ أرجعه لها، ضارباً الأرض بقدمه، وقال:

«المبلغ هذا لا يكفيني. الإجازة طويلة».

مزّقت سيمون الشيك، وحرّرت غيره.

المبلغ الجديد حظي برضى هنري الصغير، الذي يستعدّ ليغدو صورة أخرى عن «هنري الكبير».

* * *

كانت الجاكيت مقلَّمة

أحاول الاستفادة من «صباح» باريس. أصحو من النوم باكراً، أهيّئ ابني للذهاب إلى مدرسته. أفرش اللحاف المخصّص لليوغا، وأخلو فيها بنفسي. حين أنهي جلستي، أضع في المسجّل شريطاً لفيروز، وأجلس أتناول فطوري والقهوة. قبل خروجي من البيت إلى الجامعة، أشغّل الراديو لأعرف ما يجري على أرض الوطن.

بين البرنامج والآخر منوّعات. غالباً، لا تخلو من سخريّة من العرب، من تخلّفهم وعاداتهم. أقوال مستهلكة مملّة. «خليجيّ ينزل وزوجاته في فندق جورج الخامس». أو «فلان عربيّ ينفق المبلغ كذا على طاولات القمار».

في الفترة الأولى، كنت أسخر من سخريّة هؤلاء. لو أردنا إحصاء كم من رجل غربيّ - أو حتّى امرأة - يقتني عشيقة في الخفاء

أو العلن، أو ينفق ماله في غيرِ دربه القويم، للزمنا مركز إحصاء... حين يجاهرون باقتناء عشيقة وتتقارب هي والزوجة في المناسبات، يندرج «سلوكهم» في خانة الصدق. كان ذلك قبل انتشار كلمة «الشفّافيّة».

بمرور الوقت صرت أضيق بمثل هذه المهاترات التي تطالعك في المرئيّ، المكتوب والمسموع. قلّما مرّ يوم لا تحمل فيه وسائل الإعلام مقتطفات ساخرة من العرب، وصفحات تنوّه «بحضارة» إسرائيل.

في تلك الفترة، كان الإعلام قد نجح في إعادة إنتاج حكاية «لافونتين» الأشهر، ونشرها على نطاق واسع. على أنّ «عبقريّة» المعلنين تمكّنت من فبركة واقع نقيض: الحمل الوديع آنذاك هو البلد الناشئ الذي لا تريد له مجموعة «الذئاب»، المجاورة أن ينهض. حينما تذكر جارتي إسرائيل، تزمّ شفتيها وتضمّ أصابع كفّها، كأنّها تتحدّث عن طفل رضيع. ستمضي عقود قبل أن يعترف الساسة وأرباب الإعلام بأنّ هذا الحمل يملك ترسانة أسلحة من شأنها تدمير البلدان العربيّة بأسرها، بل في استطاعتها أن تذهب أبعد من ذلك. ترسانة متوّجة بمئات من الرؤوس النوويّة. من المؤكّد أنّ كلفتها تُجاوز الموارد والضرائب، بغضّ النظر عن شرعيّة تلك! سينكشف، لمن يبحث عن الحقيقة، أنّ إسرائيل قد بنيت أساساً لخدمة الترسانة تلك، وما اليهود سوى رهائن أعطوا هويّة لم توجد من قبل، لحراسة الترسانة تلك.

كنت في رحلة إلى النورماندي مع أصدقاء، وفيما نحن نتبادل الأحاديث ذكرتُ ما يستوقفني في الإعلام الفرنسيّ.

وتساءلت: ألهذا الحدّ لم يغفر الفرنسيّون حكاية الجزائر؟!

بدا تعليقي ضرباً من السذاجة، لشابّ كان يرافقنا في الرحلة، اسمه برنارد:

- «يا سيّدتي...لا غباء المعلنين ولا حرب الجزائر ولا التكفير عن ذنب النازيّة...هو ما يقف خلف هذا التضليل

- ماذا إذاً؟؟

- التمهيد للحروب المقبلة.

- أيّ حروب؟

- التي يجب القيام بها ذات يوم قريب... أو بعيد.

الاستغراب على وجهي جعل الشابّ يضيف:

- النظام العالميّ مبنيّ على الأطماع، أطماع الأقوياء في ثروة الضعفاء. ماذا لو لاحت في الأفق مخزونات جديدة للغاز والبترول، أو حتّى استجدّ ما يتعلّق بالقديمة منها؟ وهل بين ليلة وضحاها تشنّ الحروب؟! يلزم القوى الكبرى فترة طويلة من التمهيد، بغية إرسال شبابهم إلى القتال؟

يقول هذا بحنق بالغ، لكأنّه هو شخصيّاً معنيٌّ بالمسألة.

آنذاك، كانت فكرة أن تقوم بلدان الغرب بحرب ضدّ العرب، من رابع المستحيلات. كانت حرب السويس في خلدنا، آخر تلك التجارب المتهوّرة. وفي ما عدا ذلك تتكفّل إسرائيل وحدها بتنفيذه.

وكدت أسأل برنار هل هو من أصل...عربيّ، فلسطينيّ أو...

- لا، أجاب. أنا فرنسيّ بالتسلسل عبر أجيال. ولكن، لكثير من الفرنسيّين وجهة نظر مغايرة لما يسود في الإعلام.

وأوضح برنارد أنّه من أبوين يساريّين، وأنّ السعي لامتلاك المعرفة وإيضاح الرؤية هو خير إرث أورثوه إيّاه. يرى أنّ تغيّرات كثيرة حدثت في العالم، وكانت لصلاح البشر. غير أنّ تكنولوجيا الحروب تلتهم، لا ميزانيّات الأبحاث فحسب، بل سائر ميزانيّات البلاد. نهم سيقود العالم إلى الهلاك.

جاء قول الشابّ سنوات قلائل قبل أن تنتشر الفكرة على نطاق واسع، عبر الخطاب الذي ألقاه غابرييل غارسيا ماركيز، عند نيله جائزة نوبل في العام ١٩٨٢.

* * *

كلّمتني عليا شقيقة عبدالله، من لندن، وقالت: لديها «أخبار» جديدة! منها ما هو مؤكّد ومنها ما لم يتأكّد لهم بعد. قلت: أحضر حالاً، فأجابت: «لا تحرميني من زيارة باريس».

لم تكن أحوال السكن والمعيشة قد ضاقت في العالم على النحو الذي نراه اليوم. كنت أسكن في المستديرة الثالثة عشرة، في شقّة تتّسع لسكني وطفلي، ولاستقبال أقرباء أو صديقات. وصرت متشوّقة إلى استقبال عليا. سنمضي سهرات طويلة نحكي. نضحك ونبكي. نحلم ويخبو أملنا. وبالتأكيد، سنخطّط للسياحة التي سنقوم بها في الأيّام القليلة التي ستقضيها عليا في باريس.

إضافة إلى زيارات المعالم وارتياد المطاعم، اقترحت عليها أن نبدأ ثاني يوم وصولها، ببرنامج ظريف: نتناول إفطارنا في مقهى «الروستند» المطلّ على اللوكسمبورغ. ومن هناك ننطلق بالحافلة ذات الرقم ٨٢. فهذه تتيح لركّابها الفرجة على أجمل شوارع باريس، بكلفة قليلة، وجهد أقلّ منها. كنت دأبت على ركوبها في طريقي من بيت الطالبات في ٩٣ بولفار سان ميشال، إلى بيت أخي الكائن خلف مستديرة الشانزيليزيه. الحافلة تمرّ بأكثر المناطق الباريسيّة أناقة، من السان ميشال، السان جيرمان، إلى الضفّة الأخرى الشماليّة من المدينة. الرحلة على خطّ الحافلة ٨٢ ممتعة في حدّ ذاتها، وقد جعلها أحد مخرجي السينما موضوعاً لفيلم ترفيهيّ. لو كنت أملك المال أو مقوّمات الفنّ السابع، لأخرجت فيلماً أنا أيضاً، بعد رحلتي تلك مع عليا، ومن وحي الحادثة.

في طريق العودة، توقّفت بنا الحافلة في محطّة «سان جرمان». كان في انتظارها مجموعة غيرْ قليلة من السيّدات المسنّات الأنيقات.

حين بدأنا بالصعود، لفتني أنّ كلّاً منهنّ تضع على ياقتها «زرّاً»، هو نفسه الذي تضعه الأخريات. من الواضح أنّهنّ عضوات في جمعيّة اختارت الزرّ علامة مميّزة لأعضائها. وإذ بدأن بالصعود، وكما تقتضي الآداب، وقفنا نحن الشابّات والشبّان، وأجلسنا كبيرات السنّ. في مرورها بجانبي، أمسكت إحداهنّ بطرف السترة التي ألبسها وصاحت بانفعال كبير:

«أنظرن...أنظرن...

يا إلهي!

أليست هذه السترة المخطّطة نفسها التي كنّا نلبسهاآنذاك؟ الألوان والخطوط نفسها، أليس كذلك ؟!».

نظرت السيّدات إلى السترة، وانتقل الانفعال إليهنّ. انفعالات غريبة تصيب بعضهنّ بضيق شديد، والبعض الآخر بفرح يشبه فرح المعتوهين. كبراهنّ سنّاً ومقاماً، بدت غير راغبة على الإطلاق بتذكّر تلك الحقبة البغيضة من حياتها. لكن، مَن أمسكت بسترتي كانت ما تزال واقفة قربي، وعيناها تبرقان، لكأنّها أخبرت البارحة بالنبأ الذي يستحيل تصديقه: خروجها من مخيّمات التصفية النازيّة!

ولمعت في رأسي فكرة: مناسبة جيّدة لتبادل الحقائق، كما قال الشابّ برنارد. «حين يلتقي الناس، لعلّهم يجدون فرصة للمعرفة خارج زيف وسائل الإعلام».

كانت عليا تراقب ما يجري لأنّ عقبة اللغة لم تساعدها على التكهّن بخلفيّة الموضوع. لخّصت لها الموقف، فبدت متحمّسة لما سيجري. أخذت نفساً عميقاً، كما لو كنت أستعدّ لتصوير الفيلم.

في دربها نحو المحطّة الأخيرة عند حديقة اللوكسمبورغ، تبدأ الحافلة «بتخفيف حمولتها». كلّ ينزل في المحطّة غايته. هكذا تيسّر لي أن أجلس مجدّداً قبالة السيّدة صاحبة الهتاف «هذا هو الزيّ... هذا هو الزيّ»! ابتسمت وقلت لها:

- يا للمصادفات وترّهاتها... للجاكيت المقلّمة هذه أكثر من حكاية...

ألقت السيدة بنظرة استغراب، ووقفت أنا موجّهة كلامي هذه المرّة إلى الأخريات:

- يا لترّهات التاريخ!

إلتفت ركّاب الحافلة صوبنا.

- تصوّروا، قلت، كم هو غريب التاريخ. أنظروا إلى هذه السيّدة! فلسطينيّة من حيفا. إسمها عليا. منذ ثلاثين عاماً قتل الصهاينة أقاربها وطردوا بقيّة الناس من بلادهم. يوم هربوا فقدت أخاها. كان طفلاً في الثالثة.

كما مبشّر في القطار يدعو للمسيح أو بوذا، وقفت أنا أحكي وأصف مقتل العمّ، وأحكي حكاية عبدالله الضائع: «هو أيضاً كان يلبس كنزة مخطّطة بالكحليّ والرماديّ مثل سترتي هذه. ما زلنا

نبحث عنه. ولعلّه في فلسطين، في مدينته التي ولد فيها، حيفا. فإن كان لديكم وسيلة للعثور عليه فنرجو منكم أن تساعدونا».

لسماعها ذلك، أجهشت عليا بالبكاء!

حرارة دموعها، «طزاجة» الموقف، وعفويّة اللقاء، كلّها تؤكّد للحاضرين أصالة الحكاية.

ساد صمت داخل الحافلة! الكلّ يصغي للحكاية المؤثّرة، ويلقي نظرة تعطّف على عليا.

«يا إلهي كم هذا غريب»! تمتمت إحدى الراكبات!

وتبعها آخرون. ومكان الصمت بدأت التعليقات:

«يا إلهي شيء لا يصدّق»...

وكرّت:

«يا لويلات الحروب»...

- نعم أيّها السادة، ما زلنا نبحث عن عبدالله الضائع.

أنا وأخته وأسرته، ما زلنا نبحث... فهلّا تمدّون لنا يد المساعدة؟

لا جواب سوى ضيق لا حدّ له، على وجوه سيّدات الجمعيّة. لو كان في وسع «الرئيسة» أن تنهض وتضرب زميلتها التي أشعل تعليقها حول «الزيّ» نار الموضوع، لما قصّرت!

قبيل المحطّة التالية بدأن يتهيّأن للنزول. وأنا أرجو منهنّ أن

يحكين هذه القصّة للأولاد والحفداء، كلّما تذكّرن مخيّمات التصفية، وألّا ينسين حكاية الفلسطينيّين وعبدالله.

في نزولهنّ، كنت ألوّح لكلّ منهنّ بكفّي وأكرّر: أرجو منكم أن تساعدونا. هذا عنواني. والقصّة سأنشرها عمّا قريب. يمكنكم شراؤها وتوزيعها ليتعرّف الناس الحقائق.

نزلن. لم تلتفت أيّ منهنّ وراءها. تابعت الحافلة تقدّمها بنا باتّجاه المحطّة الأخيرة في اللكسمبورغ. كان الركّاب قد أصبحوا قلّة. تقدّمت منّي شابّة وقالت باضطراب، وكأنّها تحكي لكاهن أسراراً على كرسيّ الاعتراف:

- لفتني يا سيّدتي ما جرى. لكن هناك مسألة لم أفهمها؟

- ما هي؟

- ماذا قصدت بالقول إنّ الصهاينة يستغلّون اليهود. وأنا لو لم أكن يهوديّة لما سألت. أمضيت سنة تطوّع في الكيبوتز، وأفكّر في الهجرة إلى إسرائيل... أريد أن أعرف، ما الفرق بين الصهاينة واليهود؟

- الفرق ؟

- نعم!

- تماماً مثل الفرق بين النازيّة والألمان.

* * *

نهايات موقّتة

موقّتة بطبيعتها. «فالختام» ليس من صفات الذكريات. فهذه بحر. لم يكن لك يد في الدخول إليه، كما ليس في طوعك الخروج منه. فالذكريات، وإن كانت تعنيك، إلّا أنّها ليست ملكك. لا أحد يملكها. وليس في طوعنا سوى الإضافات. إنّها عالم، شاءت الأقدار أن يكون لنا فيه مرقد. أن نتسلّم فيه مكنونات من جاء قبلنا، ريثما نُسلّم.

منذ اللحظة التي نخرج فيها إلى الدنيا، صارخين تلك الصرخة التي تحمل من الألم قدر ما تحمل من الرغبة في الحياة... سيتأكّد لمن حولنا أنّ ذكريات جديدة بدأت، وأنّ القادم سيتسلّم يوماً حرّيّته: القدرة على الاستذكار، ومسؤوليّتها. حرّيّة... ولكنّها مشدودة الطرفين إلى المستحيل. فأعظم لحظات حياتنا «تستحيل» علينا: لحظة الولادة ولحظة الموت:

يدغدغ غرورنا أن يتحدّث الآخرون بالأولى! على أنّ الثانية ستبقى طيّ الغامض والمجهول، المنبع الأصليّ للألم. ستبني الأهرامات... ستعمّر سور الصين... أو اللوفر، أو تكتب المؤلّفات... ستطالب بأن تحرق جثّتك... لا فائدة، فلن تمسك بلحظة المجهول. هذه، لا نحن نملكها، ولا أحد من بعدنا سيتمكّن من استذكار ها. هكذا شأن الذكريات، أن تبدأ في المتخيّل، وتنتهي به. قد يحلو أن ندوّن منها انطباعات ووقائع، أو نغفل البعض الآخر، أو نؤجّل... كما حدث بالنسبة إلى ذكرياتي في أحداث كثيرة وأشخاص عديدين، ومن بينهم الشابّة الفرنسيّة كاترين. كنت أضع اللمسات الأخيرة لهذا الجزء من «مذكّرات امرأة شيعيّة» حين عاودت الاتّصال بي. كان البريد الإلكترونيّ قد ألغى الحدود التي تباعد بين الناس، فتلقّيت رسالة من كاترين بلغة عربيّة فصيحة.

في لقائنا الطويل في أحد المقاهي المطلّة على صخرة الروشة في بيروت، ستحكي لي وتستفيض، أشياء وأشياء... أعادني بعضها إلى الفترة التي قضيناها معاً في اليمن، وشرّع بعضها الآخر النوافذ على حكايات أخرى «مثيرة»، كان يصعب عليها هي نفسها، إبّان شغفها الأنتروبولوجيّ بالغرائب، أن تتصوّر حدوثها.

وقالت، لديها الكثير... فإن كنت لم أنشر مؤلّفي بعد، فلأتريّث».

قدّرت كاترين موقفي؛ فقد حدّد لي الناشر مهلة، والقارئ - إذا



ما حالفني الحظّ وقرأ - قد ينتظر تتمّة ما بدأت مع آخرين: عبدالله الفلسطينيّ... عمّي «وهبي»... أبي... وأنا طبعاً من بين هؤلاء.

وقد ينتظر تغيّرات أخرى فيّ، تتحدّث عن هذه المنطقة «المشاغبة» من الدنيا. منطقة لا تكلّ ولا تهدأ، ولا يغمض الآخرون أعينهم عمّا يدور فيها، أو يتوقّع أن...

سميرة، إحدى الصديقات اليساريّات اللواتي غادرن لبنان خلال الحرب، كتبت لي من أميركا لتطمئنّ إلى حالي، ولا سيّما أنّها قد بلغها أنّ الحجاب في جنوب لبنان صار ملزماً، وأنّ هناك خطر أن يغدو كذلك في كلّ مكان.

وأضافت أنّها ستبقى على عهدها بالنسبة إلى صداقتنا ومحبّتنا، «حتّى لو، يا رجا ... لبستِ الشادور».

طمأنتها إلى أنّي لن أفعل على أنّ رسالتها جعلتني أستعيد ما حدث..

في عودتي من فرنسا إلى بيروت، في الثمانينيّات، كان لديّ موعد في مبنى الجامعة التي درسنا فيها (الأونسكو) وملأنا أرضها بالتظاهرات. في خروجي من الموعد، لفتني ذاك المشهد: ثلاث فتيات يرتدين الزيّ الأسود القديم الذي كانت جدّتي وعمّاتي في صور يلبسنه، عندما فتحت عينيّ على النوّر!

الشابّات كنّ يتمازحن ويتضاحكن. أدهشتني المفاجأة قبل أن أفترض أنّ ما أراه لا يعدو كونه مشهداً من فيلم يصوّر حياة المدينة في مطلع القرن العشرين، وأنّ الممثّلات يأخذن استراحة يتابعن بعدها التصوير الذي سأكون شاهدة عليه، ما إن يقول المخرج «أكشين».

وقفت أنتظر.

لكن ما لبثت الفتيات أن انصرفن. لا كاميرات، لا مخرج ولا تصوير. ثمّ شرحت لي صديقة لم تغادر لبنان، أشياء عن «التغيّرات» التي تحدث...

ما لفتني آنذاك ليس فقط «عودة الزيّ» بل سلوك المتزيّيات به، تعبيرهنّ الحركيّ، لغة الجسد التي تستخدمها هؤلاء الفتيات...

من ضحك ومعابثة... تلحق الواحدة منهنّ بالأخرى لتنزع منها ملفّاً أو كرّاسة... معابثة يبدون فيها متحرّرات من أثقال كثيرة كانت تنوء بها مثيلاتهنّ اللواتي سبقنهنّ إلى لبس الزيّ نفسه، بأكثر من نصف قرن. حركات أبعد ما تكون عن «الحشمة» القديمة والجمود المبالغ به في التعبير «الحريميّ». لم تكن هؤلاء من «الحريم»، بل فتيات حديثات مثل قريناتهنّ، لابسات الجينز. كانت جدّات هؤلاء، «حريماً» بالمعنى التقليديّ. في سيرهنّ في الطريق العامّ يشبكن أذرعهنّ تحت الكاب، ويسرن سيراً رصيناً نمطيّاً، مستخدمات الحدّ الأدنى من الحركة اللازمة للسير. لولا ذلك لقلت: يتحرّكن في أماكنهنّ. إذا ما لقيت الواحدة منهنّ الأخرى، فلن تندفع إليها اندفاع هؤلاء الشابّات، بل ستقترب منها بتؤدة. تلتفت إلى هذه الناحية وتلك، وحين يتأكّد لها أنّ الشارع يخلو من رجل، تتاح لها فرصة «السلام الآمن». إذّاك فقط، كانت سترفع منديلها لتخاطب زميلتها «وجهاً لوجه». لن تلبث تلك «الحرمة» أن ترمي المنديل على وجهها، وتتابع سيرها النمطيّ المحتشم.

كان لهذا الزيّ سلوك ملازم له. كان هو وزمنه واحداً. اللغة «في المشهد» غير تلك، والإناث هؤلاء غير أولئك. الزيّ هو نفسه، لكنّ مضمونه تغيّر.

في رسالتي إلى الصديقة التي اغتربت طويلاً، تمنّيت عليها زيارة لبنان، ولو لفترة وجيزة. فما يحدث فيه (نموذج حادّ لما يحدث في

المنطفة بأسرها) يستدعي شهادة أيّ مهتمّ بتقلّب المجتمعات. لو جاءت فستقع على تناقضات قد يعجز الخيال عن تصوّر حدوثها:

إلى جانب الحجاب بالإيشارب والشادور، يشتدّ تيّار «الغواية» بصورة تبدو في كثير من الأحيان كاريكاتوريّة أو حتّى منفّرة. في هذا التيّار، خرجت صدور الإناث من حاملاتها، وبات لا يغطّى منها سوى دائرة اللون. مرّت بقربي سيّدة شابّة، حامل على الأرجح، في الشهور الأخيرة... الجينز الذي ينزل إلى ما تحت الوسط، والقميص الذي يرتفع إلى ما فوق المعدة يظهران كامل بطنها المنفوخ، عارياً.

ما مغزى ذلك؟

ما فائدته؟

ما جماليّاته؟!

سألت فقيل لي: الموضة الآن هي البطن العاري، وجماليّته أن يكون منفوخاً. في حقيقة الأمر، أصابني إشفاق على هذا المولود، أو المولودة، التي تتهيّأ لتغدو طفلة لأمّ أصابتها لوثة الموضة بالتعرّي.

حين أتفرّج على صور أخذت لنا في السبعينيّات، يبدو لي الميني جوب، لجهة الأنوثة، مناقضاً لرسالته الظاهرة، أي الغواية التي تعزّزها اليوم ملابس باربي. فعلى رغم جرأة الزيّ، كان يحوّل المرأة إلى فتاة صغيرة نحيلة وملساء الصدر، منزلة ما بين الصبيان

والبنات، فيما تبالغ الموضة اليوم في إبراز مفاتن الأنثى، وتتدخّل عمليّات التجميل، لترميم النواقص من خلال حشو الصدر والأرداف ورفعها؛ هذا عدا نفخ الشفتين. وتأتي الملابس الحريريّة والجرسيه، لتلتصق بالقوام وتبرز انحناءاته ومفاتنه، مؤكّدة أنّ الأنوثة اليوم صارت مشتهاة في صورتها المفرطة في الغواية والتصنّع!

وصارت بعض المطربات اللواتي اشتهرن بالجمال الغاوي، النموذج الذي يحتذى. هنا أيضا حدثت تغيّرات: المطربات في السابق، كنّ يقفن بشموخ واعتزاز، للغناء أو للصورة. اليوم، الغالبيّة منهنّ يتصوّرن شبه مستلقيات، أو مستلقيات في وضع أفقيّ!

على الأوتستراد الممتدّ بين بيروت وصور، تطالع المسافرين ملصقات عملاقة لعارضات «مسطّحات» بفساتين ضيّقة أو ملابس داخليّة أو جينز لاصق، كما لو كان من البويا... طوال رحلتك تطالعك مثل هذه الملصقات جنباً إلى جنب مع إعلانات المدارس والجامعات وجمعيّات الحفاظ على الطفولة والبيئة، مع صور المرشّحين للانتخابات ومن فاز بها، جنباً إلى جنب مع صور رجال الدين في الجبّة والعمامة واللحى والنظرات الوقورة. وبالتأكيد، جنباً إلى جنب مع شهداء المقاومة وشهيداتها، المحجّبات منهنّ وغير المحجّبات.

لكم أنت ثمين أيّها الجسد. أغلى ما تملكه المرأة. وعليه، لا بدّ إمّا من تغطيته كاملاً، منعاً للغواية، أو التباهي بعرضه تحقيقاً لها.

ثمين لتعرض، وثمين لتغلّف بما يشبه الكفن.

عزيزتي سميرة،

ليتك تكونين شاهدة مباشرة. ليس لعودة الحجاب الذي خلعته «المرأة الجديدة» مغزى واحد. «إيشارب» اليوم دالّ كثيف المعاني. رمز خرجت به النساء في الجنوب، هاتفة بوجه المحتلّ الإسرائيليّ: الله أكبر. وعودته تعبّر بامتياز عن المأزق الحضاريّ السياسيّ الذي يعصف بالبلاد فيجعلها مهدّدة في قيمها وثقافتها وكيانها. مشهد الأزياء اليوم يحاكي المشهد السياسيّ لحدّ بعيد. هكذا، دول الأقطاب تصدّر العري، ودول الأطراف تصدّر الحجاب.

أثناء كتابتي مقالاً في هذا الصدد، وصلتني رسالة بالبريد الإلكترونيّ، من ناشطة «كنديّة» لا تخفي حزنها على لابسات الإيشارب، ولا خوفها ولا كرهها له. في مستهلّ رسالتها تخاطب «هؤلاء» المحجّبات بالحسنى. تؤاسيهنّ بالقول إنّها هي أيضاً كانت في مطلع شبابها مقهورة من رموز السلطة! لم يخطر لهذه الناشطة أنّ هؤلاء أو غالبيّتهنّ على الأقلّ، قد اخترن الإيشارب طواعية.

على أنّ حدسها لن يلبث أن ينبّهها إلى هذا المغزى، فتسارع إلى تبديل لهجتها. وبالموعظة التي تسوقها بكلمات «مفحمة»، تذكّر هؤلاء المحجّبات «بأنّ الإنسان وحده، من دون الحيوانات الأخرى، غطّى رأس أنثاه». وهي، حين «تراهنّ» في مدارس كندا،

تخاف على أبناء «وطنها»، خوفاً يفقدها التسامح.

كتبت للناشطة الكنديّة رسالة جوابيّة تقول:

قرأت رسالتك وفهمت وجهة نظرك؛ على رغم الاختلاف، لدينا أنت وأنا تاريخ نضاليّ مشترك. فأنا يساريّة مؤمنة وكاشفة. وأنا أيضاً مسلمة، ومثلك أتساءل عن مغزى الحجاب. ولي في شأنه وجهة نظر خاصّة. أريد أن أطمئنك إلى أنّ لابسات الإيشارب لا يقمن بهذا قسراً، ولا يشعرن بانتقاص في حرّيّتهنّ بسببه. قد تستغربين لو قلت لك إنّ نقيض ما تظنّين، في رأيهنّ هو الصحيح. غالبيّة هؤلاء تشعر في نفسها أنّها أكثر حرّيّة من الكاشفات. فمسألة الستر والعري وعلاقتها بالحرّيّة، مسألة تبدو اليوم نسبيّة وملتبسة. ذكرت لي إحدى الرائدات في العمل النسائيّ، وهي محجّبة، أنّها حين ترى القاصرات وغير القاصرات، يعرضن صورهنّ ومفاتنهنّ في ملصقات الشوارع ومحطّات المترو والحافلات، وعلى شاشات التلفزيون، ترويجاً لحمّالات الصدر والملابس الداخليّة... تشفق عليهنّ. ترى في هذا «العمل» عبوديّة ومتاجرة.

متاجرة بأجسادهنّ وأرواحهنّ لمصلحة «أغراض السوق» ومكاسب الشركات. وأنا أشاطرها الرأي. أرى في هذه الظاهرة شكلاً من أشكال الدعارة التي يجب التصدّي لها وتحرير الشابّات من طغيانها. لذا أقترح عليك أن نخصّص مواقع إلكترونيّة لمحاربتها، مثل التي خصّصتها أنت لمسألة الحجاب.

تشعرين بالتهديد من انتشاره؟!

إذا ما كان الحجاب قد سبّب لك هذا القدر من الخوف، فما بالك باستغلال الأنوثة وتدمير سعادة صاحباتها؟

وإذا ما سلبك «الإيشارب»، كما تقولين، روح التسامح، فما شكل التسامح الذي تتوقّعينه من الشعوب «الأخرى»، التي تغزوها جيوشكم، تدمّر بناها وتقتل أبناءها، وتستخدم «خلسة» وعلانية أسلحة الدمار الشامل، فيما صحافتكم تسكت أقلامها عن ذاك الغزو، وتتكتّم على «النوويّ والكيميائي»، وهي «بالخطّ العريض» تتحدّث عن سلبيّات الحجاب، وقد يكون شعارها «: وحده الإنسان، دون سائر الحيوانات الأخرى، غطّى رأس أنثاه؟!»

نعم. ووحده، دون سائر الحيوانات، تاجر بجسدها.

وحده فقط ابتكر الأسلحة التي من شأنها تدمير أرض احتضنت الأنواع ملايين السنين، ومن بينها نوعنا نحن، أبناء «الإنسان العاقل» وبناته.

وحده دون سائر الحيوانات!

* * *

مصطفى الأرمنيّ

في زيارتها التي تخلّلها ذاك اللقاء الفريد في الحافلة للجمعيّة اليهوديّة، حكت لي عليا تفاصيل جديدة عن أخيها الضائع. حقبة جديدة من حياته كانت في علم الغيب وانكشفت. لكنّ التتمّة لم تعرف بعد! كانت ما تزال في علم الغيب. وحده مسؤول في منظمة التحرير الفلسطينيّة، سيلمّ ببعض تفاصيلها، ليبقى البعض الآخر مغفلاً.

واقعة ١٩٤٨،

من ميناء حيفا في فلسطين، انطلقت سفينة هاربة باتّجاه الساحل اللبنانيّ، حاملة معها فارّين من مجازر الصهاينة، ومن بين هؤلاء خوسروف الأرمنيّ وعائلته. كان الجيل السابق من هذه، قد فرّ من أرمينيا إلى «بلاد الشام»، هرباً من المذابح التي ذاع صيتها آنذاك

في أصقاع الأرض. الآن، ومذابح أخرى قد بدأت في وطنهم البديل، ستكون مخاوف هؤلاء مختلفة عن مخاوف الآخرين، وتوقّعاتهم أيضاً. سيصدّق خوسروف ما يرفض تصديقه الفلسطينيّون: هذا التهجير القسريّ لن يكون موقّتاً كما قيل لهم. قد يطول العمر كلّه. التجارب السابقة تحرمه من نعمة التفاؤل، وتلوّح له بتكرار المصير!

في هذا الدرب البحريّ إلى بيروت، وفي تلك الظروف غير المتوقّعة، كان قد ركب في السفينة، مع من ركب، طفل في الثالثة من عمره، لم يلتفت أحد لوجوده، لا إهمالاً بل انشغالاً بما يجري، أو ظنّاً أنّ الاهتمام به من شأن الآخرين. كان الطفل يجلس إلى جوار العائلة الأرمنيّة. خيّل لتلك أنّه ابن أحد الركّاب، كما خيّل لهؤلاء أنّه ابن العائلة الأرمنيّة. كان أفراد هذه، على رغم الهلع، يحافظون على سلوك شديد الأدب. والطفل أكثر من أيّ فرد من هذه الأسرة، بدا للآخرين مؤدّباً! لهول الصدمة تكوّم في مكانه، ولاذ بالصمت. يصغي من دون أن يصغي بالفعل، إلى الحكايات الغريبة التي يسمعها من حوله. يحاول أن يفهم مغزى أن يصعد إلى المركب الذي يبحر فيه مع هؤلاء الغرباء! هو الذي لم يسبق له ولا لأيّ أحد من أسرته أن ركب مركباً؟!

يتساءل ما الذي جعله يجلس قرب هؤلاء الناس الذين يحكون لغة غريبة عنه! من الإجابات، لا يتراءى له سوى المشهد الرهيب الذي كان منذ ساعات شاهداً عليه. هكذا، ولفرط الذعر والإنهاك، غطّ الصغير في النوم، والمشهد الفظيع رفيق خياله.

ما يبدو للطفل شديد الغموض، بدا لربّ الأسرة الأرمنيّة «خوسروف» واضحاً كعين الشمس! ولكنّه لا يجرؤ على البوح به لهؤلاء المساكين، جديدي العهد بالمذابح والتهجير:

من قُتل قد قُتل!

ومن هرب فمصيره التشرّد.

ما خلّفه هو، وهؤلاء والآخرون وراءهم، من ستوديو تصوير وبيوت، مزارع وبساتين أو دكاكين... سيحتلّه اليهود.

وهذه المرأة التي يخيّل لها، أنّها حين سترجع، ستخرج ما خبّأت تحت البلاطة... لن تفعل. ما خبّأته سيغدو نسياً منسيّاً شأن ما حرص الأرمن على إخفائه، قبل أن يغادروا أراضيهم إلى غير رجعة.

أمّا زرع الحديقة الذي حرص هذا العجوز المسكين على ريّه كي لا يصيبه اليباس... فلا أحد يعلم من سيستمتع بثماره!

وهو، خوسروف، على رغم تعطّفه على زوجة الرجل، يشعر بضيق إزاءها أشبه بالكره. يضيق بسذاجة الحكاية التي تكرّرها: اطمأنّت إلى سلامة الدجاجات والبطّ وديك الحبش وزوج الخراف. تركت لها طعاماً «يكفي أسبوعاً أو حتّى عشرة أيّام»!

اطمأنّت!

ولدهشته، وجد خوسروف نفسه يجهش بالبكاء! هو الذي

يوم وفاة والدته لم يبك! زوجته تحاول أن تهدّئ خاطره، وتعطيه منديلاً... في اللحظة نفسها التي وقع فيها بصرها على صبيّ نائم، طويل الأطراف، نحيل، أسمر البشرة!

خوسروف يعجز عن كتم انفعاله، فيما يسترجع في خياله ذاك المشهد:الهاربون يركضون، تسبقهم كلاب الأحياء التي بدت أشدّ هلعاً من أصحابها لهذا الفراق المباغت. كلاب كثيرة سبقت الفارّين إلى المرفأ أو الساحات، ولم تتمكّن من ركوب الحافلات والسفن التي أقلّت البشر.

وحدها الكلاب ستبقى!

«خوسروف» لا يبوح بفِكَرِه لزوجته.

وهذه، بعد أن تماسك زوجها، عادت إلى صمتها، تفرك كفّاً بآخر، تتململ في الزاوية التي تركن فيها وأسرتها. كان الزوجان في مثل عمر هذا الطفل حين تمكّن ذووهم من الفرار من مذابح «نهر أراكس» الذي يحكى أنّ ضفافه ظلّت فترة طويلة مبلّلة بدماء المذبوحين، مثيل المشهد الذي كان عبدالله شاهداً عليه. حين أفاق من النوم، لم يلتفت ليقظته أحد، مثلما لم يتنبّه أحد لنومه. عبدالله يستمع إلى الحكايات الغريبة التي يتناقلها الناس من حوله، يحدّق إلى البحر والشمس ووجوه الركّاب، موقناً أنّ كارثة تحدث لهم جميعاً. لا أحد تنبّه له سوى زوجة خوسروف التي صادف جلوسه

بجانبها. بعد ساعات، خطر لها احتمال أن يكون الطفل «وحيداً»، فبادرت إلى السؤال:

«لمن هذا الولد»؟!

تسأل الآخرين كما نفسها!

ولمّا لم تلق جواباً من أحد، ألقت السؤال على الصبيّ نفسه. سألته عن اسمه وأهله... فلم تلق منه سوى نظرات حائرة وصمت. ولولا استجاباته لظنّته أخرس أو أخرق!

عبدالله، يحاول أن يتذكّر. يجيل بصره إلى هذه الناحية وتلك، وتعبير الهلع الذي يلازم تقاسيمه ينطق بما رآه منذ ساعات:

صفّ من رجال يقفون إلى الحائط، وحاملو رشّاشات من الناحية الأخرى يطلقون عليهم الرصاص. الرجال يسقطون على الأرض والدماء تسيل، ومن بين هؤلاء عمّه مصطفى!

السيّدة الغريبة تلحّ عليه بالأسئلة. مرّة بلغة فهمها، وأخرى بلغة لم يفهمها.

أخيراً، ولكثرة ما ألحّت عليه، خرج عن صمته ونطق باسم عمّه «مصطفى».

نعم، وجد نفسه ينطق بالاسم!

كان يتمنّى أن يحكيَ عن المشهد. عمّه يقع على الأرض،

الدم ينزف من جوانبه. الرجال جميعاً سقطوا وهم ينزفون، والساحة تحوّلت إلى بركة دم. يتمنّى أن يحكي، فالمشهد حاضر تماماً في ذهنه، ولكن يعوزه الكلام. فقط الاسم يحضره. هكذا صار كلّما سئل عن اسمه أو عن أيّ شيء يتعلّق بأصوله أجاب «مصطفى».

«قد تكون أسرة الطفل في المراكب التي ستلحق بهم»، فكّر بعض الركّاب. أو في المركب الذي سبقهم بقليل، فكّرت السيّدة. ولولا سرعة ذاك للحقوا به وسألوا ركّابه هل أحد منهم أضاع طفلاً يدعى مصطفى؟!

رجاء واحد يهتف به قلب هذه المرأة: أن لا تكون أسرة الطفل في المركب الذي يقال إنّه قد غرق بركّابه!

فليسألوا قائد المركب. وهذا ألقى على الصبيّ الأسئلة التي سبق له سماعها:

«اسم أبيك يا شاطر؟»

اسم أمّك؟

إخواتك؟

جدّك... عمّك؟

«مصطفى».

حين وصل المركب، كانت أعداد الجموع المنتظرة في مرفأ

بيروت تُجاوز أعداد المهاجرين إليها. ولمّا بدأ الركاب يتهافتون على النزول، لزمت عائلة خوسروف مكانها. ما زالت المرأة تأمل في أن يتقدّم أحد من الطفل ويأخذه.

لم يتقدّم أحد!

ووجدت نفسها تفعل. تمسك بيد الطفل وتنزل وعيناها تبحثان عن أحد يبحث بدوره عن ابن له يدعى مصطفى.

ولمّا لم يتقدّم أحد، لجأ ربّ الأسرة الأرمنيّة إلى القبطان الذي أجاب: «لا بدّ من تسليم الطفل إلى المخفر». ورجا من العائلة أن تفعل.

في المخفر طلبوا من خوسروف إبقاء الطفل موقّتاً لديه، لحين العثور على ذويه. لم يخطر له أنّ «هذا الموقّت» سيدوم عمراً بأكمله. فالظروف التي تتلاعب بمصائر الناس، ولا سيّما «المهجّرين» منهم، تدخّلت هذه المرّة، ليبقى الصبيّ مع الأمّ الغريبة التي عثرت عليه.

وهذه ترجو منه أن يتذكّر..

أيّ شيء!

رجاء صار يقابل من الطفل المسكين بالصمت والضيق. فمن شأن ما شاهد أن ينسيه، لا اللغة التي سبق وتكلّم، بل أن ينسيه نفسه. وعندما تابعت الأسرة مسيرتها إلى حلب، كان عبدالله قد نسي جميع مفردات اللغة التي تشرّبها منذ نعومة أظافره. كلّها غارت في منطقة

سوداء من ذهنه، سوداء وموصدة على كلّ منافذ الذاكرة. هكذا التحق بالأسرة التي ساقته الظروف إليها، وبدأ يتعلّم لغة أخرى، ويبني شخصيّة جديدة باسم عمّه مصطفى.

مرّت شهور طويلة قبل أن يخبر الطفل أمّه بالتبنّي، بالذكرى الوحيدة التي تلوح في خاطره: مثل طيف، يتراءى له رجل يمسك بيده ويصعده المركب.

«كيف هو»؟

رجل طويل، طويل جدّاً أصعده المركب. قال له «يا شاطر خلّيك مع الناس بالمركب». ما عدا ذلك، لا يذكر شيئاً بعد ذلك، سوى عمّو خوسروف واقفاً في طرف السفينة، يسأل هل أحد من الحاضرين يعرف هذا الطفل ؟!

ويشير إليه!

حين كبر عبدالله وبدأ يبلور فِكَرَهُ، تمكّن من القول بالأرمنيّة إنّ اللحظة الرهيبة هي التي وقف فيها عمّه خوسروف يسأل الحاضرين هل أحد منهم يعرف شيئاً عن هذا الولد «الضائع». وعلى رغم حبّه عمّه خوسروف، كان كلّما تذكّر وقفته وإشارته، كرهه. خصوصاً أنّ الحاضرين صاروا، بدورهم، يتساءلون عن هويّة ذاك الولد «الضائع».

ولد ضائع... يردّدون. ولد ضائع.

* * *

منذ أن يئست من تَعرُّف أهله، تأكّد لزوجة خوسروف أنّ الطفل ضائع حقّاً، وأنّ مصيره سيغدو كمصير أطفال كثيرين من الأرمن، يحكى أنّهم، في حمّى الفوضى والذعر، فُقدوا إلى غير رجعة. ودهمها إحساس غريب بأنّها معنيّة به، فقرّرت أن لا تتركه إلّا إذا عثرت على ذويه وسلّمته إليهم يداً بيد. ستبدأ البحث حال أن يستقرّوا في مكان...

هكذا... في الفترة التي كانت العائلة الفلسطينيّة في «صور» تبحث عن ولدها، كانت الأسرة الأرمنيّة في بيروت تبحث عن ذوي طفل يدعى مصطفى، فرّقته ظروف التهجير عن أهله. وقد خطر لأسرة خوسروف أن ترسل من يدور في المخيّمات، بحثاً عن ذوي الطفل. على أنّ ظروف االتهجير التي اضطرّتها إلى السفر إلى حلب، عرقلت مسعى الخير الذي بدأته. ولمّا عادت ثانية إلى لبنان، ما إن سمعت بإحصاء «اللاجئين»، كانت فكرة البحث قد وهنت، وصار يخامر الأمّ شعور بأنّ مثل هذا البحث المتأخّر يتضمّن تخلّياً صعباً عن هذا الصبيّ الذي بدأ يتعلّق بها وتتعلّق به.

بدأ إحصاء من سمّوا «باللاجئين» الفلسطينيّين، وقرّرت الأسرة الكريمة تسجيل «مصطفى» باسمها. الأمر سيدهش المكلّفين بالتسجيل دهشة ما بعدها دهشة!

كيف يكون الصبيّ أرمنيّاً ومصطفى في آن معاً؟!

الجواب حاضر لدى الأمّ. الطفل «منذور» أجابت. «نذر» أخذته على نفسها. كان على شفير الموت، فدعت ربّها إن هو «سمح لها به»، أن تسمّيه «مصطفى».

إرتضت العائلة الأرمنيّة بمسؤوليّتها. أحبّت الطفل وصارت ترعاه رعايتها أولادها من دون أن تخفي عنه حقيقة أصوله.كانت حين تُسأل تحكي القصّة بحذافيرها، لعلّها، من الأفواه للآذان، تصل إلى أصحابها، ويكتشف الفاقدون طفلهم. كان ذلك قبل أن يذهب الصبي إلى المدرسة التي يجب عليه ارتيادها.

بحسب الأخلاقيّات، وجدت أسرته الجديدة أنّ طفلاً يدعى مصطفى لا بدّ أن ينشأ على دين ذويه. هكذا، في بيروت، أخذته أمّه بالتبنّي إلى مدرسة حكوميّة، لعلّه يتعلّم كما كلّ تلميذ فيها، أصول ديانته.هكذا اقتسم البسطاء رعاية الصغير، رعاية ستبني له هويّة جديدة جعلت منه مسلماً مسيحيّاً في آن معاً، عربيّاً أرمنيّاً من فلسطين.

عبدالله، لا يتذكّر بالتحديد متى، لأوّل مرّة، سمع بحكايته. ما يعرفه أنّها بدأت مع الهجرة. مذّاك وهو يسمع بها متقطّعة من أفواه الأسرة، ومن أسئلة مَن حوله. لاحظ أنّ العائلة، بمرور الوقت صارت تداري شعوره، وكفّت عن تكرار الحكاية التي تزعجه بلا فائدة، بقدر ما تثير فضول السامعين.

يعرف بالعقل أنها حكايته، ولكنّه لا يصدّقها.

كأنّها تخصّ طفلاً آخر! طفلاً قريباً منه، ويفرط في الشفقة عليه، ولكنّه لا يصدّق أنّه هو نفسه ذاك الطفل. حكاية ضياع ينفطر لها القلب، حدثت لصغير آخر غدا رفيق حياته. كان يعبد أهله الأرمن، ويشاركهم في كره إسرائيل. ولكنّه يعرف، وأهله أيضاً، أنّ غضبه يُجاوز بكثير غضب الآخرين. ولمّا صار يسمع بالثأر من الصهاينة، تأكّد له أنّه هو، أكثر من أيّ شخص آخر، معنيّ بهذا الثأر.

* * *



إسمك عبد الله

إلى أحد مكاتب منظّمة التحرير في بيروت، تقدّم شابّ ملتبس الهويّة، طالباً إلى المنظّمة أن تساعده على البحث عن أهل أضاعهم وأضاعوه إبّان الهجرة. الطلب، على غرابته، لم يكن في غير مكانه، وللمنظّمة شبكات اتّصال واسعة أينما «لجأ» الفلسطينيّون. ولها باع طويل في إحصاء مواطنيها، واطّلاع دقيق على أوضاعهم، وعلى كلّ شاردة وواردة تجري في أماكن وجودهم، إلى حين أن يستعيدوا وطنهم، فالمنظّمة هي المرجع.

على رغم ذلك، بدت حكاية الشابّ الأرمنيّ غريبة! مثيرة للشكوك! فالأطراف التي تتربّص بالمقاومة الفلسطينيّة أكثر من أن تُحصى، وعلى رأسها بالتأكيد، الموساد.

ماذا لو كان «طالب الثأر هذا» عميلاً لها؟!

بدأ البحث عن الحقيقة، وبدأت في السرّ مراقبة المتطوّع للثأر.

طُلب إليه مرّات ومرّات أن يخضع لاستجواب، فأبدى طيّب استعداد بلا تأفّف، وكلّ سؤال يفتح نافذة على الأمل!

كان يمكن لبحث مثل هذا أن يطول... لولا أنّ شابّة مناضلة تقوم بأنشطة جمّة بين سكّان المخيّمات، وأخرى في مكان دراستها لندن... كانت قد فتحت لدى المنظّمة ملفّاً للبحث عن أخيها المفقود. وها هو «الأخ» بنفسه قد حضر! يومذاك قال له المسؤول: عائلتك الآن نحن، لحين العثور على أهلك. المنظّمة هي عائلة كلّ فلسطينيّ. لكن علينا أن نتحقّق».

لن يطول انتظار الشابّ. إستدعاه مسؤول عالي الشأن، وأخبره بأهمّ ما يرغب إنسان في الدنيا معرفته: اسمه الحقيقيّ.

صافحه وضحك ضحكة جلجلت في فضاء الغرفة:

- إسمك عبدالله !

مولود في حيفا، في شهر حزيران من العام ١٩٤٥

إسم أبيك لطفي

وأمّك عائشة

وهذه صورة عن وثيقة ولادتك.

أمسك الشابّ بالوثيقة: إسمه إلى جانب أسماء إخوته! تحت اسم أمّه وأبيه!

عرف أنّ أباه قد مات.

- وأمّي؟

- حيّة ترزق، وتأمل العثور عليك. أخوتك كلّهم يأملون. لديك أخت شجاعة، تتولّى البحث الدؤوب عنك. ستقابلها عمّا قريب. إسمها علياء.

علياء تكبره بسنتين، وتشبهه لحدّ كبير.

غريب

مثل طيف في منام، يتراءى له مشهد ظنّه لفترة طويلة من الأوهام: فتاة تكبره بقليل، تمسك بيده ويعبران شارعاً ضيّقاً باتّجاه بيت ما، مدخله واطئ، وبابه من خشب مدهون بالأخضر...».

تنهّد.

دمعت عيناه.

بكى. ثمّ قال:

- أدفع حياتي مقابل أن أزور ذاك البيت...

والمسؤول من فوره أجاب:

عائلتك الكبرى تفتح لك الأبواب. ترحّب بك في صفوفها، مواطناً عاديّاً في لبنان، أو هناك في فلسطين... إذّاك ستتمكّن من الذهاب إلى البيت الذي ولدت فيه، في حيفا القديمة.

وفهم عبدالله مغزى الكلام...

سيذهب ولو بقي له في حياته يوم واحد.

اليوم قبل الغد.

* * *

الرقص على السفينة دوللي

ليلة قصّ عليه «وهبي» حكايته مع بهيّة، أفاق حميد في الكابينة، فلم يجد أخاه في سريره. لعلّه يسهر مع معاون القبطان وشلّته. وجد حميد نفسه غير راغب في النوم، فلبس ثيابه وراح إلى المكان الذي درجوا على ارتياده، فلم يلق غير البرتغاليّ «خورخي». أخبره هذا بأنّ «وهبي» يسهر تحت مع الشلّة.

- أين؟

- في «الدانسينغ هول». وحرّك «خورخي» جسمه بما يفي بالشرح.

«دانسينغ هول»، كرّر البرتغاليّ العبارة التي على وضوحها بدت لحميد ملتبسة. كان في ودّه أن يسأل ولو بالإشارة: وهل في الباخرة مرقص «دانسينغ»؟



وكان الآخر سيجيبه بالتأكيد: «وهل من باخرة تخلو اليوم من مرقص؟

نزل حميد باتّجاه المكان الذي أشار إليه «خورخي». لا تنقصه الفضوليّة لأن يرى مرقصاً والناس فيه يرقصون. لا يعرف هل الرقص لدى الأجانب يشبه الدبكة لدى أهل الشام وفلسطين، أو هزّ البطن الذي تتقنه الغوازي؟ دخل المكان. الظلمة تخيّم على جوانبه. أضواء الشموع تخفي أكثر ممّا تكشف. الحاضرون أطياف غالبيّتهم من الشبّان. عدد قليل من النساء جالسات هنا وهناك. لكنّ «وهبي» ليس بينهم.

حسنٌ!

وفكّر حميد: «هذا هو البار المخصّص للشراب الذي يسمع به،

وهؤلاء هم زبائنه: رجال يجلسون أو يقفون، حاملين الكؤوس يقرعها كلّ منهم بكأس جليسه. قبالة البار، في منتصف القاعة، دائرة يرقص فيها مجموعة من الشابّات والشبّان، والحاضرون يصفّقون.

ما لبث أن انسحب بعضهم، وبقي وسط الدائرة امرأة وشابّ، أشقر الشعر ينتعل حذاء بكعب عالٍ نسبيّاً، من الواضح أنّه مخصّص للرقص، ويلبس بنطلوناً ضيّق الساق، وسترة كان قد رأى مثيلها لدى أخيه «وهبي»، ذكر في حينه، أنّ اسمها «فراك»، «توكسيدو». سوداء مثل هذه، والقميص الأبيض لمّاع كما لو كان من الحرير. ياقته أماميّة نصفيّة فقط ومقلوبة. لم يكن حميد قبل سفره قد رأى مثيلها. الشابّ في رقصه يخبط أرض المرقص بعنفوان يشبه عنفوان الدبكة، لكن هذه ليست دبكة. الدبكة يرقصونها جماعة لا أزواجاً. يرقصونها في وضح النهار في ساحة القرية أو في الحقل.

الفتاة التي يراقصها الشابّ ترتدي تنّورة طويلة ضيّقة عند الخصر، وتنتهي أطرافها بكشاكش ودانتيل. حين تتحرّك، تلوح هذه لهذه الناحية وتلك أو تلتفّ حولها. لعلّها راقصة!

لا بل، بالتأكيد، إنّها كذلك، حتّى وإن لم يسبق له أن رأى رقصاً مثل هذا من قبل. ضربات حذاء الراقص بالأرض تحدث تكتكة خفيفة ناعمة، لا تلبث أن تقوى لينبعث منها صرير كما حذاء حصان.

في رقصها، تبدو الفتاة طوع إرادة الشابّ. خطواتها تُلازم

خطواته. يمسكها من ذراعها وخصرها، فتمتثل وتتمايل. يقرّبها حيناً، ويبعدها حيناً آخر، بخفّة لا يقدر عليها سوى الراقصين! يسحبها من يدها ويجعلها تدور حول نفسها وحوله، قبل أن تنسحب وتفكّ شباكها منه. وبدلال لا مثيل له، تنحني إلى الوراء وتعود لتعتدل واضعة رأسها على كتف الشابّ. الحاضرون يصفّقون.

«برافو»، يهتف بعضهم، وبعض آخر يصفّر إعجاباً، صفيراً حادّاً لا ريب في أنّه تدرّب كثيراً عليه!

الرقص هذا غير «هزّ الخصر» الذي تؤدّيه «الغوازي» في بلاد الشرق، فرادى كما يسمع، وأمام الرجال. لطالما في «العسكريّة» سمع الشبّان يهجسون «بالراقصة». وذات مرّة، وكان الشاويش يؤنّبهم، أكّد وجود هذه في خيالهم المنصرف عن التدريب! وبعد ذلك حدّثه صديق له بالسفر إلى حيفا، للتفرّج على راقصة «هزّ خصر». يقال إنهنّ يأتين من مصر أو من اسطنبول:

- «ما رأيك، وأنت صرت تعرف الدرب إلى فلسطين، ووالدك يسلّمك المال، أن نتقاسم تكاليف الرحلة، ونُمتّع أنفسنا بالتفرّج على الراقصات»؟

- أعوذ بالله! قال في حينه لصديقه!

بعد التصفيق وسكوت الموسيقى، ظنّ حميد أن وصلة الرقص

انتهت. لكن لا! ستعود الموسيقى أقوى ممّا كانت! ويبدأ الراقصان وصلة جديدة ذات إيقاع أسرع، وحركات أخفّ.

خفّة شياطين!

الناس أجناس... ولكلّ شعب لوثته!

وهذا مثل ذاك. الزار الذي يمقته أبوه ويعتبره لوثة، ستجد هنا من يقوم بمثيله! يقال، إنّ النساء في تلك الحلقات، تتطاير ملابسهنّ وتنفش شعورهن كما يتطاير شعر هذه الفتاة وتطير تنّورتها. الفراك يهتزّ حول خصر الشابّ، وشعر الفتاة ينزل على وجهها، فترفعه بكفّ وتمسك أطراف تنّورتها بالأخرى، وتقفز كاشفة عن ساقيها. سيرفع الشابّ ذراعه فوق رأسه، وفي أدائها المجنون، سترفع هي ساقها وتضع قدمها على خصر شريكها، لتكشف الحركة عن ملابسها الداخليّة!

يعلو التصفيق والصفير وهتافات الإعجاب.

«برافو»!

«إكسلّانت»!

فكّر في الانسحاب، بخاصّة أنّ المتحلّقين حول الراقصين كانوا في غالبيّتهم أطول قامة منه، وأوفر عدداً من أن يدعوه حقّاً يتفرّج. كاد ينسحب لولا أن باغتته فُكرة: الراقص هذا يشبه أخاه «وهبي»!

أيعقل أن يكون المستغرق فيه «وهبي»؟! دسّ نفسه بين المتجمهرين مقترباً من الحلبة، والشابّ المستغرق في الرقص لا يتنبّه قسماً، لوجوده. ولولا أنّه أطول قامة، لتأكّد له أنّه «وهبي». يا إلهي! قد يكون هو «وهبي»، بحذاء غير العاديّ، حذاء دقيق المقدّمة، عالي الكعب.

أيكون أخوه راقصاً يقتني الملابس المخصّصة للرقص، ويخفي عنه الأمر؟ الآن في رقصه بهذا الزيّ وبشعره الأشقر اللمّاع وعينيه العسليّتين وأناقته البالغة، يبدو أكثر من أيّ وقت مضى، ذاك الشابّ المدلّل الغاوي، المفتون بنفسه، كما يقول أبوه...

سيعرف فيما بعد أنّ هذه كانت مسابقة رقص، وأخوه من المشاركين فيها. وكان هو قد وصل فيما «وهبي» يؤدّي دوره، ولاستغراقه في إفتان الحاضرين، لم يره حين دخل. وعرف حميد أنّ الفتاة مدرّبة رقص، وأنّ على المشارك في المسابقة، بعد أن يرقص مع زميلة له، أن يراقصها لتختبر حسن أدائه وموهبته. هكذا، من بين المتنافسين وقع اختيارها عليه لينتخبوه أفضل راقص!

علّقوا نيشاناً على صدره!

تصفيق حادّ لبوب!

وقفل هو عائداً إلى الكابينة، حزيناً ويغلي بالغضب.

لـمَ الغضب؟ هل هو ضدّ الرقص؟

لا. لطالما كان يلوم أباه لأنّه، على رغم إعجابه بالدبكة، لم يتعلّمها. كان هو يحبّ الدبكة، وحين يذهب إلى قرية جدّته يحاول أن يرقصها مع الشبّان.

هل يلوم أخاه على خلاف ما كان يلوم به أباه؟

لا يدري!

في اليوم التالي، وفي خروجهما إلى سطح المركب والمطعم، سيتلقّى «وهبي» سيلاً من التهانئ. من عرفه ومن لم يعرفه سيهنّئه بالجائزة التي استحقّها لقاء رقصه الرائع! فيما «وهبي» يقابل الترحيب بمثيله، يلتفت نحو أخيه ويقول:

- إبتسم يا أخي! ما بالك «عبوساً قمطريرا»، كما يفعل أبوك ليداري ابتسامة يخشى أن تفضح إعجابه؟! أنت معجب بأخيك وبرقصه، اعترف! لو كان لديك حبّ للحياة، لسألتني أن أعلّمك الرقص.

ضحك حميد! قهقه بعصبيّة وقال:

- لم لا. لو رآنا حسين نعمة نرقص، فسيكون أسعد أب في الدنيا!

هكذا، وقبل وصوله إلى نيويورك، بات يتراءى لحميد ذاك

الاحتمال الصعب: أن تموت أمّه في حسرة ابنها البكر. وأن يغدو، هو الأصغر، الأخ الأكبر لأخيه.

أمّا «وهبي»، فسيتأكّد له أنّ أخاه لا يعدو كونه نسخة عن أبيه، عمل فارق الأجيال على تحسينها. الوجه وجه أمّه، والألوان والتعبير لأبيه. عين ناقدة ثاقبة تؤنّبك على ما لم ترتكبه بعد! نظراته نفسها نظرات أبيه، جاءت متأخّرة عقوداً، لتقف له بالمرصاد!

* * *

في بحثه المتفائل عن حلّ يوفّق بين الطموح والجموح، ويرضي المسافرين والمقيمين، عرض حميد على «وهبي» أن يذهبا، موقّتاً، إلى الوطن، يطمئنا الأهل إلى أحوالهما ثمّ يسافرا معاً إلى أفريقيا، حيث قرب المسافات لا يقطع الحبل بين المحبّين، وحيث أخبار الثروات التي يجنيها الناس، بدأت تصل من أعماق الأدغال.

- أفريقيا ليست «درب تسدّ لا تردّ»، قال لأخيه. أميركا مدفن مالها. أميركا تقطع الجذور. ما من مهاجر إليها عاد إلى وطنه. ومن فعل رجع صفر اليدين. كيف لا ومغريات التبذير تُجاوز أسباب التدبير؟

أخوه غاوي شقاء. يهرب من بؤس إلى بؤس أكبر منه.

- يا أخي، ما تدعوه مغريات تبذير هو بالنسبة إليّ الحياة بعينها!

«له الحقّ في أن يحيا مرفّهاً، ولكن...

ما ينفقه «وهبي» في عام يمكّنه من بناء منزل لوالديه في صور، مثل منازل البكوات. يمكّنه من فتح سوق من الدكاكين، مثل «سوق فرحات»، مثل السوق الذي رآه في حيفا في رحلته الشهيرة تلك. نعم، أميركا مدفن مالها، ولا سيّما لمن يتهوّر ويبذّر سلفاً ما ستجني يداه. و«وهبي»، كما فهم منه، غالباً ما يستدين من البنك، والناس في البلاد لم يسمعوا بالبنوك بعد».

- لست هنا من أجل المال فقط يا أخي، بل من أجل الحياة التي كنّا محرومين منها. لست أنا صاحب المثل القائل: القناعة كنز لا يفنى. ثمّ إنّي لست مفلساً.

منذ لقائهما في مرسيليا، أخبره أنّ لديه مطعماً يأتيه الموظّفون لتناول الغداء، أو بعد انصرافهم من العمل. وقرب المطعم فتح محلّاً لبيع أدوات الصيد.

- صيد الأسماك ؟

- والعصافير أيضاً.

يا إلهي!

في عالم التجارة هناك ألف نوع من السلع، فلم اختار أخوه

أسحلة الصيد؟ هناك في عالم الأشغال ألف مهنة، فلم اختار المقهى؟ ويريد منّي أن أشاركه... حسنٌ فليغيّر نوع العمل فنغدوَ شريكين.

- المتاجر هذه اشتريتها من شخص له صلة ببعض معارفي. وهو، على فكرة، من منطقتنا. هنا، من غير اليسير أن تغيّر نوع العمل الذي أخذت رخصة على أساسه. ثمّ... ما المشكلة بهذا الشغل يا أخي؟

- مثل هذا العمل لا يليق بنا نحن.

- وما العيب الذي سيلحق بنا بسببه؟

- تجارة سلاح؟ مقهى، يخدم الناس؟!

- لم لا ؟ الصيد هواية الذوات. محلّ أسلحة الصيد هذا جعلني صديقاً مميّزاً لخيرة الناس هنا. ولطالما رغب هؤلاء في أن أرافقهم في رحلاتهم. هذه ليست أسلحة للقتل.

- مهما يكن يا أخي، يبقى السلاح سلاحاً، والاتّجار به قد يؤدّي إلى المشاكل.

- لحدّ الآن لم يحدث أن تعرّضت لأيّ منها. إسمع! العمل هنا فضيلة تُجاوز كلّ العقبات. وأنت نفسك عملت في الباخرة، فهل اعترضت أنا على ذلك؟ قلت لك برافو. في أميركا، أيّ عمل مربح يثني عليه الناس.

- نعم، حين فعلت، كنت صبيّاً يريد أن يكسب مصروف جيبه، موقّتاً. الآن على أرض الواقع أريد أن أبني مستقبلي رجلاً. رجلاً يتمتّع بالاحترام، يعود إلى بلده مرفوع الرأس. يفتح متجراً، وربّما متاجر. ويؤسّس عائلة...

- ما من عمل شريف إلّا...

- حتماً، ولكن إن كان في مقدورنا القيام بما هو أفضل، فلم الإذعان لما هو أبخس؟!

- يا أخي، فهمت خوفك من السلاح... والمطعم؟!

لاذ حميد بالصمت. ألقى على أخيه نظرة لوم ثمّ قال:

- تعرف رأيي في الموضوع... إسمع، لا مانع لديّ من أن نخدم الناس، فالعمل كما تقول فضيلة. لكن أن نقدّم لهم الكحول؟! إبن حسين نعمة، حفيد طالب نعمة، يقدّم الكحول للآخرين؟!

- لم أكن أعلم أنك متديّن لهذا الحدّ!

- المسألة ليست مسألة تديّن. وقد شاركتك أحياناً في كأس بيرة. لكنّ الكحول تضعف إرادة الإنسان. تذهب بعقله. تذلّه. قد تجعله يقوم بأعمال مشينة. وفي أفضل الأحوال يبني أحلاماً في الهواء...

وقاطعه «وهبي» بغضب:

- عرفت قصدك! إن كان أخوك لم يتمكّن من جمع المال لحدّ الآن، فلأنّ الظروف التي تعاكس أبناءها لم ترحم. هناك... تظنّون أنّ الحرب ألحقت الضرر بالبلاد الفقيرة فقط. هنا فعلت الحرب فعلها أيضاً. توقّفت الأشغال. والناس، خوفاً من المجهول، صاروا يخبّئون أموالهم. من ناحيتي جئت بمال قليل كما تعلم.. عملت في المطابخ وإعداد الطعام. عملت حلّاقاً للشبّان الذين لا يأبهون كيف ستبدو رؤوسهم لدى خروجهم من دكّان الحلاقة. ثمّ استدنت لأغطّي تكاليف المقهى والمحلّ. تزوّجت وفتحت بيتاً، ولمّا جمعت بعض المال أرسلته إلى خالي رامز الذي موّل رحلتي، وأرسلت إلى الوالدة... ولم أوقف البحث عن آفاق أخرى. إسمع، لديّ مشروع مهمّ... لو مددت يدك لي ونجحنا، فسنحيا جميعاً حياة الملوك!

- وما هذا المشروع؟

- لا يسعني التحدّث به الآن. لديّ شركاء. هذه بلاد تفتح لك أبواب الفرص. يكفي أن تكون حذقاً وتعرف كيف تنتهزها.

أخيراً خرج «وهبي» عن صمته، وباح لأخيه بمشروع حياته. إن كان لم يباشر به بعد، فلأنّ الاستعدادات لم تكتمل. ولأنّ شركاءه يمهّدون الطريق. لو نجح... فأبواب النعيم ستفتح:

- «إسمع يا حميد. يعتقد بعض الناس أنّ أوان البحث عن الذهب قد فات. لكن لا. نهر «كيدينغو» في البرازيل، لا تسمعون به

هناك... ضفافه تفيض بالذهب. صيّادو الذهب كثيرون، لا تنقصهم الأدوات ولا الحيل بل الخلق الكريم. متعجرفون لا يخفون تكبّرهم على السكّان الأصليّين. هذه لو وجدت من يحسن معاملتها... من يعقد بينه وبينها روابط الإخاء والاحترام، فتحت له القلوب والضفاف...

- وأنت يا أخي تغامر بحياتك...؟

- الحياة هذه بلا مغامرة لا نفع منها. المغامرة أصل التقدّم. أميركا التي نراها اليوم، ما كانت لتقوم بلا مغامرة المغامرين.

لسماعه بمشروع أخيه الخارق، تملّك حميداً شعور غريب يُراوح بين الانجذاب إلى بريق الحلم... والتفاؤل بإمكانيّة تحقيقه، وبين اليقين باستحالة ذلك. روح المغامرة لا تنقصه. أخوه لا يعرف أنّه، في السادسة عشرة ضرب بمخاوفه عرض الحائط، وسافر إلى فلسطين بمفرده. با ع واشترى بالقليل من المال. ولا يعرف كيف وضع دمه على كفّه، وهرب من الثكنة وهو في السابعة عشرة. وحين ركب السفينة في الثامنة عشرة، بمال قليل وجهل باللغات وبالبلاد، كان بلا شكّ، يشقّ درب المغامرة. لكن أن يذهب المرء إلى مجاهل الأمازون... ففي هذا ما يفوق المغامرة. في هذا تهوّر... تهلكة... المغامرون ليسوا من طينة أخيه، ولا هم أبناء عائلات سويّة. المغامرون، على ما يسمع، من طينة الأشقياء، يائسون بائسون، ركب رؤوسهم ما يشبه

الجنون. مغامرات مثل هذه يلزمها قراصنة أو مجرمون. يلزمك أن تكون من «تلك» الطينة لتعرّض نفسك والآخرين للهلاك. تَقتل أو تُقتل. ما أبعد أخاه المدلّل، الراقص ولابس التوكسيدو... عن ذاك!

- لا تقلق يا حميد. الدنيا تغيّرت. لن يقتل أحد أحداً. لديّ شركاء عارفون، يعملون مع أكثر من دليل.

- لكن لديك زوجة وابن وابنة...

- صحيح. إنّما لأجلهم... ولأجل العائلة في صور، أغامر. لو نجحت فسيعيشون حياة الملوك! سأبني منازل في أرقى مناطق السكن.

حميد، لا يسعه القول إنّه يستخفّ بعقل «وهبي»، ولا الزعم بأنّه معجب به! حالة من الخوف الشديد والاستغراب، لبسته منذ سماعه بفكرة الذهاب إلى مجاهل البرازيل، بحثاً عن الذهب!

غفا وبريق المعدن الثمين: يؤرق نومه:

رأى جراراً ملأى به، قدوراً مثل التي كانوا يخزنون فيها العدس والزيتون، ولكنّها ملأى «بعثمليّات» وليرات من الذهب. بريقها يتلألأ على الحافات. في المنام كان سعيداً ومتحمّساً لأن يرجع ومعه «الجرّة»! يدخل بها على أمّه وأبيه، ويهتف: وجدتها! نعم، «الجرّة» التي لطالما هجس الناس بها وحلموا بالعثور عليها، وجدها هو، حميد!

لطالما سمع أناساً يهجسون بالكنوز. لا يعلم أكان الوهم يركب عقل هؤلاء، أم حدثت «لقيّات» لبعضهم فانطبعت حكاياتها في الذاكرة، وتناقلتها الأجيال؟! هو لم يشهد أيّاً منها. لكن... حين نزلت النعمة فجأة على عائلة «الحبشي»، فقلبت حياتها رأساً على عقب، وجعلتها تبني منزلاً كالقصر، وترسل ابنها البكر يدرس في بيروت، تأكد للناس مقولة جرار الذهب التي طمرها الأجداد، وعثر عليها سعيد الحظّ!

حين كبر حميد، سأل أباه رأيه في هذا، فقلب أبوه شفته، ثمّ أجاب: إنّ في الأمر سرّاً، لا شكّ.

- ما هو؟

- الله أعلم.

يوماً عن يوم، يزداد قلق حميد على أخيه. «وهبي»، بحجّة الإعداد لمشروعه، يقضي وقتاً في لقاءات يعقدها خارج العمل والبيت. زوجته «أفاميا» امرأة جميلة وصالحة، أرجنتينيّة الأصل، كرّست حياتها لرعاية ولديها والاهتمام ببيتها وزوجها. تساعد حميداً في بعض دروس الإنكليزيّة التي يتعلّمها في المعهد. بمرور الوقت، صارت تأنس له وتشكو همومها. بين كلمات وإشارات، تحكي عن مخاوفها من نمط الحياة التي يعيشها «وهبي». وترجو أن يبقى في أميركا، لعلّه يتمكّن من التأثير الإيجابيّ في أخيه. ترجو منه أن يستمرّ

في العمل معه لحين، ولا يدعه يركب رأسه وراء المغامرة اللعينة تلك! صارحها بنصيحته «وهبي» بالعودة إلى لبنان، وسارعت هي إلى الموافقة. الآن وقد تعرّفت بحميد، وعرفت من يكون ومن تكون عائلته... لا مانع لديها من أن تصحب زوجها وولديها لقضاء بقيّة عمرها مع العائلة الفاضلة تلك.

هكذا، بين إشارات وعبارات، حدث اتّفاق بين الأخ وزوجة أخيه: الذهاب إلى لبنان.

عندما دخل عليهما «وهبي» ووجدهما على هذا القدر من التقارب فهم: زوجته تشكو حالها، وحميد يؤاسيها.

إبتسم حميد وقال لأخيه:

- نعدّ لك مشروعاً يعجبك يا أخي؟

- وهو؟

- أن نذهب جميعاً إلى لبنان. أفاميا وافقت.

سكت «وهبي». الفكرة التي خطرت في رأسه... «الكارت» الأخير الذي سيلعبه ليقطع على أخيه الأمل... هو أن يكشف له الحقيقة التي يخبّئها عنه. إن كانت الغاية من العودة، تبريد قلب أمّه، فليخبره بالحقيقة المرّة:

أمّه ماتت!

كنّا في عرض البحر حين وافاها الأجل. ثمّ، وبعد شهور وصله الخبر!

نعم، زهيّة كامل أبو صالح ماتت».

كان من شأن تلك العبارة أن تقضي على آخر بارقة أمل للأخ الأصغر. لقد غدر به الزمن، وماتت أمّه في غيبته، وهو تكبّد مشقّة السفر من أجل لا شيء. وراوده ذاك الإحساس القاتل بأنّ سفر «وهبي»، وسفره هو، كانا السبب في موتها المبكر.

* * *

بعد يوم شاقّ من إحساسها باقتراب منيّتها، فتحت زهيّة الخزانة، وتناولت الكيس الصغير الذي تضع فيه ما وفّرته من «عثمليّات». وعن الطاولة تناولت «الصورة» واستلقت في الفراش واضعة الصورة على صدرها.

إلتفتت إلى ابنتها ليلى وقالت:

هذه الفلوس لحميد. أرسلها منذ سفره لأخبّئها له. وتلك لـ«وهبي»...

في سرّه، جدّي يلوم نفسه: ليته لم يأخذها تزور «الستّ». الرحلة

أنهكتها. وليلى في سرّها تفكّر: ليت حميداً لم يسافر. وزهرة تندب غياب «وهبي».

إبنتها ليلى تمسك بيدها، وزهرة تقرأ الآيات، وابنة عمّة لها تقرئها الشهادة التي على كلّ مسلم أن يتلوها في طريقه لملاقاة ربّه مؤمناً.

زهيّة تفتح عينيها وتسأل عن «وهبي». لون عينيها الرماديّ يؤكّد لجدّي أنّ النهاية وشيكة. يهرع إلى الدار ويكتم بكاءه ويلعن «وهبي»، فيما هي تسأل هل ذهب «وهبي» إلى الحرب ؟ وتسأل عن حميد هل أخذوه هو أيضاً، إلى سفر برلك.؟

- لا يا أمّي. «وهبي» راح عا أميركا. حميد لحقوا ليرجّعوا. الحمدالله رح يوصلوا. صاروا بحيفا. يوم وبيوصلوا عا صور.

لا فائدة!

* * *

أمضى حميد ليله يبكي. وجه أمّه لا يفارقه. وصوتها! لأوّل مرّة منذ رحيله يحضره صوتها بهذه القوّة: صوت طفلة لوجه طفلة... نعم، فهذه التي أنجبته وأنجبت أربعة آخرين... لا تعدو كونها طفلة استعصت على الكبر. يبكي طفولتها وأمومتها وفقدانها ابنتها وفراق ولديها. يبكي في الليل وفي خلواته بنفسه.

لا يسمعه «وهبي»! ففي تلك الآونة، وفي خضمّ الإعداد لمشروعه الخرافيّ، كثرت غيباته عن البيت. وطالت. سمعته زوجة «وهبي»، هذه المرأة الحنون الوفيّة. جاءت إليه تكفكف دمعه. بكت هي أيضاً بكاءه. وبكت نمط عيش «وهبي» الذي لن يجلب له سوى الإفلاس. وقد يجلب لأسرته ولنفسه الهلاك.

ما الذي يدعوك يا حميد للبقاء؟

لا يكفّ عن تذنيب أخيه في السرّ والعلانية.

وهذا في السرّ والعلانية يردّد القصيدة التي لطالما سمعها من أبيه:

«أعلّمه الرماية كلّ يوم،

فلمّا اشتد ساعده رماني.

وقد علّمته نظم القوافي،

فلمّا قال قافية هجاني».

«وهبي» يردّد الأبيات التي على وقعها يتّخذ حميد قرار الرحيل. أفاميا ترجو منه أن يتريّث ويفكّر. لعلّ...

كان قاب قوسين من تنفيذ فكرته، حين جاءه عامل المطعم يخبره بأنّ هناك سيّدة في الخارج تطلب مقابلته. «ليدي». ذهب

إليها! وقف قبالتها! دهمه إحساس غامض قويّ بأنّه قد سبق له رؤيتها!

من تكون هذه يا ترى؟!

حيّته بالإنكليزيّة:

«غود مورننغ».

ثمّ بلهجة لبنانيّة محلّيّة:

- «سعيدة. سعيدة» يا مستر حميد»!

عجباً، كيف عرفت اسمه؟!

- أين مستر «وهبي»؟

«من تكون؟

لا يعرف»!

لكنّ الزمن يعود به إلى الوراء. ذكريات تأتيه من هنا وهناك:

أبوه رافعاً الحزام، وأخوه الكرسيّ...

أبوه يقول «أدب سيس»

ويبصق!

وهو يعبر مع أخته ليلى شوارع ضيّقة في حيّ المنارة في صور... وشابّة تعبر الرصيف المقابل، تتوقّف برهة قصيرة وتتأمّل وجهه...

وفيما الصور تتكثّف في خياله.... سمع السيّدة تقول ما سيصيبه بالذهول:

- قل لمستر «وهبي» إنّ بهيّة وصلت!



عمّي ووالدي في أميركا (١٩٢٠)

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بيدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- فيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابح يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا
- ألِف

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها - هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر - د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ - نافتج سارنا

جين ساسون

- مغامرة حب في بلاد ممزقة
- سموّ الأميرة
- بنات سموّ الأميرة
- لأنك ولدي
- حلقة الأميرة سلطانة

منى دايخ

- طلاق الحاكم
- إيزيس في القدس
- بوح أنثوي
- غزل العلوج

راوي الحاج

- لعبة دي نيرو
- الصرصار

روحي طعمة

- لا أحد يفهم ما يدور الآن
- امرأة للشتاء المقبل

طلال حيدر

- **آن الأوان**
- **سرّ الزمان**

عصام محفوظ

- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون**
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان**

◆ ◆ ◆

- **الأيام والناس** - برهان الدجاني
- **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- **انظر إليك** - مرام المصري
- **بائع الفستق** - سمير عطا الله
- **اللباس والزينة في العالم العربي** - أ. بينول
- **أُخذَةُ كِشْ** - ألبير نقاش
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية** - د. محمد أبو علي
- **إميل بجاني، كاتب في الغربال** - بقلم شخصيات عدة
- **طه حسين، من الشاطئ الآخر** - عبد الرشيد محمودي
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - منير عبود
- **قصة يوطوبيا. قصة مشربية** - حسن فتحي
- **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** - د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوف عند العرب** - د. عادل كامل الآلوسي
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** - هادي محيي الخفاجي
- **الطربوش** - روبير سوليه
- **مهما قلت لا تقل** - د. نبيل سليمان
- **امرأة تبحث عن وطن** - ماريا المعلوف
- **خطوات أنثى** - رُدينة الفيلالي
- **أثواب الحزن** - هدى السراري
- **وراء الأفق** - ابراهيم أبو زيد
- **بساطٌ من الزهر الأحمر** - نيلوفر بازيرا
- **إمرأة... وظلّان** - خلود عبد الله الخميس
- **اعترافات غايشا** - آرثر غولدن
- **خريف من ذهب** - جوزيف طوبيّا
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** - غسّان علم الدين
- **حقيبة حذر** - عاطف البلوي
- **ألف عام من الصلاة** - ييون لي
- **حبٌّ محرَّم** - يوكيو ميشيما
- **بيل كانتو** - آن باتشيت
- **عشّاق أمي** - هاجر عبد السلام
- **الخامدون** - ربى عنبتاوي
- **هو وهي في السعودية** - هتّان بن محمد الطاسجي
- **نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية** - خديجة نمري
- **حبيبتي الحقيقة** - أحمد طقش
- **الوردة الضائعة** - سردار أوزكان
- **أرملة مهندس** - صالح ابن عايض
- **بومبي** - روبيرت هاريس
- **ويسألونك عن الذاكرة** - د. عبد السلام فزازي
- **فتاة من بلغراد** - لويس دو بيرنيير
- **أصل الغواية** - منتهى العزة
- **دماء الأزهار** - أنيتا أميرسڤاني
- **باب للخروج** - طارق محمود فراج
- **الحريم اللغوي** - يسرى مُقدّم
- **الخجل والكرامة** - داغ سولستاد
- **هل يفرّقنا الدين؟** - حسن السيد أسعد فضل الله
- **أبعد من الريف** - **شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر
- **أحمد فؤاد نجم** - د. كمال عبد الملك
- **متتالية فرنسية** - إيرين نِميروفسكي

- **أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو** - بكادي محمد
- **«الأصوليّ» المتردِّد** - محسن حامد
- **مولود وثلاثة آباء** - نائل ماجد مجذوب
- **وصية شاعرة** - ناهد عيد
- **صيف الجرّاح** - محمد طعّان
- **نهاية جيل** - محمد سعيد طالب
- **ما يفعله الغريب في الليل** - محمد دياب
- **رحمة** - توني موريسون
- **الغشوة** - راضي د. شحادة
- **ابن الحزب** - فيصل فرحات
- **رحلة بهمان** - محمد طعان
- **مجانين بوكا** - شاكر نوري
- **التوأم** - غيربرند باكر
- **حين تستحيل الحياة نوراً** - سردار أوزكان
- **اللعنة على نهر الوقت** - بير بيترسون
- **مرض الموت** - مارغريت دوراس
- **ميتينغ** - جوليان حكيم
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** - قصة رامي حبيب - رسم أحمد سليم
- **ذبائح ملوّنة** - سليم اللوزي
- **مذكّرات امرأة شيعيّة** - رجاء نعمة

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ۳۰۰/ ۹۹٦۲۰۰ ۷ ۹٦۱+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

الكاتبة

رجاء نعمة روائية لبنانية تحمل شهادة دكتوراه في الآداب.

نشرت عددًا من الروايات في لبنان ومصر، وعددًا من الأبحاث في التحليل النفسي للأدب.

إضافة إلى لبنان، عاشت سنوات طويلة للدراسة في فرنسا، وللعمل في عدد من البلدان العربية، منها مصر واليمن، قبل أن تنتقل مؤخّرًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

مذكّرات امرأة شيعيّة

تتساءل كاتبة المذكّرات: من أين تبدأ الذكريات؟ فلا تلقى سوى أجوبة ملتبسة.

فالذكريات لا تبدأ من إنسان بعينه، أو مكان محدّد أو زمن معيش، بل تتّصل بكل الأماكن والأزمان ومن فيها وعليها.

وتتّصل بالوقائع والتصوّرات.

بالنفس والجسد.

بالظاهر والباطن.

إنها عالم، اختار لنا الزمن فيه مرقدًا مؤقّتًا.

وليس الختام من صفات الذكريات...

فهذه الأسرار والمكنونات تسكننا ونسكنها طوال عبورنا رحاب الدنيا.

ترافقنا مثل ظلالنا دون أن نملكها!

فهذه، لا أحد يملكها. وما في وسعنا سوى الاستذكار.

ISBN 978-9953-88-772-2

9 789953 887722

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥، - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر